المنهج القويم

في إثبات الإمامة من الذكر الحكيم

تأليف

السيد محمد الرجائي

المنهج القويم

في إثبات الإمامة من الذكر الحكيم

أوّل كتاب في بابه يعنى بدراسة مسألة الإمامة
حكماً وموضوعاً ويبيّن خصائص الإمام وصفاته
على ضوء معطيات الآيات القرآنية فحسب

تأليف
السيد محمد الرجائي

هوية الكتاب

- الكتاب: المنهج القويم في اثبات الامامة في الذكر الحكيم
- تاليف: السيّد محمّد الرجائي
- الناشر: بهار قلوب
- طبع: العلمية
- التصوير الفنّي: ليتوغرافي سيّد الشهداء عليه السلام ـ قم
- الطبعة: الأولىٰ
- تاريخ الطبع: ١٤٢٠ هـ ق، ١٣٧٨ هـ ش
- العدد: ١٠٠٠ نسخة

شابك: ٣ ـ ٤ ـ ٩٢٣٩٢ ـ ٩٦٤

ISBN: 964 - 92392 - 4 - 3

مؤسسه انتشاراتى بهار قلوب

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله علىٰ أشرف الخلائق أجمعين وخاتم الأنبياء والمرسلين محمّد وعلىٰ آله الطاهرين ، ولعنة اللّه علىٰ أعدائهم أجمعين إلىٰ يوم الدين .

وبعد ، فهذه فصول تتضمّن آيات من الكتاب الكريم تدلّ علىٰ شرائط من يستحقّ الخلافة عن النبيّ ﷺ .

مقدّمة

نقول : إنّ القرآن الكريم يدلّ علىٰ أنّ نبيّنا سيّد المرسلين ، وأشرف الخلائق أجمعين أبا القاسم محمّداً ﷺ معصوم من السهو والخطأ، وعالم بالكتاب الذي هو تبيان لكلّ شيء ، أجرى اللّه تعالىٰ علىٰ يده المعجزات الدالّة علىٰ رسالته من عند اللّه تعالىٰ ، ومن أكبر معجزاته القرآن الكريم .

وله معجزات أُخرىٰ لمن لم يقنع بمعجزة القرآن من تسبيح الحصىٰ ، وشقّ القمر ، وغيرهما ، أرسله اللّه تعالىٰ إلى الإنس والجنّ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن فلمّا حضروه

قالوا انصتوا فلمّا قضي ولّوا إلىٰ قومهم منذرين ﴾[١].

ولمّا توفّاه اللّه تعالىٰ اختلفت أُمّته في خليفته، فقالت طائفة: إنّ خليفته علىٰ جميع الإنس والجنّ يكون بمنزلته علماً وعملاً وعصمةً، عالم بالكتاب الذي هو تبيان لكلّ شيء، عارف بجميع اللغات.

فكما أنّ له الرئاسة علىٰ أمر الدنيا والدين للإنس، كذلك له الرئاسة علىٰ أمر الدنيا والدين للجنّ، فهو يشاهدهم ويعرف ألسنتهم، ويجيب مسائلهم، ويبيّن لهم أحكامهم.

ولابدّ أن يعيّنه اللّه تعالىٰ ورسوله، وانّ الذي عيّنه اللّه ونصبه خليفة للنبيّ صلى الله عليه وآله بلا فصل، هو علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو بمنزلته علماً وعملاً وعصمةً، وساقوا الخلافة في ذرّيّته أحد عشر المعصومين عليهم السلام، ويسمّىٰ هؤلاء بالشيعة الإثناعشريّة.

وقالت طائفة: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم ينصب خليفة ولا حاجة إليه، وإنّما الحاجة إلى الأمير، فالخلافة عندهم هي الإمارة، وهذا الإختلاف هو المنشأ للإختلاف في الأُصول الإعتقاديّة والفروع العمليّة، حتّىٰ قالت الشيعة: إنّ أعمال غيرهم باطلة، واعتقادهم لا يوجب السعادة الأُخرويّة.

ومن نظر من المسلمين إلىٰ هذا الإختلاف يرىٰ نفسه بين الجنّة والنار، وعقله السليم يحكم بأنّه ليس معذوراً في ترك النظر في أدلّة الطرفين بلا تعصّب ولا تقليد للآباء، وقد استوفىٰ علماء الشيعة من قديم الأيّام في كتبهم الأدلّة القاطعة المقنعة علىٰ إثبات عقيدة الشيعة،

---

(١) الأحقاف: ٢٩.

فجزاهم اللّه عن الإسلام خيراً .

ولا تدور النجاة من النار مدار التسمية ، بل كلّ إنسان مسؤول عن نفسه ، ويجب عليه تحصيل العلم بصحّة معتقده ، وصحّة عمله ، فصحيحهما يوجب السعادة والفوز بالجنّة ، قال الله تعالىٰ ﴿ يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبّئكم بما كنتم تعملون ﴾(١) .

ولا ينبغي للعاقل أن يتعصّب للإنتماء إلىٰ طائفة خاصّة ، ويكون عداوته لطائفة اُخرىٰ موجبة لخذلانه ، كما قال شعيب عليه‌السلام : ﴿ ويا قوم لا يجرمنّكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ﴾(٢) .

بل ينبغي له التثبّت والتحقيق عن الحقيقة من دون تعصّب ، حتّىٰ لا يكون ممّن قال الله تعالىٰ : ﴿ قل هل اُنبّئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً ﴾(٣) .

والإعتقاد الصحيح هو الإعتقاد بوحدانيّة الله تبارك وتعالىٰ ، وسلب صفات الممكن والمخلوق ، وكلّ صفة ناقصة عنه ، وإثبات جميع الصفات الكماليّة له .

والإعتراف بالأنبياء ، والتصديق بهم وبنبيّنا أنّه خاتم الأنبياء ، وشريعته ناسخة لشرائع من قبله ، وأنّ القرآن كتابه ، وأنّ خليفته بلا فصل علي بن أبي طالب عليه‌السلام وأحد عشر أولاده المعصومين عليهم‌السلام ،

---

(١) المائدة : ١٠٥ .

(٢) هود : ٨٩.

(٣) الكهف : ١٠٤ .

ويتولّىٰ أولياء الله ويحبّهم ويتبرّأ من أعداء الله ويبغضهم ، ويعتقد بجميع ما أُنزل على النبيّ صلى الله عليه وآله .

والعمل الصحيح هو العمل الموافق للقرآن لنصوصه وظاهره ، المفسّر من أهل بيت النبيّ عليهم السلام وبالأخبار الصادرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام .

وإنّي أُقدّم هذه الفصول لمن يريد النظر في الأدلّة الموجبة للعلم بصحّة معتقد الشيعة ، فإنّه لا يكفي في الأُصول الإعتقاديّة التقليد ولا الظنّ ، بل لابدّ من القطع الحاصل من الأسباب العقلائيّة والبراهين القاطعة .

ولا حجّة أقوىٰ وأتقن من أخذ المسلم بما اتّفق عليه جميع فرق المسلمين ، وهي نصوص القرآن الكريم[١] ، والخبر المتواتر عن سيّد المرسلين[٢] ، وقد قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا

---

(١) روى الكليني في الكافي (١ : ٧) مرسلاً ، قال عليه السلام : من أخذ دينه من كتاب الله وسنّة نبيّه صلوات الله عليه وآله زالت الجبال قبل أن تزول ، ومن أخذ دينه من أفواه الرجال ردّته الرجال . وقال عليه السلام : من لم يعرف أمرنا من القرآن لم يتنكّب الفتن .

ورویٰ في البحار (٢٣ : ١٠٣) عن بشارة المصطفىٰ بإسناده ، عن محمّد الحلبي ، قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام : انّه من عرف دينه من كتاب الله عزّوجلّ زالت الجبال قبل أن يزول ، ومن دخل في أمر بجهل خرج منه بجهل ، قلت : وما هو في كتاب الله عزّوجلّ ؟ قال : قوله تعالى الحديث .

(٢) وهو حديث الثقلين ، وقد رواه الفريقين بأسانيد مختلفة وطرق متشتّة ، رواه السيّد ابن طاووس في كتابه الطرائف (ص ١١٣ - ١١٧) عن أعلام العامّة عن مصادرهم المعتبرة عندهم ، وراجع مقدّمة كتاب جامع الأحاديث ، حيث عقد مقدّمة وجيزة في بدء الحديث وسيره وفي وجوب التمسّك بكتاب الله الكريم والعترة الطاهرة المعصومين عليهم السلام علىٰ كافّة المسلمين بعد النبيّ صلى الله عليه وآله .

الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى اللّه والرسول إن كنتم تؤمنون باللّه واليوم الآخر ﴾[١] والردّ إليه سبحانه يكون بالردّ إلىٰ كتابه الكريم، والأخذ بمحكمه ونصّه.

ونحن في هذا العرض في مقام الإستفادة من القرآن الكريم، ولا ريب أنّ المسلم المنصف - الذى آمن بالقرآن الكريم ولم يكن ممّن قال اللّه سبحانه: ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾[٢]- لو تدّبر في آياته الكريمة، لهداه إلىٰ موافقة ما يذهب إليه الشيعة الإماميّة الإثناعشريّة، من أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد عيّن خلفاءه الذين يخلفونه بعد وفاته، ولاتخلو الأرض منهم في كلّ عصر من الأعصار والأجيال، وهم بمنزلته صلى الله عليه وآله علماً وعملاً وعصمةً[٣].

وهم إثناعشر أوّلهم الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وآخرهم الموجود في زماننا الغائب عن أنظارنا هو الإمام الحجّة الثاني عشر عجّل اللّه تعالىٰ فرجه.

وهنا تجدر الإشارة إلىٰ أنّ هذا الموضوع يتّم علىٰ مرحلتين:

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) البقرة: ٨٥.

(٣) روى الكليني في الكافي (١: ٢٧٠ ح ٧) بإسناده عن محمّد بن مسلم، قال: سمعت أبا عبد الله صلى الله عليه وآله يقول: الأئمّة بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وآله إلاّ أنّهم ليسوا بأنبياء، ولا يحلّ لهم من النساء ما يحلّ للنبيّ صلى الله عليه وآله فأمّا ما خلا ذلك، فهم فيه بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعقد العلاّمة المجلسي في البحار (٢٥: ٣٥٢) باباً سمّاه: باب أنّه جرىٰ لهم من الفضل والطاعة مثل ما جرىٰ لرسول الله صلى الله عليه وآله وأنّهم في الفضل سواء، ثمّ أورد أحاديث في الباب.

أقول: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أفضل، وبعده علي عليه السلام أفضل من سائر الأئمّة عليهم السلام.

المرحلة الأُولىٰ : المرحلة النظريّة ، وهــي إثـبات أوصـاف الإمـام وخليفة النبيّ ﷺ ومناقبه من القرآن الكريم ، كما قدّمنا .

وهذه محاولة جادّة استنطقت فيها الآيات القـرآنـيّة التـي تـتكفّل بإثبات هذه العقيدة ، بعد التدبّر التامّ من دون حاجة إلى الإستشهاد بخبر من طرق الشيعة ، أو من طرق العامّة ، مع كثرة الأخبار المتواترة علىٰ هذا المعنىٰ من الفريقين ، وإن كانت هذه الكيفيّة من الإستدلال بالقرآن الكريم لها شواهد كثيرة ، يرشد إليها كثير من الأخبار التي بأيدينا ، علىٰ أنّنا سنشير إلىٰ بعض الروايات الواردة في تفسير هذه الآيات .

والتي يمكن لنا - إضافةً إلىٰ ذلك - التوصّل بها إلىٰ مطلب آخر ، وهو إثبات فضائل الأئمّة المعصومين عليهم‌السلام ومناقبهم من القـرآن الكـريم ، والأخبار الصحيحة الدالّة عليها ، بحيث يرتفع التشكيك في صحّة بعض الروايات الواردة في فضائلهم في كتاب الكافي الشريف لمـحمّد بـن يعقوب الكليني رحمه اللّه ، حيث أنّه اشتمل علىٰ روايات في فضائلهم ربّما يناقش فيها ، في حين أنّ أكثرها مـطابق للـروايـات الصـحيحة والقرآن الكريم .

وهنا يأتي دور المرحلة الثانية ، وهي المرحلة التطبيقيّة ، ولا ريب أنّ هذه المرحلة شائكة جدّاً ، حيث لا يؤمن فيها مـن تـوسّط العـاطفة ، الحقيقة التي تسبّب إنحراف الخطّ الطبيعي عن مجراه الأصيل .

ولأجل أنّا نتدارك الموقف بحزمٍ وإنـصاف ، نـرجـع إلى المـصادر التاريخيّة الموثوقة المتّفق عليها ، لتجلّي لنا الشخصيّات المتوفّرة فيها تلك الصفات ، حيث تنطبق عليها الآيات القـرآنـيّة إنـطباقاً طـبيعيّاً ، وتكون بذلك أكثر حيادية .

الفصل الأوّل
في الآيات الدالّة علىٰ لزوم التدبّر في الكتاب والعمل بنصوصه وظواهره

إعلم أنّ حجّيّة القرآن الكريم، ووجوب إتّباعه والعمل به ضروريّ لا ريب فيه، وقد حثّ القرآن الكريم على التدبّر في آياته، والتفكّر في معانيه، والنبيّ ﷺ قد أمر بالتمسّك به في الخبر المتواتر بين الفريقين.

وتمسّك أئمّة أهل البيت عليهم السلام بالقرآن في أحكامهم، وأرجعوا إليه في أخبار متواترة عنهم[1].

ونذكر بعض الآيات الدالّة علىٰ ذلك، وهي:

الأُولىٰ: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتّبعوه واتّقوا لعلّكم ترحمون ❊ أن تقولوا إنّما أُنزل الكتاب علىٰ طائفتين من قبلنا وإن كنّا عن دراستهم لغافلين ❊ أو تقولوا لو أنّا أُنزل علينا الكتاب لكنّا أهدىٰ منهم فقد جاءكم بيّنة من ربّكم وهدىً ورحمة فمن أظلم ممّن كذّب بآيات اللّه وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ﴾[2].

---

(١) راجع جامع أحاديث الشيعة ١ : ١٥٥ باب حجّيّة ظواهر الكتاب بعد الفحص عن المخصّص أو المقيّد أو المبيّن أو المفسّر أو الناسخ.

(٢) الأنعام: ١٥٥ – ١٥٧.

الثانية : ﴿ إتّبعوا ما أُنزل إليكم من ربّكم ولا تتّبعوا من دونه أوليـاء قليلاً مّا تذكّرون ﴾(١).

الثالثة : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لتبيّن لهم الذي اخـتلفوا فـيه وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون ﴾(٢).

الرابعة : ﴿ ولقد صرّفنا في هذا القـرآن ليـذّكّـروا ومـا يـزيدهم إلاّ نفوراً ﴾(٣).

الخامسة : ﴿ ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل فأبىٰ أكثر الناس إلاّ كفوراً ﴾(٤).

السادسة : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآناً عربيّاً وصرّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون أو يحدث لهم ذكراً ﴾(٥).

السابعة : ﴿ سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنات لعلّكم تذكّرون ﴾(٦).

الثامنة : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتّقين ﴾(٧).

التاسعة : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن مـن كـلّ مـثل ولئـن

---

(١) الأعراف : ٣.

(٢) النحل : ٦٤.

(٣) الاسراء : ٤١.

(٤) الاسراء : ٨٩.

(٥) طه : ١١٣.

(٦) النور : ١.

(٧) النور : ٣٤.

جئتهم بآية ليقولنّ الذين كفروا إن أنتم إلاّ مبطلون ﴾[١].

العاشرة : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته وليتذكّر أُولوا الألباب ﴾[٢].

الحادية عشرة : ﴿ اللّه نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلىٰ ذكر اللّه ذلك هدى اللّه يهدي به من يشاء ومن يضلل اللّه فماله من هاد ﴾[٣].

الثانية عشرة : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثلٍ لعلّهم يتذكّرون ﴾[٤].

الثالثة عشرة : ﴿ كتاب فصّلت آياته قرآناً عربيّاً لقومٍ يعلمون ﴾[٥].

الرابعة عشرة : ﴿ حم * والكتاب المبين * إنّا جعلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون ﴾[٦].

الخامسة عشرة : ﴿ هذا بصائر للناس وهدىً ورحمة لقومٍ يوقنون ﴾[٧].

السادسة عشرة : ﴿ ومن قبله كتاب موسىٰ إماماً ورحمةً وهذا كتاب

---

(١) الروم : ٥٨ .

(٢) ص : ٢٩ .

(٣) الزمر : ٢٣ .

(٤) الزمر : ٢٧ .

(٥) فصّلت : ٣ .

(٦) الزخرف : ١ – ٣ .

(٧) الجاثية : ٢٠ .

مصدّقٌ لساناً عربيّاً لينذر الذين ظلموا وبشرىٰ للمحسنين ﴾[١] .

السابعة عشرة : ﴿ أفلا يتدبّرون القرآن أم علىٰ قلوبٍ أقفالها ﴾[٢] .

الثامنة عشرة : ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر ﴾[٣] .

التاسعة عشرة : ﴿ وما هو إلاّ ذكر للعالمين ﴾[٤] .

العشرون : ﴿ أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[٥] .

وهذه الآيات الشريفة وغيرها تدلّ بوضوح علىٰ أنّ الكتاب جعل عربيّاً ليتعقّل الذين بعث فيهم النبيّ صلى الله عليه وآله ويتدبّروا آياته ، ويتّبعوا محكماته ونصوصه ، ويأخذوا بأوامره ، ويتركوا ما نهىٰ عنه ، ويتّعظوا بمواعظه .

ثمّ إنّ دلالة آياته علىٰ أصناف :

منها : ما هو نصّ في معناه ، أو كالنصّ فيه بعد ملاحظة جميع الآيات المناسبة لمعناه ، كالآيات الدالّة على التوحيد ، ونبوّة الأنبياء ، ويوم القيامة ، والثواب والعقاب ، ووجوب الصلاة والصيام ونحوها .

ويستفيد من هذا الصنف من يعرف اللغة العربيّة ، فعليهم أن يتدبّروا في هذه الآيات ، وهذا الصنف حجّة موجب للعلم يجب إتّباعه .

ومنها : ما هو متشابه ، ولعلّ المراد به ما يحتمل المعاني المتعدّدة ،

---

(١) الأحقاف : ١٢ .

(٢) محمّد صلى الله عليه وآله : ٢٤ .

(٣) القمر : ١٧ .

(٤) القلم : ٥٢ .

(٥) النساء : ٨٢ .

وهذا الصنف كثير ، وقد ذمّ القرآن الكريم على اتّباعه في قوله سبحانه ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أُمّ الكتاب وأُخر متشابهات فأمّا الذين في قلوبهم زيغٌ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلاّ اللّه والراسخون في العلم يقولون آمنّا به ﴾[١] .

هذه الآية نصّ في المنع عن اتّباع الآيات المتشابهة ، ووجوب الوقوف عندها ، ويجب على المسلمين العمل بهذه الآية ، وهو يتوقّف علىٰ معرفة المتشابه ، ولا يتحقّق معرفتها إلاّ إذا خلى الإنسان عن التعصّبات الجاهليّة ، وعن متابعة الهوىٰ وتقليد الآباء .

ومنها : ما هو ظاهر في معناه ، فإن كان ظاهراً عند المخاطبين ولو بمعونة القرائن الحاليّة ولم يكن من العامّ الذي أُخّر بيان خاصّه ، أو المطلق الذي أُخّر بيان مقيّده في لسان النبيّ ﷺ ، أو من أودعه علمه ، فهو حجّة ويكون من المحكمات .

وإن كان ظاهراً في معناه ، لكن وقع بيان خلاف ظاهره من التخصيص والتقييد والتبيين في كلام النبيّ ﷺ ، أو من أودعه علمه ، فلا يكون الظاهر حجّة إلاّ بعد وصول البيان المخالف له .

وأمّا ما يستظهره كلّ ذي سليقة خاصّة بحسب تفكيره وتقليده لمعاشريه من أرحامه وأصدقائه وأهل بلده ، فلا دليل علىٰ حجّيّته ، مثلاً من يرىٰ مساواة الأغنياء والفقراء يستظهر ذلك من بعض الآيات ، ومن يرىٰ حركة الأرض يستظهرها من بعض الآيات ، كقوله تعالىٰ :

---

(١) آل عمران : ٧ .

﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً ﴾[١] بزعم أنّ المراد به أنّها كمهد الطفل يتحرّك ويدور حول نفسه .

ومن كان حسن الإعتقاد بجميع صحابة النبيّ ﷺ يستظهر من قوله تعالىٰ ﴿ محمّد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفّار ﴾[٢] الآية ، مدح جميع من معه .

والله سبحانه وتعالىٰ أنعم على الإنسان بالعقل ، فينبغي له أن يستفيد من هذه النعمة ، والعقل يحكم بأنّه لابدّ من تصحيح الإعتقاد بالقرآن لا بحمل الإعتقاد عليه .

بل إنّ القرآن الكريم قد منع عن هذه الإستظهارات التي لا توجب العلم في آيات ناهية عن اتّباع غير العلم ، كقوله سبحانه ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾[٣] .

ونحن في هذا العرض بصدد الإستفادة من القرآن الكريم لتعيين خليفة النبيّ ﷺ وأوصافه ، نتّبع الآيات المحكمات من نصوص الكتاب ، أو ظواهره التي لا يعتريها إحتمال الخلاف بعد تأيّد بعضها ببعض ، ورفع إجماله بمبيّنه ، ونستفيد مطلوبنا منها ، فنحن إذاً مصداق قوله تعالىٰ ﴿ والذين يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنّا لا نضيع أجر المصلحين ﴾[٤] .

وهذه الكيفيّة من الإستفادة من هذه الآيات الشريفة من نعم اللّه

---

(١) طه : ٥٣ .

(٢) الفتح : ٢٩ .

(٣) الاسراء : ٣٦.

(٤) الأعراف : ١٧٠ .

سبحانه التي أنعم بها علىٰ جميع من يعرف معاني الآيات الشريفة لو كان يعقل ، ولا يجرّه تعصّب متابعة الآباء -كما قال سبحانه وتعالىٰ في شأن بعضهم : ﴿ وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل اللّه قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾[١] -إلىٰ طمس الحقائق . واحتجاجات أئمّتنا المعصومين عليهم السلام بهذه الآيات مذكورة في كتب الإماميّة[٢] .

---

(١) البقرة : ١٧٠ .

(٢) روى الكليني بإسناده عن مسعدة بن صدقة ، قال : دخل سفيان الثوري علىٰ أبي عبد الله عليه السلام فرأىٰ عليه ثياب بيض كأنّها غرقىء البيض ، فقال له : إنّ هذا اللباس ليس من لباسك .

فقال له : إسمع منّي وع ما أقول لك ، فإنّه خير لك عاجلاً وآجلاً ، إن أنت متّ على السنّة والحقّ ولم تمت علىٰ بدعة ، اُخبرك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في زمان مقفر جدب ، فأمّا إذا أقبلت الدنيا ، فأحقّ أهلها بها أبرارها لا فجّارها ، ومؤمنوها لا منافقوها ، ومسلموها لا كفّارها ، فما أنكرت يا ثوري فوالله إنّني لمع ما ترىٰ ما أتىٰ عليّ مذ عقلت صباح ولا مساء ولله في مالي حقّ أمرني أن أضعه موضعاً إلاّ وضعته .

قال : فأتاه قوم ممّن يظهرون الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم علىٰ مثل الذي هم عليه من التقشّف ، فقالوا له : إنّ صاحبنا حصر عن كلامك ولم تحضره حججه ، فقال لهم : فهاتوا حججكم ، فقالوا له : إنّ حجّتنا من كتاب الله ، فقال لهم : فأدلوا بها ، فإنّها أحقّ ما اتّبع وعمل به .

فقالوا : يقول الله تبارك وتعالىٰ مخبراً عن قوم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله : ﴿ ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شحّ نفسه فأُولئك هم المفلحون ﴾ فمدح فعلهم . وقال في موضع آخر : ﴿ ويطعمون الطعام علىٰ حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ فنحن نكتفي بهذا .

فقال رجل من الجلساء : إنّا رأيناكم تزهدون في الأطعمة الطيّبة ، ومع ذلك تأمرون الناس بالخروج من أموالهم حتّىٰ تمتّعوا أنتم منها .

فقال أبو عبد الله عليه السلام : دعوا عنكم ما لا تنتفعون به ، أخبروني أيّها النفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه الذي في مثله ضلّ من ضلّ وهلك من هلك من هذه الأمّة ؟ فقالوا له : أو بعضه فأمّا كلّه فلا .

فقال لهم : فمن هنا أُتيتم ، وكذلك أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله .

فأمّا ما ذكرتم من إخبار الله عزّوجلّ إيّانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم ، فقد كان مباحاً جائزاً ولم يكونوا نهوا عنه ، وثوابهم منه على الله عزّوجلّ ، وذلك أنّ الله جلّ وتقدّس أمر بخلاف ما عملوا به ، فصار أمره ناسخاً لفعلهم ، وكان نهي الله تبارك وتعالىٰ رحمة منه للمؤمنين ونظراً لكيلا يضرّوا بأنفسهم وعيالاتهم ، منهم الضعفة الصغار والولدان والشيخ الفاني والعجوز الكبيرة الذين لا يصبرون على الجوع ، فإن تصدّقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعاً .

فمن ثَمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها ، فأفضلها ما أنفقه الإنسان علىٰ والديه ، ثمّ الثانية علىٰ نفسه وعياله ، ثمّ الثالثة علىٰ قرابته الفقراء ، ثمّ الرابعة علىٰ جيرانه الفقراء ، ثمّ الخامسة في سبيل الله وهو أخسّها أجراً .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأنصاريّ حين أعتق عند موته خمسة أو ستّة من الرقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار : لو أعلمتوني أمره ما تركتكم تدفنوه مع المسلمين يترك صبيّه صغاراً يتكفّفون الناس .

ثمّ قال : حدّثني أبي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إبدأ بمن تعول الأدنىٰ فالأدنىٰ .

ثمّ هذا ما نطق به الكتاب ردّاً لقولكم ونهياً عنه مفروضاً من الله العزيز الحكيم ، قال : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ أفلا ترون أنّ الله تبارك وتعالىٰ قال غير ما أراكم تدعون الناس إليه من الأثرة علىٰ أنفسهم ، وسمّىٰ من فعل ما تدعون الناس إليه مسرفاً .

وفي غير آية من كتاب الله يقول : ﴿ إنّه لا يحبّ المسرفين ﴾ فنهاهم عن الإسراف ، ونهاهم عن التقتير ، ولكن أمر بين أمرين لا يعطي جميع ما عنده ، ثمّ يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له .

للحديث الذي جاء عن النبيّ صلى الله عليه وآله : انّ أصنافاً من أُمّتي لا يستجاب لهم دعاؤهم :

رجل يدعو علىٰ والديه .

ورجل يدعو علىٰ غريم ذهب له بمال ، فلم يكتب عليه ولم يشهد عليه .

ورجل يدعو علىٰ إمرأته ، وقد جعل الله عزّوجلّ تخلية سبيلها بيده . ورجل يقعد في بيته ويقول : ربّ ارزقني ولا يخرج ولا يطلب ، فيقول الله عزّوجلّ له : عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والضرب في الأرض بجوارح صحيحة ، فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لاتّباع أمري ، ولكيلا تكون كلاًّ علىٰ أهلك ، فإن شئت رزقتك، وإن شئت قتّرت عليك وأنت غير معذور عندي .

ورجل رزقه الله مالاً كثيراً فأنفقه، ثمّ أقبل يدعو يا ربّ ارزقني ، فيقول الله عزّوجلّ : ألم أرزقك رزقاً واسعاً فهلاّ اقتصدت فيه كما أمرتك ولم تسرف وقد نهيتك عن الإسراف .

ورجل يدعو في قطيعة رحم .

ثمّ علّم الله عزّوجلّ نبيّه صلى الله عليه وآله كيف ينفق ، وذلك أنّه كانت عنده أوقية من الذهب ، فكره أن يبيت عنده ، فتصدّق بها ، فأصبح وليس عنده شيء ، وجاءه من يسأله ، فلم يكن عنده ما يعطيه ، فلامه السائل ، واغتمّ هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه ، وكان رحيماً رقيقاً، فأدّب الله تعالىٰ نبيّه صلى الله عليه وآله بأمره ، فقال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلىٰ عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ يقول : إنّ الناس قد يسألونك ولا يعذرونك ، فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حسرت من المال .

فهذه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله يصدّقها الكتاب ، والكتاب يصدّقه أهله من المؤمنين .

وقال أبو بكر عند موته حيث قيل له : أوص ، فقال : أُوصي بالخمس والخمس كثير ، فإنّ الله تعالىٰ قد رضي بالخمس ، فأوصىٰ بالخمس ، وقد جعل الله عزّوجلّ له الثلث عند موته، ولو علم أنّ الثلث خير له أوصىٰ به .

ثمّ من قد علمتم بعده في فضله وزهده سلمان وأبوذرّ رضي الله عنهما .

فأمّا سلمان ، فكان إذا أخذ عطاه رفع منه قوته لسنته حتّىٰ يحضر عطاؤه من قابل ، فقيل له : يا أبا عبد الله أنت في زهدك تصنع هذا وأنت لا تدري لعلّك تموت اليوم أو غداً ، فكان جوابه أن قال: مالكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم عليّ الفناء ، أما علمتم يا جهلة أنّ النفس قد تلتاث علىٰ صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما يعتمد عليه ، فإذا هي أحرزت معيشتها إطمأنّت .

وأمّا أبو ذرّ ، فكانت له نويقات وشويهات يحلبها ، ويذبح منها إذا اشتهىٰ أهله اللحم ، أو نزل به ضيف ، أو رأىٰ بأهل الماء الذين هم معه خصاصة نحر لهم الجزور أو من الشياه علىٰ قدر ما يذهب عنهم بقرم اللحم ، فيقسّمه بينهم ويأخذ هو كنصيب واحد منهم لا يتفضّل عليهم ، ومن أزهد من هؤلاء ؟ وقد قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله ما قال ، ولم يبلغ من أمرهما أن صارا لا يملكان شيئاً ألبتّة ، كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئهم ويؤثرون به علىٰ أنفسهم وعيالاتهم .

واعلموا أيّها النفر أنّي سمعت أبي يروي عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يوماً : ما عجبت من شيء كعجبي من المؤمن إنّه إن قرّض جسده في دار الدنيا بالمقاريض كان خيراً له ، وإن ملك ما بين مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له ، وكلّ ما يصنع الله عزّوجلّ به فهو خير له .

فليت شعري هل يحيق فيكم ما قد شرحت لكم منذ اليوم أم أزيدكم ؟.

أما علمتم أنّ الله عزّوجلّ قد فرض على المؤمنين في أوّل الأمر أن يقاتل الرجل منهم عشرة من المشركين ليس له أن يولّي وجهه عنهم ، ومن ولاّهم يومئذ دبره فقد تبوّأ مقعده من النار .

ثمّ حوّلهم عن حالهم رحمة منه لهم ، فصار الرجل منهم عليه أن يقاتل رجلين من المشركين تخفيفاً من الله عزّوجلّ للمؤمنين ، فنسخ الرجلان العشرة .

وأخبروني أيضاً عن القضاة أجورة هم حيث يقضون على الرجل منكم نفقة إمرأته إذا قال : إنّي زاهد وإنّي لا شيء لي ، فان قلتم : جورة ظلّمكم أهل الإسلام ، وإن قلتم : بل عدول خصمتم أنفسكم ، وحيث تردّون صدقة من تصدّق على المساكين عند الموت بأكثر من الثلث .

أخبروني لو كان الناس كلّهم كالذين تريدون زهّاداً لا حاجة لهم في متاع غيرهم ، فعلىٰ من كان يتصدّق بكفّارات الأيمان والنذور والصدقات من فرض الزكاة من الذهب والفضّة والتمر والزبيب ، وسائر ما وجب فيه الزكاة من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك ، إذا كان الأمر كما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الدنيا إلاّ قدّمه وإن كان به خصاصة .

فبئسما ذهبتم اليه ، وحملتم الناس عليه من الجهل بكتاب الله عزّوجلّ وسنّة

وأمّا من خالف الشيعة في عقائدهم ، فإنّهم لا يتبعون هذه الكيفيّة ، ولا يمكنهم إثبات مطلوبهم من الآيات المحكمات ،بل إنّهم يـحتجّون بما يبدو لأوّل نظر من ظاهر بعض الآيات .

مثلاً يحتجّون بقوله سبحانه ﴿ أطيعوا اللّه وأطـيعوا الرسـول وأُولي الأمر منكم ﴾[(١)] علىٰ وجوب إطاعة كلّ من يلي أمر المسلمين ويسلّط عليهم ، وإن كان من أكبر الظلمة والفاسقين .

مع أنّه سبحانه وتعالىٰ بيّن في القرآن الكريم شرائط الحاكم :

نبيّه صلى الله عليه وآله وأحاديثه التي يصدّقها الكتاب المنزل ، وردّكم إيّاها بجهالتكم ، وتركّكم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنهي .

وأخبروني أين أنتم عن سليمان بن داود عليه السلام حيث سأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فأعطاه الله جلّ إسمه ، وكان يقول الحقّ ويعمل به ، ثمّ لم نجد الله عزّوجلّ عاب عليه ذلك ولا أحداً من المؤمنين ، وداود النبيّ صلى الله عليه وآله قبله في ملكه وشدّة سلطانه ، ثمّ يوسف النبيّ صلى الله عليه وآله حيث قال لملك مصر : ﴿ إجعلني علىٰ خزائن الأرض إنّـي حـفيظ عليم﴾ فكان من أمره الذي كان أن اختار مملكة الملك وما حولها إلى اليمن ، وكـانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم ، وكان يقول الحقّ ويعمل به ، فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه .

ثمّ ذو القرنين عبد أحبّ الله فأحبّه الله وطوىٰ له الأسباب ، وملّكه مشارق الأرض ومغاربها ، وكان يقول الحقّ ويعمل به ، ثمّ لم نجد أحداً عاب ذلك عليه .

فتأدّبوا أيّها النفر بآداب الله عزّوجلّ للمؤمنين ، واقتصروا علىٰ أمر الله ونهيه ، ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم ممّا لا علم لكم به ، وردّوا العلم إلىٰ أهله توجروا ، وتعذّروا عند الله تبارك وتعالىٰ ، وكونوا في طلب علم ناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه ، وما أحلّ الله فيه ممّا حرّم ، فإنّه أقرب لكم من الله ، وأبعد لكم من الجهل .

ودعوا الجهالة لأهلها ، فإنّ أهل الجهل كثير ، وأهل العلم قليل ، وقد قال الله عزّوجلّ : ﴿ وفوق كلّ ذي علم عليم ﴾ . فروع الكافي ٥ : ٦٥ – ٧٠ ح ١ .

(١) النساء : ٥٩ .

فمنها : أن لا يكون ظالماً ، قال تعالىٰ : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار ﴾[١] ولعن الظالمين والفاسقين .

ومنها : أن يكون عالماً ، فقال سبحانه : ﴿ أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لا يهدّي إلاّ أن يهدىٰ ﴾[٢] والهداية إلى الحقّ موقوفة على العلم به والعصمة عن الخطأ ؛ لأنّ المخطىء جاهل ، وقال سبحانه : ﴿ قل إنّما حرّم ربّي الفواحش ـ إلىٰ قوله ـ وأن تقولوا على اللّه ما لا تعلمون ﴾[٣] .

إلىٰ غير ذلك من الآيات التي تكون دلالة مجموعها علىٰ ما يعتبر في أُولي الأمر الذين يجب إطاعتهم واتّباعهم من المحكمات ، وتدلّ علىٰ أنّ أُولي الأمر بمنزلة النبيّ صلى الله عليه وآله في استمرار خطّ النبوّة ، وليست الإمامة إمارة فقط .

واستدلّ بعض العامّة علىٰ عدم ذكر مسألة الإمامة في القرآن ، بأنّ من ثبت عنده أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله رسول اللّه وطاعته واجبة واجتهد في طاعته .

فإن قيل : إنّه يدخل الجنّة ، فقد استغنىٰ عن مسألة الإمامة .

وإن قيل : لا يدخل الجنّة ، كان هذا خلاف نصوص القرآن ، فإنّه سبحانه أوجب الجنّة لمن أطاع اللّه ورسوله في غير موضع ، كقوله تعالىٰ ﴿ ومن يطع اللّه والرسول فأُولئك مع الذين أنعم اللّه عليهم من

---

(١) هود: ١١٣ .

(٢) يونس : ٣٥ .

(٣) الأعراف : ٣٣ .

النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً ﴾[١] .

وقوله تعالىٰ ﴿ ومن يطع اللّه ورسوله يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ﴾[٢] .

أقول : إنّ اللّه سبحانه أوجب إطاعة أُولي الأمر في قوله سبحانه ﴿ أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم ﴾[٣] فمن لم يطع أُولي الأمر لم يطع الله تعالىٰ ، حيث أمر بإطاعتهم ، ولابدّ أن يعرف من هم أُولوا الأمر ، فيقيّد به إطلاق الآيتين المذكورتين لو كان لهما إطلاق .

هذا لو علم وثبت أنّ الرسول لم يأمر بإطاعة الإمام ولم ينصبه ولم ينصّ عليه ، وإلاّ فإطاعة الرسول لا تتحقّق إلاّ مع إطاعة الإمام ؛ لأنّ الرسول أمر به .

ويجدر الإشارة إلىٰ بعض نصوص الكتاب الصريح في المراد يفيدنا في تنسيق هذا التأليف لإثبات المعتقد الصحيح في الإمامة وما يتفرّع عليها :

الأوّل : أنّ مجرّد مصاحبة الأنبياء ليست فضيلة ، لقوله تعالىٰ ﴿ ضرب اللّه مثلاً للذين كفروا امرأة نوحٍ وامرأة لوطٍ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من اللّه شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾[٤] .

الثاني : أنّه كان حول النبيّ ﷺ منافقون ، لقوله تعالىٰ : ﴿ وممّن

---

(١) النساء : ٦٩ .

(٢) النساء : ١٣ .

(٣) النساء : ٥٩ .

(٤) التحريم : ١٠ .

حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مـردوا عـلى النـفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذّبهم مرّتين ثمّ يردّون إلىٰ عذاب عظيم ﴾[١].

الثالث : أنّ اللّه تعالىٰ يُطلع بعض عباده على الغيب ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾[٢] وفي قصّة موسىٰ مع العالم الذي قتل الغلام مخبراً عن الغيب ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾[٣].

الرابع : أنّ العلم ليس بالتعلّم ، بل ربّما يكون بإفاضة الله تعالىٰ ، كما أفاض علىٰ من لا يقدر على التعلّم ، فجعل الصبيّ فـي المـهد عـالماً كعيسىٰ ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان فـي المهد صبيّاً * قال إنّي عبداللّه آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً ﴾[٤] أو في حال الصبىٰ كيحييٰ ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ يا يـحييٰ خـذ الكـتاب بـقوّة وآتيناه الحكم صبيّاً ﴾[٥].

وعلّم الإنسان منطق الطير كسليمان ، قـال اللّـه تـعالىٰ : ﴿ وورث سليمان داود وقال يا أيّها الناس علّمنا منطق الطير وأُوتينا من كلّ شيء إنّ هذا لهو الفضل المبين ﴾[٦].

الخامس : أنّ اللّه تعالىٰ قادر علىٰ إحياء المـوتىٰ وإعـاشتهم بـين

---

(١) التوبة ١٠١.

(٢) آل عمران : ٤٤.

(٣) الكهف : ٨٠.

(٤) مريم : ٢٩.

(٥) مريم : ١٢.

(٦) النمل : ١٦.

الناس ، ومنهم عزير ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ أو كالذي مرّ علىٰ قرية وهي خاوية علىٰ عروشها قال أنّىٰ يحيي هذه اللّه بعد موتها فأماته اللّه مائة عام ثمّ بعثه ﴾[١] الآية .

السادس : أنّ اللّه تعالىٰ قادر علىٰ إبقاء الإنسان حيّاً ، لقوله تعالىٰ : ﴿ فلولا أنّه كان من المسبّحين * للبث في بطنه إلىٰ يوم يبعثون ﴾[٢] .

أو إبقاء جسده ، كقصّة أصحاب الكهف ، لقوله تعالىٰ ﴿ تحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾[٣] الآية .

أو إبقاء طعامه وشرابه ، لقوله تعالىٰ ﴿ فانظر إلىٰ طعامك وشرابك لم يتسنّه ﴾[٤] .

وإخباره تعالىٰ عن نوح عليه السلام أنّه لبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين .

فأيّد القرآن أنّه يمكن بقاء البشر حيّاً مرزوقاً في مدّة طويلة .

السابع : التقيّة مشروعة ، لقوله تعالىٰ ﴿ إلاّ من أُكره وقلبه مطمئنّ بالإيمان ﴾[٥] .

الثامن : لابدّ من الإعتقاد بالبداء ، لقوله تعالىٰ ﴿ يمحو اللّه ما يشاء ويثبت ﴾[٦] .

---

(١) البقرة : ٢٥٩ .
(٢) الصافات : ١٤٣ – ١٤٤ .
(٣) الكهف : ١٨ .
(٤) البقرة : ٢٥٩ .
(٥) النحل : ١٠٦ .
(٦) الرعد : ٣٩ .

التاسع : أنّ من كان عنده علم الكتاب أو بعضه قادر على التصرّف في الكون ، لقوله تعالىٰ ﴿ قال الذي عنده علم الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك ﴾[1] .

---

(١) النمل : ٤٠ .

الفصل الثاني

في بعض الآيات التي تدلّ على احتياج المكلّفين إلى الحجّة وأنّ النبوّة و الامامة باختيار اللّه سبحانه لا باختيار الناس

وهي آيات دالّة على احتياج المكلّفين من الإنس والجنّ إلىٰ حجّة بينهم وبين اللّه تبارك وتعالىٰ ، وآيات أُخر دالّة علىٰ أنّ اللّه تعالىٰ يختار الحجّة ، وليس للمكلّفين إختيار في انتخاب الحجّة .

الآية الأُولىٰ : قوله تعالىٰ : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾[١] دلّ علىٰ أنّ الغرض من خلقتهما هي عبادة اللّه تعالىٰ ، وعبادته لا تتحقّق إلاّ بمعرفته تعالىٰ ، ومعرفة كيفيّة العبادة اللائقة بحضرته تعالىٰ .

ولا تتحقّق المعرفة بها إلاّ من ناحيته تعالىٰ بالوحي إلىٰ من يكون هو المعلّم للمكلّفين كيفيّة عبادته ، وهو الحجّة بين اللّه وبين خلقه ، وهو نبيّ ، أو خليفته ووصيّه المتلقّي منه ما يحتاج إليه المكلّفون بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله ؛ لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يبيّن لجميع اُمّته في جميع الأزمان ما يحتاجون إليه ، فلابدّ أن يكون علّم ذلك لخليفته حتّىٰ يبيّن للناس ، كما

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

يأتي بيانه .

ثمّ كما يتوقّف كيفيّة عبادتهم علىٰ وجود نبيّ أو وصيّه ، كذلك يتوقّف عبادتهم علىٰ حياتهم المادّيّة ، وهي موقوفة علىٰ تنظيم أمر معاشهم في الملبوس والمأكول وغيرهما ، الموقوفة على التجارات والصناعات وغيرهما ممّا يحتاج إلىٰ قوانين وإلىٰ من يجريها بينهم ، ولا يعرف ذلك الاّ من أوحى الله تعالىٰ إليه ، حتّىٰ يبيّن ذلك للناس ويقيمه بينهم ، فلذا يكون النبيّ رئيساً في أمر الدنيا والدين ، وبعد وفاته يكون لخليفته الرئاسة في أمر الدنيا والدين .

ثمّ إنّه يمكن أن يستفاد من هذه الآية بضميمة قوله تعالىٰ ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾[١] الآية ، وقوله تعالىٰ ﴿ خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾[٢] وغيرهما من الآيات ، أنّ الأرض وما يحتاج إليه في إدامة الحياة من حرارة الشمس والهواء والمطر والزرع وغيرها خلقت للمكلّفين ، وهم خلقوا للعبادة ، وعبادتهم تتوقّف علىٰ وجود الحجّة ، فالأرض تتوقّف علىٰ وجود الحجّة ، كما ورد في أخبار أهل البيت[٣] .

---

(١) الرحمٰن : ١٠ .

(٢) البقرة : ٢٩ .

(٣) روى الكليني في الكافي (١ : ١٧٩) بإسناده عن أبي حمزة ، قال : قلت لأبي عبد الله عليه‌السلام : أتبقى الأرض بغير إمام ؟ قال : لو بقيت بغير إمام لساخت .

ورویٰ أيضاً بإسناده عن محمّد بن الفضيل ، عن أبي الحسن الرضا عليه‌السلام قال : قلت له : أتبقى الأرض بغير إمام ؟ قال : لا ، قلت : فإنّا نروي عن أبي عبد الله عليه‌السلام أنّها لا تبقىٰ بغير إمام إلاّ أن يسخط الله تعالىٰ علىٰ أهل الأرض أو على العباد ، فقال : لا ، لا تبقى إذاً لساخت .

ورویٰ أيضاً بإسناده عن أبي هراسة ، عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : لو أنّ الإمام رفع من

الآية الثانية : قوله تعالىٰ : ﴿ وقالوا لو لا أُنزل هذا القرآن علىٰ رجلٍ من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربّك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضاً سُخريّاً ورحمة ربّك خيرٌ ممّا يجمعون ﴾(١) .

قوله تعالىٰ ﴿ عظيم ﴾ يعني : من حيث المال والجاه .

قوله تعالىٰ ﴿ رحمة ربّك ﴾ لعلّ المراد من الرحمة ما يشمل القرآن ، فإنّه رحمة ، كما سيأتي في أوصافه أنّه رحمة ، فهذه الرحمة ليست بيد الناس حتّىٰ يقسّموها فيما بينهم ، بل هي فضل اللّه يؤتيه من يشاء ، كما أعطاها النبيّ صلّى الله عليه وآله .

وسيأتي أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام كانت نفوسهم المقدّسة مرتبة مَن القرآن ، فهم المختصّون بالرحمة التي لا ينالها إلاّ النبيّ والإمام المعصوم ، كما قال عيسى بن مريم : ﴿ آتاني الكتاب ﴾(٢) فمنصب الرسالة عن اللّه تعالىٰ بالمعنى الأعمّ الشامل للأوصياء لا يكون إلاّ لمن شملته الرحمة المذكورة ، فاللّه سبحانه يعطي منصب الرسالة والإمامة ، وليس للخلق في ذلك إختيار .

ثمّ إنّه تعالىٰ كأنّه استدلّ علىٰ ذلك بقوله ﴿ نحن قسمنا بينهم

الأرض ساعة لماجت بأهلها ، كما يموج البحر بأهله .

ورویٰ أيضاً بإسناده عن الوشّاء ، قال : سألت الرضا عليه السلام هل تبقى الأرض بغير إمام ؟ قال : لا ، قلت : إنّا نروي أنّها لا تبقىٰ إلاّ أن يسخط الله عزّوجلّ على العباد ، قال : لا تبقىٰ إذاً لساخت .

(١) الزخرف : ٣٢.

(٢) مريم : ٣٠.

معيشتهم ﴾ يعني : إنّ معيشة الدنيا باختيار اللّه تعالىٰ وتقسيمه ، فكيف لا يكون باختيار اللّه تعالىٰ ما هو أهمّ منها ؟ وهو مقام النبوّة والخلافة لها .

قوله تعالىٰ ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض ﴾ يعني : في الدنيا ليكون بعضهم مسخّرين لبعض .

قوله تعالىٰ ﴿ ورحمة ربّك ﴾ يعني : النعمة المعنويّة التي أكبرها وأعظمها مقام النبوّة والإمامة ﴿ خيرٌ ممّا يجمعون ﴾ من الأُمور الفانية .

الآية الثالثة : قوله تعالىٰ : ﴿ وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾[١] .

قوله تعالىٰ ﴿ ويختار ﴾ أي : بعد أن يخلق يختار بعض المخلوقين ويصطفيه لمقام الرسالة والإمامة .

قوله تعالىٰ ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ يحتمل « ما » الموصولة ، أي : يختار لهم الشيء الذي يكون خيرةً ، فهو يختار لهم الإمام ؛ لأنّه العالم بما كان لهم الخيرة . ويحتمل النافية ، أي : ليس لهم الخيرة في انتخاب الرسول والإمام ، أو في كلّ ما لا يكون من أفعالهم وأعمالهم ، ومقام الرسالة والإمامة علىٰ ما سيتبيّن ليسا من أفعال المخلوقين[٢] .

---

(١) القصص : ٦٨ .

(٢) روى الصدوق رحمه الله في كمال الدين (ص ٤٦١) في حديث عن سعد بن عبد الله وسؤاله المهدي عجّل الله تعالىٰ فرجه الشريف عن مسائل ، الىٰ أن قال : قلت : فأخبرني يا مولاي عن العلّة التي تمنع القوم من اختيار إمام لأنفسهم ، قال : مصلح أو مفسد ؟ قلت : مصلح ، قال : فهل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد ؟ قلت : بلىٰ ، قال : فهي العلّة .

الفصل الثالث

في الآيات الدالّة علىٰ أنّ اللّه تعالىٰ جعل في كلّ زمان حجّة للمكلّفين نبيّاً و خلفاؤه بمنزلته في العلم و العمل و العصمة

بعد أن تحقّق في الفصل الأوّل أنّ المكلّفين محتاجون إلىٰ وجود الحجّة ، نبيّن في هذا الفصل أنّ اللّه تعالىٰ جعل لهم حجّة من نبيّ أو خليفته ، وهو الإمام المعصوم ، وذلك من خلال عدّة من الآيات .

الآية الأُولىٰ : قوله تعالىٰ ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في

وأوردها لك ببرهان ينقاد له عقلك ، أخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله تعالىٰ وأنزل عليهم الكتاب وأيّدهم بالوحي والعصمة اذ هم أعلام الأُمم ، وأهدىٰ إلى الإختيار منهم ، مثل موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام هل يجوز مع وفور عقلهما وكمال علمهما اذا همّا بالإختيار أن يقع خيرتهما على المنافق وهما يظنّان أنّه مؤمن ؟ قلت : لا .

فقال : هذا موسىٰ كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه إختار من أعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربّه سبعين رجلاً ممّن لا يشكّ في إيمانهم وإخلاصهم، فوقعت خيرته على المنافقين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ واختار موسىٰ قومه سبعين رجلاً لميقاتنا – إلىٰ قوله – لن نؤمن لك حتّىٰ نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ فلمّا وجدنا إختيار من قد اصطفاه الله للنبوّة واقعاً على الأفسد دون الأصلح ، وهو يظنّ أنّه الأصلح دون الأفسد ، علمنا أن لا اختيار إلاّ لمن يعلم ما تخفي الصدور وما تكنّ الضمائر وتتصرّف عليه السرائر ، وأن لا خطر لاختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء علىٰ ذوي الفساد لمّا أرادوا أهل الصلاح .

الأرض خليفة ﴾[١] يدلّ علىٰ أنّه مادام الأرض مسكونة من المكلّفين ففيها خليفة الله ؛ لعدم الفرق بين الأزمنة ، فلا وجه لاختصاص جعل الخليفة مدّة حياة آدم عليه‌السلام .

مع أنّه يبعد المحاورة الواقعة بين الله تعالىٰ والملائكة لمدّة قليلة ، مع أنّ الله تعالىٰ قال : ﴿ يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض ﴾[٢] فلم ينقطع خلافة الله بموت آدم عليه‌السلام .

والخليفة من يخلف غيره في ما يرجع إلى المستخلِف - بالكسر - وخليفة الله في الأرض من يأخذ ما استخلف فيه من الله تعالىٰ ، بأن يحكم بالحقّ ولا يخطىء ؛ لأنّ المخطىء جاهل ، فلابدّ أن يكون عالماً معصوماً .

الآية الثانية : قوله سبحانه ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أُنزل عليه آيةً من ربّه إنّما أنت منذر ولكلّ قومٍ هاد ﴾[٣] .

توضيح مفاد الآية : قوله تعالىٰ ﴿ ويقول ﴾ لعلّهم لم يعتدّوا بالآيات المنزلة علىٰ رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فاقترحوا نحو آيات موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام من انقلاب العصىٰ حيّةً وإحياء الموتىٰ ، فقال سبحانه : إنّما أنت أُرسلت منذراً ومخوّفاً ، وصحّة ذلك حاصلة بأيّة آية كانت .

قوله سبحانه ﴿ ولكلّ قومٍ هاد ﴾ قيل : في المراد بالهادي وجوه :

أحدها : أنّه النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله فهو خبرٌ بعد خبرٍ قدّم عليه الظرف ، أي : إنّما أنت منذر وهاد لكلّ قوم .

---

(١) البقرة . ٣٠.

(٢) ص : ٢٦ .

(٣) الرعد : ٧ .

أقول أوّلاً : هذا الإحتمال خلاف ظاهر قوله تعالىٰ ﴿ ولكلّ قوم ﴾ فإنّه ظاهر في وجود أقوام وهداة ، وأنّ كلّ قوم له هادٍ غير الهادي الذي لقوم آخرين ، والنبيّ صلى الله عليه وآله هادٍ لقومه في حياته . وأمّا بعد وفاته ، فلا يكون هادياً للأقوام التي توجد بعد وفاته . ولوكان المراد أنّه هادٍ لجميع الناس ، لقيل : ولكلّ الناس هادٍ .

وثانياً : أنّه سبحانه أخبر عن أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله هادٍ بقوله سبحانه ﴿ وإنّك لتهدي إلىٰ صراط مستقيم ﴾[1] وأخبر عن أنّه ليس بهادٍ لبعض الناس بقوله سبحانه ﴿ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ﴾[2] .

فهدايته تختلف عن إنذاره ، فإنّ إنذاره يكون لجميع أُمّته ، كما قال تعالىٰ : ﴿ تبارك الذي نزّل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾[3] وقوله تعالىٰ ﴿ وما أرسلناك إلاّ كافّة للناس بشيراً ونذيراً ﴾[4] وهدايته تكون لبعضهم ، فيكون ذلك قرينةً علىٰ أنّ قوله ﴿ ولكلّ قوم ﴾ ليس ظرفاً للإنذار والهداية ، بل هو ظرف للهداية فقط .

ثانيها : أن يكون هو اللّه سبحانه ، وهذا الوجه كسابقه ، فانّه لو اُريد ذلك لكان المناسب أن يقال : إنّه هادٍ للمؤمنين ، نظير قوله سبحانه ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتّقين ﴾[5] وأمّا التعبير بكلّ قوم ، فإنّه يقتضي تعدّد الهداة .

---

(١) الشورى : ٥٢ .

(٢) النمل : ٨١.

(٣) الفرقان : ١ .

(٤) سبأ : ٢٨ .

(٥) البقرة : ٢ .

ثالثها : أن يكون المراد الأنبياء ، أي : لكلّ قوم نبيّ يهديهم ، وهـذا الوجه كسابقيه .

مع أنّه يقتضي أن يكون الأنبياء هداة فقط ، أي : إنّما أنت منذر ولكلّ قوم نبيّ يهديهم ليسوا منذرين ، وهو مناف لقوله تعالىٰ ﴿ إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً وإن من أُمّة إلاّ خلا فيها نذير ﴾[١] .

رابعها : أن يكون في كلّ زمان هادٍ حيّ ، فالنبيّ صلى الله عليه وآله مـنذر لجـميع الناس إلىٰ يوم القيامة وهادٍ لهم في زمان حياته ، ويكون بعد وفاته هادٍ حيّ هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وبـعده أولاده المـعصومون عليهم السلام ، كلّ واحد هادٍ لعصره[٢]؛ لأنّهم اللايقون للهداية ، كـما نبيّن .

وبعد وفاة الامام الحسن بن علي العسكريّ عليه السلام يكون الهادي ابنه الحجّة المهدي المنتظر الغائب عن الأنظار ، إلىٰ أن يظهر من ستار الغيبة، ولعلّنا نتعرّض لكيفيّة هدايته للناس في حال أنّه غائب عنهم عجّل اللّه تعالىٰ فرجه .

ثمّ إنّ المراد من قوله سبحانه ﴿ ولكلّ قوم هاد ﴾ الهداية إلى الدين ،

---

(١) فاطر : ٢٤ .

(٢) روى الصدوق رحمه الله في كمال الدين (ص ٦٦٧) بإسناده عن محمّد بن مسلم ، قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ ﴿ إنّما أنت منذر ولكلّ قوم هاد ﴾ فقال: كلّ إمام هاد لكلّ قوم في زمانهم .

وروىٰ أيضاً بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي ، قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : مـا معنىٰ ﴿ إنّما أنت منذر ولكلّ قوم هاد ﴾ فقال : المنذر رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي الهادي ، وفي كلّ وقت وزمان إمام منّا يهديهم إلىٰ ما جاء به الرسول .

هداية قيادة، كهداية اللّه بالتوفيق، كما قال اللّه سبحانه: ﴿ فمن يرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾[١].

أوالأعمّ منها ومن سائر أقسام الهداية، فإنّ الهداية لغةً هي: التوجيه نحو شيء، وتتحقّق بوجوه:

الأوّل: الهداية بالبيان اللفظي وما يساويه من الكتابة والإشارة ونحوهما، وقد هدى اللّه سبحانه الناس كذلك بإرسال الأنبياء وإنزال الكتب، قال سبحانه: ﴿ شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للناس ﴾[٢] وقال تعالىٰ شأنه: ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدىً للناس ﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسىٰ نوراً وهدىً للناس ﴾[٤] وقال سبحانه: ﴿ وأمّا ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمىٰ على الهدىٰ ﴾[٥] وهذه الهداية قد تحقّقت من النبيّ ﷺ.

ثانيها: الهداية بالتوفيق، وهو الذي يعطيه اللّه سبحانه المؤمن بعد إيمانه، قال سبحانه: ﴿ ما أصاب من مصيبة إلاّ بإذن اللّه ومن يؤمن باللّه يهد قلبه ﴾[٦] وقال تعالىٰ: ﴿ يهدي به اللّه من اتّبع رضوانه سبل السلام ﴾[٧].

---

(١) الأنعام: ١٢٥.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) آل عمران: ٤.

(٤) الأنعام: ٩١.

(٥) فصّلت: ١٧.

(٦) التغابن: ١١.

(٧) المائدة: ١٦.

وقوله تعالىٰ ﴿ اللّه يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾[(١)] وقوله تعالىٰ ﴿ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربّهم بايمانهم﴾[(٢)] وقوله تعالىٰ ﴿ ومن يعتصم باللّه فقد هدي إلىٰ صراط مستقيم ﴾[(٣)] وقوله تعالىٰ ﴿ ويزيد اللّه الذين اهتدوا هدىً ﴾[(٤)] وقوله تعالىٰ ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم ﴾[(٥)] ولعلّ منه قوله تعالىٰ ﴿إهدنا الصراط المستقيم ﴾[(٦)].

فإنّ العبد وإن بلغ أعلىٰ مراتب التقوىٰ ، كالنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم ، لكنّه يحتاج في كلّ آنٍ إلىٰ أن يوفّقه اللّه تعالىٰ لمرضاته ، ولا يكله إلىٰ نفسه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾[(٧)].

ولعلّ بعض مراتب الهداية في قوله تعالىٰ ﴿ هدىً للمتّقين ﴾[(٨)] هي الهداية الحاصلة من القرآن للمتّقين عقيب تحصيل التقوىٰ والسعي في تكميلها ، فيناسب أن يكون الهداية الحقيقيّة الباطنيّة بقدر مراتب التقوىٰ ، كلّما ازداد تقوىٰ إزداد هداية القرآن إيّاه .

الثالث : الهداية بأن يتقدّم شخص ويقود شخصاً .

---

(١) الشورى : ١٣ .

(٢) يونس : ٩ .

(٣) آل عمران : ١٠١ .

(٤) مريم : ٧٦ .

(٥) محمّد صلى الله عليه وآله : ١٧ .

(٦) الفاتحة : ٦ .

(٧) الإسراء : ٧٤ .

(٨) البقرة : ٢ .

قال في المقاييس : الهدىٰ أصلان : أحدهما التقدّم للإرشاد ... قولهم هديته الطريق هدايةً تقدّمته لأرشده ، وكلّ متقدّم لذلك هاد ... وينشعب هذا فيقال : الهدىٰ خلاف الضلالة ... والهادية العصىٰ ، لأنّها تتقدّم ممسكها كأنّها ترشد[١] إنتهىٰ .

وإطلاق الهادي في قوله تعالىٰ ﴿ لكلّ قومٍ هاد ﴾ يقتضي أن يكون هادياً بالمراتب الثلاثة إلى الدين .

ثمّ إنّ الهادي إلى الدين لا يكون هادياً إلى الدين إلاّ إذا كان عالماً بجميع الدين أُصولاً وفروعاً ، ولا يكون عالماً إلاّ إذا كان متّصلاً بالوحي ومعصوماً لا يخطىء كالنبيّ صلى الله عليه وآله ، أو آخذاً علمه عن النبيّ كذلك وكان معصوماً لا يخطىء ؛ لأنّ المخطىء جاهل .

وأيضاً لا يكون هادياً بجميع مراتب الهداية إلاّ إذا كان متّصفاً بأعلىٰ مراتب التقوىٰ ؛ لأنّ بعض مراتب الهداية لا تحصل إلاّ بعد الايمان والعمل الصالح ، كما تقدّم .

ثمّ إنّ من قبل هذه الهداية فهو المهتدي ؛ لأنّ إهتدىٰ مطاوع هدىٰ ، أي : قبل هداية الهادي ، وأطاعه في جميع ما يأمر وينهىٰ ، فيكون معترفاً بولاية الهادي وأنّه واجب الإطاعة .

ومن ذلك يظهر صحّة الروايات المفسّرة للإهتداء[٢] بالاهتداء إلى الولاية ، أي : ولاية الإمام المعصوم .

ثمّ إنّ الإنتفاع بهداية الإمام المعصوم عليه السلام يحصل أيضاً من

---

(١) مقاييس اللغة ٦ : ٤٢ .

(٢) في قوله تعالىٰ ﴿ وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدىٰ ﴾ طه : ٨٢ .

طرف إتّصال النفس المتّصفة بصفات التشيّع المذكورة في أخبار أهل البيت عليهم السلام لمتابعيهم به ، فيستمدّ منه ، فإذا حصل له حقيقة الإقتداء به علماً وعملاً وحالاً ، ظهر معرفته في قلبه .

فبقدر حصول الإرتباط المعنويّ به وظهور مقامات ولايته الباطنيّة على النفس المتّصلة به يحصل له الهداية ، حتّىٰ يكون تصديقه بإمامته كالعيان .

وإنّ الشيعة الإماميّة الإثناعشريّة تستوي عندهم غيبة إمام العصر وحضوره في الإعتقاد به ، وحصول الهداية لهم من قيادته(١) .

ومن ثَمّ ترى الشيعة الإماميّة دائماً في التزايد والكثرة علىٰ عكس ما كان يتّفق في الأُمم الماضية عند الفترة ، وقد ارتفع بينهم في زمن الغيبة أكثر العقائد الشنيعة والمذاهب الفاسدة المبتدعة ، مع أنّها كانت شايعة بين الشيعة منتشرة بينهم حين قد كان بمرأىٰ ومسمع منهم الأئمّة المعصومون الحاضرون عليهم السلام .

وقد ظهر بالبيان المذكور إندفاع مناقشات بعض المخالفين على الآية الشريفة والأخبار الدالّة علىٰ أنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

---

(١) روى الصدوق قدس سره في كمال الدين (ص ٣٣٩) بإسناده عن المفضّل بن عمر ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : أقرب ما يكون العباد من الله عزّوجلّ وأرضىٰ ما يكون عنهم إذا فقدوا حجّة الله ، فلم يظهر لهم ولم يعلموا بمكانه ، وهم في ذلك يعلمون أنّه لم تبطل حجج الله عزّوجلّ ولا بيّناته ، فعندها فتوقّعوا الفرج صباحاً ومساءً ، وإنّ أشدّ ما يكون غضب الله علىٰ أعدائه إذا افتقدوا حجّته فلم يظهر لهم ، وقد علم أنّ أولياءه لا يرتابون ، ولو علم أنّهم يرتابون ما غيّب عنهم حجّته طرفة عين ، ولا يكون ذلك إلاّ علىٰ رأس شرار الناس .

وروىٰ نحوه أيضاً بإسناده عن محمّد بن النعمان .

عليه السلام هو الهادي :

منها : أنّه يقتضي حصر الهادي في غير النبيّ ﷺ مع أنّه كان هادياً ، كما قال سبحانه : ﴿ وإنّك لتهدي إلىٰ صراط مستقيم ﴾[(١)] .

الجواب : أنّه ﷺ كان هادياً في زمان حياته ، والأئمّة المعصومون عليهم السلام هداة كلّ واحد في عصره .

ومنها : أنّ الهادي لا ينحصر في النبيّ والإمام المعصوم ؛ لأنّ غيرهما كسلمان وأبي ذرّ وأضرابهما كانوا هداةً .

الجواب : أنّ الهداية إلىٰ جميع الدين خاصّة بالمعصوم ، نعم لغيره الهداية في الجملة .

ومنها : أنّ كون شخصٍ هادياً لا يقتضي أن يكون إماماً معصوماً .

الجواب : أنّ من جعله اللّه تعالىٰ هادياً إلىٰ دينه بجميع مراتب الهداية عبارة عن جعله واجب الإطاعة ، فيكون تابعوه هم المهتدون ، ووجوب الإطاعة لا يكون إلاّ للنبيّ ﷺ أوالإمام المعصوم ؛ لأنّ غير المعصوم ربمّا يخطىء ، والمخطىء لا يكون هادياً ، بل يكون مضلاًّ .

ومنها : أنّه لا دلالة علىٰ تطبيقه علىٰ أمير المؤمنين علي وأولاده المعصومين عليهم السلام .

الجواب : أنّا إذا نظرنا بعد وفاة النبيّ ﷺ إلى الأئمّة الإثني عشر ومن عاصرهم ممّن ادّعى الإمامة ، بالتاريخ الصحيح الخالي عن التعصّبات ، نرىٰ تقدّمهم علىٰ معاصريهم في التقوىٰ والورع وغير ذلك من الصفات المعتبرة في الهادي علىٰ ما بيّناه .

---

(١) الشورى : ٥٢ .

الآية الثالثة: قوله تعالىٰ ﴿ يوم ندعو كلّ أُناس بإمامهم فمن أُوتي كتابه بيمينه فأُولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ۞ ومن كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضلّ سبيلاً ﴾[١].

لعلّ ظاهر الآية الشريفة أنّ كلّ أُناس من الأوّلين والآخرين من أتباع الأنبياء وأوصيائهم وأتباع غيرهم من أئمّة الضلالة يتقدّمهم إمامهم فيدعون به.

مثلاً يدعىٰ فرعون مع قومه وأتباعه، ويستأنس هذا المعنىٰ من قوله تعالىٰ ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾[٢] وقوله تعالىٰ ﴿ وسيق الذين كفروا إلىٰ جهنّم زمراً ﴾[٣].

وأُناس جمع إنس البشر.

والباء في «بامامهم» للمصاحبة، أي: نحضرهم مع إمامهم.

وتدلّ الآية علىٰ أنّ كلّ أُناس لهم إمام حيّ في الحياة الدنيا؛ لأنّ الميّت ليس مقدّماً خارجاً يأتمّون به. نعم يمكن بقاء طريقته بعد موته، لكن يقدمها أيضاً شخص.

ولمّا كان دين الإسلام باقياً إلىٰ آخر إنقضاء زمان التكليف، كان التديّن به باقياً، فلابدّ أن يكون للمتديّن به إمام يأتمّ به.

وعلىٰ هذا فالنبيّ ﷺ إمام الناس، فاذا توفّاه الله تعالىٰ، فلابدّ أن يكون الإمام موجوداً بعده بلا فصل؛ لئلّا يكون أُناس ليس لهم إمام، وممّا يدلّ علىٰ ما ذكرنا إفراد الإمام وجمع الإنس، فانّ كلّ جماعة لهم

---

(١) الاسراء: ٧١ - ٧٢.

(٢) هود: ٩٨.

(٣) الزمر: ٧١.

قائد واحد .

ثمّ إنّ إبن كثير ذكر في تفسيره في الآية إحتمالات ليسقط دلالتها علىٰ ما قلناه .

الأوّل : قال مجاهد وقتادة : إمامهم نبيّهم ، وهذا كقوله تعالىٰ ﴿ ولكلّ أُمّة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط ﴾[١] .

أقول : وعلىٰ هذا يدعىٰ أُمّة موسىٰ فيقال لهم : يا أُمّة موسىٰ ، وهم جميع الناس الموجودين في زمانه إلىٰ زمان عيسىٰ عليه السلام . وهكذا يدعىٰ الناس الذين كانوا في زمان عيسىٰ عليه السلام إلىٰ زمان نبيّنا صلّى الله عليه وآله .

وفيه أنّ لازمه أن يدعىٰ من لم يؤمن بموسىٰ عليه السلام في زمانه باسم موسىٰ ، وهذا خلاف ظاهر الآية ، فإنّ ظاهرها أنّ كلّ أُناس يصاحبون إمامهم ويأتون معه ويدخلون مدخله ، فمن اتّبع الإمام الحقّ، فهو معه في الجنان ، ومن اتّبع الإمام الضالّ ، فهو معه في النار .

وأمّا قوله تعالىٰ ﴿ لكلّ أُمّة رسول فإذا جاء رسولهم ﴾ فهو يحتمل إحتمالين :

أحدهما : أنّ كلّ أُمّة لها رسول في الدنيا أرسله اللّه تعالىٰ إليهم ، فإذا جاء الرسول إليهم قضي بينهم بالقسط ، بأن يعطي من اتّبعه ما يستحقّه من الأجر والثواب ، ويعطي من عصاه ما يستحقّه من الخزي والعذاب .

ثانيهما : مجيء رسلهم يوم القيامة ، فإنّه إذا جاء رسولهم يوم القيامة قضي بينهم بالقسط ، فمن اتّبعه يثاب ومن عصاه يعاقب ، وعلىٰ أيّ

---

(١) يونس : ٤٧ .

تقدير ليس معنى الآيتين متّحداً .

الثاني : إمامهم كتابهم .

وفيه ما تقدّم ، مع أنّه ينبغي أن يدعون بما يعرفون ، فالكفّار المنكرون للصانع كيف يدعون بالقرآن ، بأن يقال لهم : يا أهل القرآن .

الثالث : كتاب عمله ، بقرينة قوله تعالىٰ بعد ذلك ﴿ فمن أُوتي كتابه بيمينه ﴾ .

وفيه أنّه خلاف الظاهر بغير قرينة ولا حجّة ولا برهان .

الرابع : ما كان يعبده وكان تابعاً له .

وفيه أنّه خلاف الظاهر ، فإنّ الإمام لغة المقدّم الذي يتبعه التابعون ، وقوله تعالىٰ ﴿ إنّهما لبإمام مبين ﴾[١] لعلّ المراد وجوب اتّباع ذلك بما يقتضيه ويدلّ عليه .

الآية الرابعة : قوله تعالىٰ ﴿ قل فللّه الحجّة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾[٢] .

قوله تعالىٰ ﴿ الحجّة البالغة ﴾ يعني : البلوغ إلى المكلّفين من الجنّ والإنس ممّن كان في زمان النبيّ صلى الله عليه وآله ، أو يكون بعده إلىٰ آخر زمان التكليف ، ولا يتمّ الحجة إلاّ بإزاحة العلّة ، ولا تزاح العلّة إلاّ بوجود إمام معصوم عالم لا يخطىء ، قادر على المعجزة ، مستمرّ علىٰ خطّ الرسالة الإلٰهيّة .

ويحتمل أن يكون المعنىٰ الحجّة البالغة أقصىٰ مرتبة الوضوح ؛ لأنّ

---

(١) الحجر : ٧٩.

(٢) الأنعام : ١٤٩ .

مراتب الحجّة تختلف وضوحاً وخفاءً .

قوله تعالىٰ ﴿ ولو شاء لهداكم ﴾ قيل : أي هداية إكراه ، أو خلقكم بحيث تهتدون بغير إختيار ولا تحمّل تكليف .

الآية الخامسة : قوله تعالىٰ ﴿ وما كان اللّه ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتّىٰ يبيّن لهم ما يتّقون ﴾[1] .

دلّ علىٰ أنّ كلّ قوم هداهم اللّه سبحانه لا يضلّهم حتّىٰ يبيّن لهم ما يرضيه وما يسخطه ، ليعملوا بما يرضاه ، ويجتنبوا عمّا يسخطه .

وحيث أنّ اللّه سبحانه لم يبيّن جميع ذلك في الكتاب ببيان يعرفه كلّ من رجع إليه ، وكذا النبيّ ﷺ لم يبيّنه كذلك ، فلا يتحقّق بيان ذلك كلّه إلاّ بتعيين إمام عالم معصوم عن الخطأ يخلف النبيّ ﷺ ويبيّن عن النبيّ ﷺ عن اللّه سبحانه لكلّ قوم ما يتّقون .

وأيضاً الناس بعد وفاة النبيّ ﷺ قد اختلفوا إختلافاً شديداً في الأُصول الإعتقاديّة والفروع العمليّة .

وزاد الإختلاف فيهما إلىٰ زماننا ، كما هو واضح للمطّلع علىٰ مذهب الفريقين في الأُصول والفروع .

ومنشأه الإختلاف في خليفة الرسول ﷺ، واللّه سبحانه وتعالىٰ لا يضلّهم حتّىٰ يبيّن لهم ما يتّقون ، فإن ضلّوا بعد البيان كان من قبل أنفسهم .

فإمّا يقال : إنّه تعالىٰ ورسوله ﷺ لم يبيّنا لهم من يخلف الرسول ومن يرجعون اليه ليبيّن لهم ما يتّقون ، فهذا مخالف للقرآن .

---

(١) التوبة : ١١٥ .

وإمّا يقال : بيّن لهم أنّ خلفاءه الأئمّة المعصومون ، فهو الذي نقول إنّ الآيات والأخبار دلّت عليه ، وأمّا غير الأئمّة المعصومين ، فلا يعرفون الأحكام النازلة من عند اللّه سبحانه ، ولذا عملوا بالقياس والإستحسان والآراء .

الفصل الرابع

في الآيات الدالّة علىٰ أنّ الله سبحانه و تعالىٰ قد عيّن في حياة نبيّنا خاتم الأنبياء ﷺ خلفاءه

تقدّم في الفصل الثالث أنّ اللّه تعالىٰ جعل في كلّ زمان حجّة للمكلّفين ، وفي هذا الفصل نبيّن الآيات الدالّة علىٰ أنّ اللّه تعالىٰ قد عيّن في زمان نبيّنا ﷺ خليفته بعده ، وليس للناس أن يعيّنوا له خليفة بعد وفاته .

فنقول : لا يخفىٰ أنّ خليفة النبيّ ﷺ حسب الأوصاف التي يعتبرها القرآن الكريم ـ علىٰ ما سنبيّنه ـ يكون مثل النبيّ ﷺ علماً وعملاً وعصمةً ، بل الحاجة إلى النبيّ ﷺ بعينها الحاجة إلى خليفته ، فكما لا يمكن تعيين النبيّ ﷺ إلاّ بتعيين اللّه ، فكذلك خليفته ، ونشير إلىٰ بعض الآيات الدالّة علىٰ تعيين الخليفة في زمان حياة النبيّ ﷺ، وعدم الحاجة إلىٰ تعيينه بعد وفاته .

الآية الأُولىٰ : قوله تعالىٰ ﴿ إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾[١] .

قوله تعالىٰ ﴿ إنّما ﴾ يدلّ علىٰ حصر الولاية في الله تعالىٰ ورسوله

---

(١) المائدة : ٥٥ .

والمؤمنين الذين يزكّون في حال ركوع الصلاة ، فالولاية المذكورة خاصّة بالمؤمنين المذكورين ، فلابدّ أن يكون المراد بالولاية المذكورة ولاية خاصّة هي رئاسة الدين والدنيا .

وأمّا الولاية المذكورة في قوله تعالىٰ ﴿ والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ﴾[١] فالمراد بها ولاية النصرة والمحبّة ومراعاة إمتثال الله تبارك وتعالىٰ ، وهي ولاية لا تختصّ بطائفة خاصّة .

قوله تعالىٰ ﴿ يقيمون الصلاة ﴾ يعني : الصلاة الصحيحة لا التي يقيمها المنافقون ، وإنطباقها علىٰ صلاة علي وأبنائه المعصومين عليهم السلام قطعيّ ، وعلىٰ من عارضهم غير منطبقة قطعاً ، وعلى المشكوك حاله مشكوك .

قوله تعالىٰ ﴿ وهم راكعون ﴾ حال من الضمير في « يؤتون » أي : يؤتونها في حال ركوع الصلاة ، وليس حالاً ممّن يقيمون الصلاة ؛ لأنّها مشتملة على الركوع ، فلا وجه لذكره ثانياً ، وليس ركوعاً مستقلاً ، فإنّه لم يعهد مشروعيّة ركوع إبتدائيّ ، وليس معناه الخضوع والخشوع ؛ لأنّ الركوع ظاهر في الإنحناء .

والحاصل أنّ سياق الآية لمن تأمّلها تدلّ دلالة واضحة علىٰ أنّ قوله تعالىٰ ﴿ وهم راكعون ﴾ هو ركوع الصلاة . فالمستفاد من مجموع الآية أنّ الولاية منحصرة في الذين آمنوا ويؤتون الزكاة في حال ركوع الصلاة ، وهذه الخصوصيّة لا تتّصف به جميع المؤمنين . وقد ثبت اتّصاف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بها .

فإذا لوحظ أنّ المؤمنين أي كلّ مؤمن وليّ مؤمن آخر ، يظهر أنّ هذه

---

(١) التوبة : ٧١ .

الولاية غير تلك الولاية .

ثمّ إنّه قد ورد أنّ المراد بقوله تعالىٰ ﴿ الذين آمنوا ﴾ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ونزل في شأنه هل أتىٰ ، وآية النجوىٰ .

قال الشيخ المفيد رحمه الله :كما اشتهرت صدقة أمير المؤمنين عليه السلام بخاتمه وهو في الركوع حتّىٰ علم به الخاصّ والعامّ ، وشاعت نفقته بالليل والنهار والسرّ والإعلان ، ونزل بها محكم القرآن ، ولم تخف صدقته التي قدّمها بين يدي نجواه ، وصدقته الثالثة حتّىٰ جمع بين المسكين واليتيم والأسير ، وورد الخبر به مفصّلاً في هل أتىٰ على الإنسان [(١)] إنتهىٰ .

الآية الثانيه : قوله تعالىٰ « قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربىٰ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إنّ اللّه غفور شكور »[(٢)] .

بيان : قوله تعالىٰ ﴿ عليه ﴾ أي : علىٰ ما اتّعاطاه من تبليغ الرسالة وبشارة المؤمنين ، ومرجع الضمير وإن لم يكن مذكوراً صريحاً ، لكنّه مستفاد ممّا قبل الآية ومن قوله بعدها ﴿ أم يقولون افترىٰ على الله كذباً فإن يشأ الله يختم علىٰ قلبك ويمح الله الباطل ويحقّ الحقّ بكلماته إنّه عليم بذات الصدور ﴾ .

والمعنىٰ : انّي أُريد بتبليغي رسالتي من الله تعالىٰ أن أنفعكم بأن تسعدوا وتدخلوا الجنّة ، ولا أطلب منكم أجراً علىٰ تبليغي من مال أو شيء آخر ، إلاّ أجراً واحداً وهو مودّة قرابتي فهي واجبة ؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله طلبها وجعلها أجر رسالته ويجب إطاعته ، فاذا وجب

---

(١) الافصاح : ١٣٣ .

(٢) الشورى : ٢٣ .

مودّة قرابته ، فمقتضاه وجوب إطاعتهم ؛ لأنّ مخالفتهم وتكذيبهم ينافي المودّة .

ولا ريب في أنّ أمير المؤمنين عليّاً وفاطمة وأولادهما المعصومين عليهم‌السلام من قرابته ، كما لا ريب في أنّ عليّاً وأولاده المعصومين عليهم‌السلام قالوا إنّا خلفاء الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بلا فصل ، فلابدّ من متابعتهم ، وإنّ فاطمة عليها‌السلام كانت غاضبة على الغاصبين منصب الخلافة ، وإنّها تدعو إلىٰ بعلها علي عليه‌السلام ، فلابدّ من إطاعتها .

قوله تعالىٰ ﴿ ومن يقترف حسنة ﴾ يشمل مودّة ذي القربىٰ ، فإنّها حسنة بلا ريب .

وقوله تعالىٰ ﴿ نزد له حسناً ﴾ موافق لقوله تعالىٰ ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع آمنون ﴾[1] وضدّ مودّتهم يكون سيّئة ، فيكون مصداق قوله تعالىٰ ﴿ ومن جاء بالسيّئة فكبّت وجوههم في النار هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون ﴾[2] .

ثمّ إنّهم ذكروا في هذه الآية إحتمالات حتّىٰ يسقطوا دلالتها ، فلا بأس بذكرها والمناقشة فيها :

الأوّل : أنّه خطاب لأهل مكّة ، ويؤيّده ما كتب في عنوان السورة أنّها مكّيّة ، والمعنىٰ : انّي لا أسألكم علىٰ هذا الإبلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه ، وإنّما أطلب منكم أن تكفّوا شرّكم عنّي وتذروني أن أبلغ رسالات ربّي ، فإن لم تنصروني ، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من

---

(١) النمل : ٨٩ .

(٢) النمل : ٩٠ .

القرابة، بل تودّوني في قرابتي منكم .

وفيه أنّه ليس في الآية أن تكفّوا شرّكم، بل طلب منهم المودّة ، فإن كان المخاطبون أهل مكّة مع بقائهم على الكفر ، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لا يطلب مودّة الكافر . وإن كان بعد إسلامهم ، فإنّ المسلم يحترم الرئيس المطاع أكثر من أن يودّه مودّة القرابة ، فعلىٰ كلّ لا يطلب النبيّ صلى الله عليه وآله منهم أن يودّوه لقرابته .

الثاني : أن يكون الخطاب لأهل مكّة ، والإستثناء منقطع ، والمعنىٰ : انّي لا أسألكم علىٰ ما أدعوكم إليه من الهدى الذي يوجب سعادتكم شيئاً ، لكن حبّي لكم بسبب قرابتكم منّي دفعني إلىٰ ذلك ، فهو نظير قوله تعالىٰ ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾(١) .

وفيه أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله يحبّ سعادة جميع الناس ، حيث أنّه رحمة للعالمين ، ولا يحبّ الكافر وإن كان قرابة ، فليس الدافع له علىٰ دعوتهم إلى الإسلام حبّ القرابة ، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله حبّه وبغضه في الله .

الثالث : أنّه خطاب للأنصار ، بأن تكون الآية مدنيّة وإن كانت السورة مكّيّة ، أي : لا أسألكم أيّها الأنصار أجراً إلاّ أن تحفظوا قرابتي منكم من جهة أخوال اُمّه آمنة علىٰ ما قيل ، فتحبّوني وتنصروني ، أو أنّ قرابتي لكم دفعتني إلىٰ أن أدعوكم إلى الهدىٰ .

وفيه أنّ حبّ الأنصار للنبيّ صلى الله عليه وآله وايوائهم له ونصره ممّا لا يحتاج معه إلى السؤال ، وأنّ دعوته عامّة لا تختصّ بقرابته من اُمّه ، مع ما تقدّم من أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لا يحبّ الكافر لقرابته بل هو رحمة للعالمين .

---

(١) الشعراء : ٢١٤ .

الرابع : أنّه خطاب للناس ، ويكون المراد من المودّة في القربىٰ حبّ التقرّب إلى اللّه بالطاعة له ، ويكـون الإسـتثناء مـنقطعاً ، والمـعنىٰ لا أسألكم أجراً لكن أسألكم أن تعملوا بالطاعة التي تـقرّبكم عـند اللّـه زلفىٰ، فتوادّوا اللّه وتقربوا إليه بالطاعة .

وفيه أنّ القربىٰ كما في لسان العرب : الدنوّ في النسب والقربىٰ فـي الرحم [١]، مع أنّه إذا أمكن التحفّظ على الإسـتثناء المـتّصل ، فـلماذا يصار إلى الإستثناء المنقطع ؟.

الخامس : أن يكون الخطاب لمن واجههم النبيّ ﷺ بالخطاب ، لكن لا بما هم أشخاص مخصوصون من حيث كونهم من أهل مكّة أو مـن أقربائه ، بل من حيث أنّهم بعض الناس الذين أُرسل إليـهم ، فـيكون الغرض من خطابهم شموله للناس جميعهم ، ويكون المراد بالمودّة في القربىٰ مودّة ذي القرابة في النسب بأحد وجهين :

الأوّل : أقرباء الناس ، أي : لا أسألكم علىٰ دعائي إلى الإسلام أجراً إلاّ أن تودّوا أقرباءكم ، وفيه مع أنّ مودّتهم مخصوصة بما إذا لم يحادّوا اللّه ورسوله ، أنّه لا تناسب أن تكون أجر الرسالة ، كما هو واضح .

الثاني : أقرباء النبيّ ﷺ، وهو الظاهر المؤيّد بسائر الموارد الواردة في التوصية لذي القربىٰ ، فاذا سأل النـبيّ ﷺ أجـراً للـرسالة وجب إطاعته ؛ لقوله تعالىٰ ﴿ أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسـول ﴾ فـيجب مـودّة القربىٰ وهي حبّهم ، كما يحبّ الإنسان أقاربه ولا يغضبهم .

فإن كان المراد بالقربىٰ خصوص علي وفاطمة والأئمّة المعصومين

---

(١) لسان العرب ١ : ٦٦٥ .

عليهم السلام ، إقتضىٰ وجوب المودّة إمامتهم ؛ لأنّهم إدّعوا الإمامة وقالوا : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله عيّن خلفاءه وأصرّ علىٰ ذلك في مواطن كثيرة ، وعيّنهم في الأئمّة الإثني عشر عليهم السلام ، فمن لم يقبل منهم ذلك ، فقد أسخطهم وأغضبهم ولم يودّهم ؛ لأن مودّتهم لا تتحقّق مع ردّ قولهم ومغاضبتهم .

وإن كان المراد عموم أقربائه ، وجب مودّة جميع أقرباء النبيّ صلى الله عليه وآله إلاّ من ثبت عدم وجوب مودّته ، ويدلّ أيضاً علىٰ إمامة المعصومين عليهم السلام ؛ لأنّه لم يدّع أحد من أقربائه الإمامة بحقّ إلاّ الأئمّة المعصومون . وأمّا من ادّعى الإمامة من غير المعصومين ، كعبد اللّه الأفطح ونظرائه ، فقد دلّت الأدلّة القاطعة علىٰ بطلانه .

ثمّ إنّ الإستثناء إن كان متّصلاً ، أي : لا أسألكم علىٰ تبليغ الرسالة شيئاً إلاّ أجراً واحداً ، وهو أن تودّوا أقربائي ، فمودّة ذي القربىٰ واجبة من أجل أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله جعلها أجر رسالته وسألهم أجره . وإن كان منقطعاً ، أي : لا أسألكم علىٰ تبليغ الرسالة أجراً ، لكن أسألكم مودّة ذي القربىٰ ، كانت مودّتهم واجبة من أجل أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله سألهم ذلك .

وأمّا قوله تعالىٰ « قل ما أسألكم عليه من أجر إلاّ من شاء أن يتّخذ إلىٰ ربّه سبيلاً »[1] وقوله تعالىٰ « وقل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلاّ على اللّه وهو علىٰ كلّ شيء شهيد »[2] فلا ينافيان طلبه مودّة ذي القربىٰ أجراً علىٰ رسالته ؛ لأنّ لإبلاغ الأنبياء عليهم السلام رسالتهم جهتين:

---

(١) الفرقان : ٥٧ .

(٢) سبأ : ٤٧ .

إحداهما : من حيث أنّهم عملوا بما أوجب اللّه عليهم من التبليغ ، وأجرهم علىٰ عملهم على اللّه تعالىٰ ، فمن هذه الحيثيّة لا يطلبون من الناس أجراً .

ثانيهما : إنتفاع الناس واهتدائهم بما بلّغهم الأنبياء ، وصيروتهم ممّن أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان ، ومن هذه الحيثيّة يجب على الناس شكرهم ؛ لأنّ شكر وليّ النعمة واجب عقلاً ، ومن لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق ، وشكرهم هو تحصيل مرضاتهم ، فإن أدّوا بإزاء إنتفاعهم بالهداية شيئاً ، صحّ أن يعبّر عنه بالأجر .

و نبيّنا ﷺ جعل أجر تبليغه الذي يستحقّه من الناس عقلاً مودّة قرباه ، وحيث أنّ نبيّنا ﷺ أفضل الأنبياء ، ورسالته تكون أفضل الرسالات ، فلا عمل أعظم من تبليغه الرسالة في انتفاع الناس ، ولابدّ أن يكون أجره معادلاً ومساوياً له ، فيكون مودّة ذي القربىٰ من أعظم الفرائض ، فعلى المسلمين الإهتمام لأداء هذه الفريضة التي يرجع نفعها إليهم ، ويكون سبب نجاتهم وفوزهم . وبهذا البيان يمكن الجمع بين هذه الآيات .

أما الآية الأُولىٰ ، فالمراد من جعل مودّة القربىٰ أجراً ، هو الأجر الذي يعمله الناس قبال تبليغ الرسالة .

والمراد بالآية الثانية أنّ الأجر هو إتّخاذ السبيل إلى الربّ ، وهو التديّن بما جاء به النبيّ ﷺ والعمل به ، ومودّة القربىٰ وإطاعة أئمّة المعصومين عليهم السلام من جملة ما جاء به ، بل انّ السبيل قد فسّر بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .

وقوله تعالىٰ ﴿ من شاء ﴾ لا يدلّ علىٰ عدم الوجوب ، بل المراد من

شاء نجاة نفسه ، نظير قوله سبحانه ﴿ لا إكراه في الديـن ﴾[١] **مـع أنّ الإلتزام به واجب .**

والمراد بالآية الثالثة أنّ الأجر الذي يكون من الناس يـرجـع نـفعه إليهم، فإنّ مودّة ذي القربىٰ وإطاعتهم يرجع نفعها إليهم ، وهـي – أي : مودّة ذي القربى – من الحسنات التي من يقترفها يزيد الله له حسـناً ، وأجر الرسالة هو الذي يعطيه اللّه نبيّه .

وقد تبيّن أنّه إذا وجبت مودّة ذي القـربىٰ ، فـهي تـتحقّق بـامتثال أوامرهم . وأمّا مخالفتهم ومعصيتهم ، فإنّها تنافي المودّة ، قال الشاعر :

تعصي الإلٰه وأنت تظهر حبّه ... هذا لعمرك في الفعال قـبيح
لوكان حبّك صادقاً لأطـعته ... إنّ المحبّ لمن يحبّ مـطيع

ثمّ إنّ الصدّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام دعت الناس إلىٰ متابعة علي عليه السلام ، فإطاعتها في ذلك تكون مودّتها ، والحسنان عليهما السلام لم يدّعوا إلىٰ أنفسهما في زمان حياة أمير المؤمين علي بن أبي طالب عليه السلام ، بل دعيا إلىٰ متابعة علي عليه السلام ، فكلّ إمام من الأئمّة المعصومين عليهم السلام يجب إطاعته ؛ لأنّ مودّته إطاعته ومخالفته ترك للمودّة .

ولبعض العامّة مناقشات علىٰ دلالة الآية :

منها : أنّ الآية الأُولىٰ في سورة الشورىٰ وهي مكّيّة ، ومن المعلوم أنّ عليّاً عليه السلام تزوّج فاطمة عليها السلام بالمدينة ، فلا تشـمل الآيـة حـين نزولها الحسن والحسين عليهما السلام فضلاً عن غيرهما .

---

(١) البقرة : ٢٥٦

الجواب أولاً : أنّ هذه الآية بخصوصها مدنيّة علىٰ ما في المصحف وأسباب التنزيل .

وثانياً : أنّ الحكم عامّ شامل للموجودين ولمن يوجد .

ومنها : أنّه لو أراد ذلك لقال المودّة لذي القربىٰ ، فإنّ جميع ما في القرآن من التوجيه بحقوق ذوي قربى النبيّ صلى الله عليه وآله وذوي قربى الناس إنّما قيل فيها لذي القربىٰ ، فلمّا ذكر هنا المصدر دون الإسم دلّ علىٰ أنّه لم يرد ذوي قرباه .

ومنها : أنّه لو أراد المودّة لهم ، لقال للقربىٰ ولم يقل في القربىٰ ، فلا يقال أسألك المودّة في فلان ، بل يقال : أسألك المودّة لفلان .

الجواب عنهما : ما ذكره في الكشّاف ، قال : جعلوا مكاناً للمودّة ومقرّاً لها ، كقولك لي في آل فلان مودّة ، ولي فيهم هوىً وحبّ شديد ، تريد أُحبّهم وهم مكان حبّي ومحلّه ، وليست في بصلة للمودّة كاللام إذا قلت إلاّ المودّة للقربىٰ ، إنّما هي متعلّقة بمحذوف تعلّق الظرف به في قولك المال في الكيس ، وتقديره : إلاّ المودّة ثابتة في القربىٰ ومتمكّنة فيها[١] إنتهىٰ .

ومنها : أنّ الأنبياء لا يسألون أجراً .

الجواب : قد ظهر ممّا بيّنّاه .

ومنها : أنّ القربىٰ معرّفة باللام ، فلابدّ أن يكون معروفاً عند المخاطبين .

الجواب : أنّ اللام فيها ليس للعهد بل هي للجنس .

---

(١) الكشّاف ٣ : ٤٦٧ .

منها : أنّ المودّة إن أوجبت الطاعة ، وكلّما وجبت الطاعة كان المطاع إماماً ، وجب أن تكون فاطمة الزهراء عليها السلام إماماً .

الجواب : أنّها لو أمرت باتبّاعها وجب إطاعتها ، لكنّها أمرت باتبّاع أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .

ومنها : أنّ المودّة لا توجب الإطاعة ، بدليل أنّ مودّة الحسن والحسين عليهما السلام واجبة في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وبعده قبل أن يصيرا إمامين .

الجواب : أنّهما كانا يأمران بإطاعة النبيّ صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، ولم يأمرا بإطاعة أنفسهما ، بل كانا ينهيان لو فرض محالاً إدّعاء شخص أنّهما إمامان .

الآية الثالثة : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى اللّه وإلى الرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾(١) .

بيان : قوله تعالىٰ ﴿ يا أيّها الذين ﴾ الخطاب عامّ لجميع المؤمنين المشافهين والغائبين ، والموجودين ومن يوجد ، فيجب على الجميع إطاعته تعالىٰ وإطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وإطاعة أُولي الأمر في جميع الأزمنة مالم يكونوا لزمان خاصّ أومكان خاصّ ، وإلاّ فيجب إطاعتهم في المقدار الخاصّ .

قوله تعالىٰ ﴿ أطيعوا الرسول ﴾ إطاعة الرسول إن أخبر عن اللّه بما أوحىٰ إليه ، ترجع إلىٰ إطاعة اللّه سبحانه ، وإذا كلّفهم بما يراه مصلحة

---

(١) النساء : ٥٩ .

فقد أمضاه اللّه ، كما ورد أنّ اللّه حرّم الخمر ، وحرّم رسول اللّه ﷺ المسكر من كلّ شيء ، وما ورد من أن اللّه فرض الصلاة ركعتين ، وزاد رسول اللّه ﷺ فيهما ركعة في المغرب ، وركعتين في العشاء والظهرين، واذا أمرهم بما هو حاكم المسلمين وواليهم وسائس العباد وجب إطاعته ؛ لأنّ اللّه أمر بإطاعته .

قوله تعالىٰ ﴿ أُولي الأمر ﴾ أي : أصحاب الأمر ، والأمر يحتمل فيه إرادة الأمر الإنشائيّ ، كقوله تعالىٰ ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾[١] .

ويحتمل فيه إرادة الأمر التكويني ، كقوله تعالىٰ ﴿ تنزّل الملائكة والروح فيها باذن ربّهم من كلّ أمر ﴾[٢] .

أمّا الأوّل ، فأُولوا الأمر والنهي هم الذين يأمرون الناس بما يرجع إلىٰ وظائفهم الفرديّة والإجتماعيّة والسياسيّة ، فإذا كان أمرهم عامّاً لجميع الأزمنة وجميع الأشخاص ، فهم أُولوا الأمر بالنسبة إلى الجميع ، في جميع الأزمنة والأمكنة ، ويجب إطاعتهم ، ومن إطاعتهم إطاعة المنصوبين من قبلهم ، كالأُمراء المنصوبين من قبل النبيّ ﷺ وأميرالمؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام ، كمالك الأشتر وأضرابه. وقد بيّن الله تعالىٰ شروط من يجب طاعته ، أي : أُولي الأمر .

فمنها : العلم ؛ لأنّ عموم الطاعة له يقتضي أن يكون عالماً بجميع ما يأمر وينهي ؛ لأنّه لوكان جاهلاً في بعضها ووجب إطاعته فيه لزم

---

(١) النور : ٦٣ .

(٢) القدر : ٤ .

وجوب متابعة الجهل ، وقد قال سبحانه : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾(١) وقال : ﴿ أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لا يهدّي إلاّ أن يهدىٰ ﴾(٢) .

وأن يكون معصوماً ؛ لأنّه لو كان مخطأً لزم وجوب متابعة الجاهل ؛ لأنّ الخطأ جهل مركّب .

وأن يكون غير ظالم ؛ لقوله سبحانه ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار ﴾(٣) ولا يكون كافراً ؛ لقوله سبحانه ﴿ ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾(٤) والمرتدّ عن الإسلام وهو المنكر للضروريّ الذي يرجع إلىٰ إنكار الرسالة كافر .

ثمّ إنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام واجدون لشروط أُولي الأمر الذين يجب إطاعتهم في كلّ زمان وكلّ مكان(٥) ، فإنّهم العالمون

---

(١) الاسراء : ٣٦.

(٢) يونس : ٣٥.

(٣) هود : ١١٣.

(٤) النساء : ١٤١.

(٥) روى الكليني قدس سره في الكافي [١ : ١٩٢] باسناده عن عبد الرحمٰن بن كثير ، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : نحن ولاة أمر الله ، وخزنة علم الله ، وعيبة علم الله . (ح ١).

وأيضاً باسناده عن سدير ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت له : جعلت فداك ما أنتم ؟ قال : نحن خزّان علم الله ، ونحن تراجمة وحي الله ، ونحن الحجّة البالغة علىٰ ما دون السماء ومن فوق الأرض . (ح٣).

وأيضاً باسناده عن أبي حمزة ، قال : سمعت أباجعفر عليه السلام يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قال الله تبارك وتعالى : إستكمال حجّتي على الأشقياء من أُمّتك من ترك ولاية علي والأوصياء من بعدك ، فانّ فيهم سنّتك وسنّة الأنبياء من قبلك ، وهم خزّاني علىٰ علمي من بعدك الحديث . (ح ٤).

بالكتاب المعصومون الهادون المهديّون .

وقد أمروا الناس ونهوهم في أخبار كثيرة وصلت إلينا ، فكلّ إمام عليه السلام بيّن حكماً وأحكاماً وقال : إنّ هذه الأحكام يجب العمل بها علىٰ جميع المكلّفين ، فيجب إتّباع أوامر الأئمّة الإثني عشر عليهم السلام ونواهيهم ؛ لأنّهم أُولوا الأمر الواجدون للشروط ، ويكون مخالفوهم والمتقدّمون عليهم من الظالمين المرتدّين .

ثمّ إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام نصبوا أشخاصاً وأمروا بطاعتهم ، فلهم إمارة في خصوص ما نصبوهم .

ولا يشترط في الإمارة الخاصّة إلاّ المصالح التي يراها النبيّ صلى الله عليه وآله أو الإمام المعصوم عليه السلام في الذي يولّيه من قبله ، كالولاة الذين بعثهم النبيّ صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام على البلاد ، فإنّه لا يعتبر

وأيضاً باسناده عن عبد الله بن يعفور ، قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : يابن أبي يعفور انّ الله واحد متوحّد بالوحدانيّة ، متفرّد بأمره ، فخلق خلقاً فقدّرهم لذلك الأمر ، فنحن هم يابن أبي يعفور ، فنحن حجج الله في عباده ، وخزّانه علىٰ علمه ، والقائمون بذلك . (ح ٥).

ورویٰ أیضاً في الكافي [١ : ١٩٣] باسناده عن الجعفري ، قال : سمعت أباالحسن الرضا عليه السلام يقول : الأئمّة خلفاء الله عزّوجلّ في أرضه . (ح ١).

وأيضاً باسناده عن أبي بصير ، قال : قال أبوعبد الله عليه السلام : الأوصياء هم أبواب الله عزّوجلّ التي يؤتىٰ منها ، ولولاهم ما عرف الله عزّوجلّ ، وبهم إحتجّ الله تبارك وتعالىٰ علىٰ خلقه . (ح ٢).

ورویٰ أیضاً في الكافي [١ : ٢٠٦] باسناده عن بريد العجلي ، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالىٰ ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴾ قال : جعل منهم الرسل والأنبياء والأئمّة ، فكيف يقرّون في آل إبراهيم عليه السلام وينكرون في آل محمّد صلى الله عليه وآله ؟ قال : قلت : وآتيناهم ملكاً عظيماً ، قال : الملك العظيم أن جعل فيهم أئمّة، من أطاعهم أطاع الله ، ومن عصاهم عصى الله ، فهو الملك العظيم . (ح ٥).

فيهم ما يعتبر في الإمارة العامّة ؛ لأنّ زمان إمارتهم ومكانها محدودان وإن صدر منهم خلاف ، فالنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام مشرفان عليهم يعزلانهم .

وأمّا الثاني وهو الأمر التكويني ، فأُولوا الأمر من يكون عنده الأمر التكويني من الآجال والأرزاق وغيرهما . ولعلّه المراد بالأمر في قوله سبحانه « إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنّا كنّا منذرين * فيها يفرق كلّ أمر حكيم * أمراً من عندنا إنّا كنّا مرسلين»[١] و قوله تعالىٰ ﴿ تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر ﴾[٢] .

وإذا كان ليلة القدر باقياً مدى الأيّام والدهور ، فيكون من ينزل إليه الأُمور باقياً ، وهو الإمام الثاني عشر عليه السلام .

قوله ﴿ وإن تنازعتم ﴾ خطاب إلى المؤمنين الذين يجب عليهم إطاعة الرسول وأُولي الأمر ؛ لأنّ أُولي الأمر الذين يجب إطاعتهم لا معنىٰ للمنازعة معهم .

لكن في الكشّاف قال : المراد إن اختلفتم أنتم وأُولوا الأمر منكم في شيء من أُمور الدين ، فردّوه إلى الله ورسوله ، أي : إرجعوا إلى الكتاب والسنّة[٣] إنتهىٰ .

ولا يخفىٰ أنّ هذا هو التفسير بالرأي وخلاف الظاهر ، فإنّ من قرنه الله بنفسه وبرسوله في وجوب الإطاعة كيف يجوز المنازعة معه ؟.

قوله تعالىٰ ﴿ فردّوه إلى الله وإلى الرسول ﴾ يحتمل أن يكون المعنىٰ

(١) الدخان : ٣ – ٥ .

(٢) القدر : ٤ .

(٣)الكشّاف ١ : ٥٣٥ .

وإلىٰ أُولوا الأمر ، من باب حذف ما يعلم ، نظير قوله تعالىٰ ﴿ والله ورسوله أحقّ أن يرضوه ﴾[١] ويؤيّده الإرجاع إلىٰ أُولي الأمر في قوله تعالىٰ ﴿ ولو ردّوه إلى الرسول وإلىٰ أُولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه ﴾[٢].

ثمّ إنّ الأُمّة قد تنازعت في خليفة الرسول ﷺ، فيجب عليهم ردّ ذلك إلى اللّه ، والردّ إليه هو الردّ إلىٰ كتابه ، وقد بيّن اللّه سبحانه وتعالىٰ في كتابه شروط من يجب إطاعته ، وتلك الشروط تنطبق علىٰ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام .

والردّ إلىٰ رسوله بعد وفاته هو الردّ إلىٰ سنّته ، وقد ثبت عنه متواتراً أنّه أوصىٰ بعترته ، وقال ﷺ : فاطمة بضعة منّي من أغضبها فقد أغضبني . وهي سلام الله عليها بعد وفاة أبيها أغضبت علىٰ من غصب حقّها وحقّ بعلها ، وهي كانت ساخطة علىٰ أبي بكر وعمر ، ويشهد لذلك أنّها دفنت سرّاً .

ثمّ لا يخفىٰ أنّ غير المتعصّب إذا تأمّل وحقّق ، فلا أقلّ أنّه يشكّ في أمر القوم بعد وفاة الرسول ﷺ لكن لا يشكّ في أنّ عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام هم مصاديق قوله تعالىٰ ﴿ إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ﴾[٣] فلا ينبغي العدول عنهم إلىٰ غيرهم[٤] .

---

(١) التوبة : ٦٢ .

(٢) النساء : ٨٣ .

(٣) الأحزاب : ٣٣ .

(٤) روى الكليني في الكافي [١ : ٢٨٦ ح ١] بإسناده عن أبي بصير ، قال : سألت أبا

وحكى الشيخ الطوسي رحمه اللّه في التبيان عن المفسّرين تأويلين لأُولي الأمر : أحدهما أنّهم الأمراء ، ثانيهما أنّهم العلماء .

أقول : وكلاهما غير صحيح ؛ لأنّ اللّه سبحانه لا يأمر بإطاعة الأُمراء، ولا يقال للعلماء أُولوا الأمر ؛ لأنّهم ليسوا ممّن له الأمر ، بل يستفاد كونهم معصومين من قوله تعالىٰ ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمر أوالخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلىٰ أُولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾(١)

عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم ﴾ فقال : نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام ، فقلت له : إنّ الناس يقولون : فما له لم يسمّ عليّاً وأهل بيته عليهم السلام في كتاب الله عزّوجلّ ؟

قال : فقال : قولوا لهم : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نزلت عليه الصلاة ولم يسمّ الله ثلاثاً ولا أربعاً ، حتّىٰ كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم ، ونزلت عليه الزكاة ولم يسمّ لهم من كلّ أربعين درهماً درهم ، حتّىٰ كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم ، ونزل الحجّ فلم يقل لهم : طوفوا أُسبوعاً ، حتّىٰ كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم.

ونزلت ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم ﴾ ونزلت في علي والحسن والحسين عليهم السلام فقال رسول الله عليه السلام في علي عليه السلام : من كنت مولاه فعلي مولاه ، وقال صلى الله عليه وآله : أُوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي ، فإنّي سألت الله عزّوجلّ أن لا يفرّق بينهما حتّىٰ يوردهما عليّ الحوض ، فأعطاني ذلك ، وقال : لا تعلّموهم فهم أعلم منكم ، وقال : إنّهم لن يخرجوكم من باب هدىٰ ، ولن يدخلوكم في باب ضلالة .

فلو سكت رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يبيّن من أهل بيته لادّعاها آل فلان وآل فلان ، لكن الله عزّوجلّ أنزله في كتابه تصديقاً لنبيّه صلى الله عليه وآله ﴿ إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً ﴾ فكان علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام فأدخلهم رسول الله صلى الله عليه وآله تحت الكساء في بيت أُمّ سلمة ، ثمّ قال : اللهمّ إنّ لكلّ نبيّ أهلاً وثقلاً ، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي الحديث .

(١) النساء : ٨٣.

قال في التبيان : عن أبي جعفر عليه السلام هم الأئمّة المعصومون ؛ لأنّه تعالىٰ بيّن أنّهم متىٰ ردّوه إلىٰ أُولي العلم علموه ، والرّد إلىٰ من ليس بمعصوم لا يوجب العلم لجواز الخطأ بلا خلاف ، سواء كانوا أُمراء السرايا أو العلماء[١].

الآية الرابعة : قوله تعالىٰ ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾[٢] دلّت الآية الشريفة علىٰ إكمال الدين في حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله[٣].

---

(١) التبيان ٣ : ٢٧٣ .

(٢) المائدة : ٣ . أقول : نزلت هذه الآية الشريفة في ولاية علي عليه السلام ، روى الكليني في الكافي (١ : ٢٨٩ ح ٤) في صحيح الفضلاء عن أبي جعفر عليه السلام قال : أمر الله عزّوجلّ رسوله بولاية علي عليه السلام وأنزل عليه ﴿ إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ فلم يدروا ما هي ، فأمر الله محمّداً صلّى الله عليه وآله أن يفسّر لهم الولاية ، كما فسّر لهم الصلاة والزكاة والصوم والحجّ ، فلمّا أتاه ذلك من الله ، ضاق بذلك صدر رسول الله صلّى الله عليه وآله وتخوّف أن يرتدّوا عن دينهم وأن يكذّبوه ، فضاق صدره وراجع ربّه عزّوجلّ .

فأوحى الله عزّوجلّ إليه ﴿ يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ فصدع بأمر الله تعالىٰ ذكره ، فقام بولاية علي عليه السلام يوم غدير خمّ ، فنادىٰ الصلاة جامعة ، وأمر الناس أن يبلّغ الشاهد الغائب .

قال عمر بن أُذينة : قالوا جميعاً غير أبي الجارود : وقال أبو جعفر صلّى الله عليه وآله : وكانت الفريضة تنزل بعد الأُخرىٰ ، وكانت الولاية آخر الفرائض ، فأنزل الله عزّوجلّ ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ قال أبو جعفر عليه السلام : يقول الله عزّوجلّ : لا أُنزل عليكم بعد هذه فريضة ، قد أكملت لكم الفرائض .

ورویٰ أيضاً نحوه في حديث عن أبي الجارود ، عن أبي جعفر عليه السلام .

(٣) في بعض الأخبار أنّ هذه الآية نزلت في عرفة في حجّة الوداع ، فيمكن أن تكون هذه الفريضة – أي : ولاية علي عليه السلام – آخر الفرائض ، وكمل الدين بنزولها ، لكن

بيان: قوله تعالىٰ ﴿ اليوم ﴾ يمكن أن يقال: إنّ ظاهره يوم معيّن، وهو نزول ولاية علي عليه السلام وهو يوم تثبيت الدين وهو الإسلام.

ويمكن أن يستأنس من الجملة السابقة نزول هذه الجملة في أواخر

النبيّ صلى الله عليه وآله لم يكن مأموراً بإبلاغها إلىٰ أن رجع من الحجّ ووصل إلىٰ غدير خمّ، فنزل قوله تعالىٰ ﴿ يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك ﴾.

روى الكليني في الكافي [١: ٢٩٠ ح ٦] بإسناده عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: فرض الله عزّوجلّ على العباد خمساً، أخذوا أربعاً وتركوا واحداً، قلت: أتسمّيهنّ لي جعلت فداك؟

فقال: الصلاة وكان الناس لا يدرون كيف يصلّون، فنزل جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمّد أخبرهم بمواقيت صلاتهم، ثمّ نزلت الزكاة، فقال: يا محمّد أخبرهم من زكاتهم ما أخبرتهم من صلاتهم، ثمّ نزل الصوم، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا كان يوم عاشورا بعث إلىٰ ما حوله من القرىٰ، فصاموا ذلك اليوم، فنزل شهر رمضان بين شعبان وشوّال، ثمّ نزل الحجّ، فنزل جبرئيل عليه السلام فقال: أخبرهم من حجّهم ما أخبرتهم من صلاتهم وزكاتهم وصومهم.

ثمّ نزلت الولاية، وإنّما أتاه ذلك في يوم الجمعة بعرفة، أنزل الله عزّوجلّ ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ وكان كمال الدين بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال عند ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله: أُمّتي حديثوا عهد بالجاهليّة، ومتىٰ أخبرتهم بهذا في ابن عمّي يقول قائل ويقول قائل، فقلت في نفسي من غير أن ينطق به لساني، فأتتني عزيمة من الله عزّوجلّ بتلة أوعدني إن لم أُبلّغ أن يعذّبني، فنزلت ﴿ يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾.

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد علي عليه السلام، فقال: أيّها الناس إنّه لم يكن نبيّ من الأنبياء ممّن كان قبلي إلاّ وقد عمّره الله، ثمّ دعاه فأجابه، فأُوشك أن أُدعىٰ فأُجيب، وأنا مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟ فقالوا: نشهد أنّك قد بلّغت ونصحت، وأدّيت ما عليك، فجزاك الله أفضل جزاء المرسلين، فقال: اللهمّ اشهد - ثلاث مرّات - ثمّ قال: يا معشر المسلمين هذا وليّكم من بعدي، فليبلّغ الشاهد منكم الغائب الحديث.

أيّام النبيّ ﷺ وهي قوله سبحانه ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾[١] فإنّ الكفّار كانوا يرجون إبطال الدين واضمحلاله، وارتداد المسلمين عن دينهم، كما قال سبحانه ﴿ ولا يزالون يقاتلوكم حتّىٰ يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[٢].

لكن في أواخر أيّام النبيّ ﷺ بعد فتح مكّة وقوّة الإسلام يئس الكفّار من إبطال الدين، وعلموا أنّه استقرّ، وإن قتلوا النبيّ ﷺ لا يضمحلّ الدين؛ لأنّه ارتكز وثبت، ويئسوا من معارضة المسلمين وارتدادهم عن دينهم.

وقال في الكشّاف: اليوم لم يرد به يوماً بعينه، وانّما أراد به الزمان الحاضر وما يتّصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية، إلىٰ أن قال: وقيل: أُريد يوم نزولها وقد نزلت يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجّة الوداع إلىٰ آخر كلامه[٣].

أقول: لا وجه لتأويل ظاهره، وهو اليوم المعيّن إلىٰ ما ذكره.

قوله تعالىٰ ﴿ أكملت لكم ﴾ إكمال الشيء هو البلوغ إلىٰ نهايته وإتمام نقصه، ولا يتحقّق إكمال الدين إلاّ بعد أن يبيّن اللّه سبحانه لجميع المكلّفين ما يحتاجون إليه من الدين، والخطاب متوجّه إلىٰ جميع المكلّفين، ولا اختصاص بالمشافهين؛ لأنّ الدين لا يختصّ بهم.

قوله ﴿ دينكم ﴾ الدين هو الأُصول الإعتقاديّة من توحيد اللّه سبحانه، ومعرفة صفاته، ومعرفة الأنبياء، وأوصيائهم والمعاد.

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) البقرة: ٢١٧.

(٣) الكشّاف ١: ٥٩٣.

والفروع من العبادات ، والمعاملات ، والسياسات . وبعضها أعمال فرديّة ، وبعضها إجتماعيّة ، كإقامة الجمعة ، وإجراء الحدود ، وإدارة المجتمع الإسلامي ، ووجود النبيّ ﷺ أو خليفته الذي مثله علماً وعملاً وعصمةً من أجزاء الدين .

فالحاجة إلىٰ خليفة النبيّ ﷺ بالأوصاف المذكورة لوجهين :

أحدهما : أنّ وجوده من أجزاء الدين ؛ لأنّ الأحكام الإجتماعيّة والسياسيّة لا تتحقّق بدونه .

ثانيهما : أنّ النبيّ ﷺ قد أودع الأحكام الشرعيّة جميعاً حتّىٰ أرش الخدش عنده ليبيّن للناس عند حاجتهم إليها ، فقوله سبحانه ﴿ أكملت لكم دينكم ﴾ إخبار عن نصب خليفة النبيّ ﷺ الذي يكون بمنزلته علماً وعملاً وعصمةً ، وهو يتصدّي لجميع ما كان يتصدّي له النبيّ ﷺ وهذا ما يعتقده الشيعة .

وأمّا ما يقوله غير الشيعة في مسألة خليفة النبيّ ﷺ والأحكام التي تقوّلها المتصدّون للخلافة بعد النبيّ ﷺ ، فيتوجّه عليهم بأنّه إن لم يكن وجود الخليفة والأحكام المستحدثة بعد النبيّ ﷺ من الدين ، فلا حاجة بالناس إليها ؛ لأنّ الدين قد أُكمل في زمان النبيّ ﷺ .

وإن كانت من الدين ، فإن زعموا أنّ النبيّ ﷺ لم يبيّنها ، لزم عدم إكمال الدين في زمانه ، وإن زعموا أنّ النبيّ ﷺ بيّن لجميع أصحابه جميع ما يحتاج إليه الأُمّة إلىٰ يوم القيامة ، فغير صحيح لوجوه :

الأوّل : أنّ النبيّ ﷺ مبعوث إلى الإنس والجنّ ، فإنّه يرى الجنّ ويستمع إلىٰ كلامهم ، ويجيب عن مسائلهم ، ثمّ إنّه لم يتمكّن من بيان جميع ما يحتاج إليه الأُمّة ، ومن نظر إلىٰ تاريخ حياته مع أصحابه ،

يعترف بأنّه لم يبيّن جميع ما يحتاج إليه الإنس والجنّ إلىٰ يوم القيامة لجميع أصحابه.

وقد أجاد في بيان ذلك الشيخ أسد اللّه التستري رحمه اللّه، حيث قال في كشف القناع: ولمّا بعث اللّه نبيّنا صلى الله عليه وآله إلى الناس كافّة، كانوا كلّهم أهل شرك وعبادة لغير اللّه سبحانه، إلاّ بقايا من أهل الكتاب، فكانوا علىٰ ملل أنبيائهم المغيّرة وكتبهم المحرّفة، عدا ما لا يخلو الأرض منه عند الفترة، أو مع أوحديّ من أتباعه خاصّة، فلم يكن له همّ أوّلاً إلاّ دعوة الناس إلى الإقرار بالشهادتين، وترك أديانهم ومللهم السابقة.

وقد بقي علىٰ ذلك سنين كثيرة معروفة مدّة مكثه بمكّة بعد البعثة لا يأمرهم إلاّ بذلك وبقليل من الفروع والأحكام، بحسب ما اقتضته المصالح والحكم، وتحمّلته طباع أهل ذلك الزمن، فأسلم قليل منهم علىٰ عجز وخيفة وضعف بصيرة وقلّة معرفة بحقائق الشريعة المنيرة، إلاّ نفراً منهم هداهم اللّه لدينه لم يشكّوا ولم يزلّوا، ولم تأخذهم في اللّه لومة لائم، ولم يضرّهم خذلان خاذل، وكانت التكاليف تتبع الأعمّ الأغلب، ولا سيّما في بدو الشرع.

فلمّا كان من أمر النبيّ صلى الله عليه وآله مع قريش ما كان وهاجر من مكّة إلى المدينة، وقوي الإسلام وكثر أهل الإيمان، زادت تكاليفهم تدريجاً، إلىٰ أن نزل القرآن بتمامه نجوماً، واستقرّت الشريعة، وكمل الدين وتمّت النعمة، وذلك قبل وفاته بمدّة قليلة.

ثمّ إنّ المسلمين مع قرب عهدهم بالجاهليّة، وقصر مدّة إسلامهم وتعلّمهم للشريعة، وكثرة المنافقين بينهم والمستضعفين والجهّال والكذّابة، كانوا في شدّة عظيمة من جهة الكفّار والأوباش، وضيق

شديد من جهة المعاش ، فكان أكثر أوقاتهم مصروفاً في الجهاد والإكتساب ولوازمها ، كتهيأة السلاح وعدّة السفر ، وتعلّم السبق والرمي، ومعالجة الجروح ومزاولة الجرحىٰ ، والإشتغال بأُمور القتلىٰ ، والخروج إلى الأسواق وإلى البساتين لإصلاح الأشجار وقطع الثمار ، وإلى البلاد النائية والبراري والقفار للإكتساب والإتّجار ، وكانوا مشغولين أيضاً بغير ذلك من لوازم الطبيعة البشريّة وسائر الأفعال والأعمال الدنيويّة والدينيّة .

فما كانوا ليحضروا عند النبيّ صلّى الله عليه وآله لاستماع المواعظ وتعلّم المسائل ، إلاّ عند فراغهم من هذه العوائق والشواغل .

وربمّا كان يحضر بعضهم عند مسألة يسأل عنها ، أو حكم يحكم به ، أوفعل يصدر منه أو أمر أو نهي ويغيب عنه آخر ، ولم يكن كلّهم يسألون ويفهمون أو يستفهمونه ؛ لأنّ اللّه تعالىٰ كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام نهاهم عن السؤال ، حيث يقول : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم حين ينزّل القرآن تبدلكم ﴾[١] الآية .

فامتنعوا من السؤال ، وربّما لم يهتدوا إلىٰ طريقه ووجهه عند عروض الحاجة الباعثة عليه ، وقضاء الضرورة الملجأة إليه ، وقد كانوا لأجل ذا وذلك ربما يحبّون ويتمنّون أن يجيء الأعرابيّ والطاري ، فيسأل النبيّ صلّى الله عليه وآله عن شيء حتّىٰ يسمعوا .

فلم يعرف معظمهم من الشريعة إلاّ ما كان ظاهراً مشهوراً من الأعمال

---

(١) المائدة : ١٠١ .

التي كانوا يواظبون عليها غالباً أو مكرّراً ، والتروك التي كانوا تجنّبوها دائماً أو كثيراً ، أو غير ذلك ممّا كانوا يحتاجون إليه ويتّفق لهم العمل به نادراً .

وهذه ربّما خفي وجه بعضها عليهم ، فلم يعلموا هل المأمور به واجب أو مندوب ، والمنهيّ عنه محرّم أو مكروه ؛ لعدم توقّف الإمتثال علىٰ معرفة ذلك ، فلم يكن يهتمّ بشأنه كثيراً مع العزم على الإطاعة مطلقاً .

وربّما وقع منهم الخطأ العظيم فيما جعل النبيّ صلى الله عليه وآله أمره إليهم ، وذلك كما في قصّة ماعز بن مالك لمّا أقرّ علىٰ نفسه بالزنا ، وأمر النبيّ صلى الله عليه وآله برجمه ، فهرب من الحفيرة ، فلحقه الزبير ورماه بساق بعير ، فسقط فلحقه الناس فقتلوه ، ثمّ أُخبر النبيّ صلى الله عليه وآله بذلك ، فقال لهم : هلاّ تركتموه إذا هرب ، فإنّما هو الذي أقرّ علىٰ نفسه ، وقال أيضاً : أما لو كان علي حاضراً معكم لما ضللتم ، ثمّ ودّاه من بيت مال المسلمين .

وقد أخطأ عمّار في كيفيّة التيمّم إلىٰ أن وبّخه النبيّ صلى الله عليه وآله وعلّمه كما هو معروف ، فكيف حال سائر الصحابة ؟.

وربّما وقع الإختلاف بينهم في زمانه كما وقع بين جماعة منهم ، حيث تحاكم اليهم النبيّ صلى الله عليه وآله مع الأعرابيّ في القضيّة المعروفة المتّحدة أو المتعدّدة ، فلم يحكم منهم بالحقّ إلاّ أمير المؤمنين عليه السلام حتّىٰ صنع بالأعرابي ما صنع ، وكما وقع بين أبي ذرّ وعثمان في زكاة مال التجارة إلىٰ أن رجعا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : القول ما قال أبو ذرّ [١] . إنتهىٰ موضع الحاجة من كلامه ، وليرجع إلىٰ بقيّة كلامه من أحبّ الرجوع إليها .

---

(١) كشف القناع ص ٦١ – ٦٢ .

فقد تبيّن أنّه لم يكمل الدين في زمان حياة النبيّ صلى الله عليه وآله بتعليمه صلى الله عليه وآله الكتاب جميع الناس الذين عاصروه ، إلاّ ما يحتاجون إليه في اُصول دينهم وفروعه ، فضلاً عن الناس الذين يأتون بعده وما يحدث من الفروع في الأعصار .

فيتعيّن أن يكون تحقّق إكمال الدين بنصب خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله الذي بمنزلته ، وهو الذي علّمه النبيّ صلى الله عليه وآله الكتاب وأودعه علمه ، فيكون الخليفة إمتداداً لخطّ النبوّه ، ولايكون ذلك الشخص إلاّ أميرالمؤمنين علي عليه السلام ، وأولاده المعصومين عليهم السلام ، الذين يعلمون الكتاب الذي فيه ما يحتاج إليه الإنس والجنّ ، المشتمل علىٰ جميع المعارف ، وقد اجتمعت فيهم جميع الصفات التي دلّ القرآن الكريم على اعتبارها في خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله، ولم تجتمع في غيرهم [1] .

الوجه الثانى : أنّ من الطبيعي حدوث وقائع لم تكن في زمانه صلى الله عليه وآله

---

(١) وقد ثبت عنهم ووصل الى المكلّفين بعض الأخبار الدالّة على الأحكام الشرعيّة الغير الموجودة في الكتاب ، والأخبار المنقولة عن النبيّ صلى الله عليه وآله في كتب الأخبار .

وبهذا البيان يتّضح معنىٰ ما ورد في موثّق أبي حمزة الثمالي ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع ، فقال : يا أيّها الناس ما من شيء يقرّبكم من الجنّة ويباعدكم من النار إلاّ وقد أمرتكم به ، وما من شيء يقرّبكم من النار ويباعدكم من الجنّة إلاّ وقد نهيتكم عنه الحديث . وسائل الشيعة كتاب التجارة ب ١٢ من أبواب مقدّمات التجارة ح ٢ .

فانّ ما احتاج المعاصرون له إلىٰ بيانه قد بيّنه لهم ، ومنه خلافة علي عليه السلام ، وغيرهم يعرفون ما يحتاجون بالرجوع إلىٰ علي وأولاده المعصومين عليهم السلام ، وليس معنىٰ كلامه صلى الله عليه وآله أنّه بيّن جميع الأحكام لأصحابه ، من الشكوك الواقعة في الصلاة وغيرها ، كما هو ظاهر لغير المتعصّب .

ولم يبيّن حكمها ، ولا يستفاد من الكتاب ولا من النصوص الثابتة عنه ، ولذا احتاج العامّة إلىٰ تخريجها بالقياس والإستحسان والمصالح المرسلة التي رأوها ، وقد اعترف بذلك إبن رشد في مقدّمة بداية المجتهد .

فعلىٰ مذهب غير الشيعة لم يكمل الدين ، وأمّا علىٰ مذهبهم من وجود معصوم عالم بجميع الأحكام الجزئيّة والكلّيّة للوقائع المتجدّدة وغيرها المأخوذ علمه عن النبيّ صلى الله عليه وآله ، وأودعه معصوم عند معصوم ، فقد أُكمل الدين .

الوجه الثالث : أنّ الدين الذي أكمله اللّه سبحانه لعباده لا اختلاف فيه ؛ لأنّ حكم اللّه لا اختلاف فيه ، فقد قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[(١)] .

وأيضاً أنّ اللّه سبحانه لم يجعل حكمه تبعاً للأهواء والآراء ، فقال سبحانه مخاطباً لنبيّه : ﴿ إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾[(٢)] وقال عزّوجلّ : ﴿ قل إنّي علىٰ بيّنة من ربّي وكذّبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلاّ لله يقصّ الحقّ وهو خير الفاصلين ﴾[(٣)] وقال تعالىٰ : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون ﴾[(٤)] .

---

(١) النساء : ٨٢ .

(٢) النساء : ١٠٥

(٣) الأنعام : ٥٧ .

(٤) النحل : ٦٤ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾[(١)] وقال تعالىٰ : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتّبعوه واتّقوا لعلّكم ترحمون ❊ أن تقولوا إنّما أُنزل الكتاب علىٰ طائفتين من قبلنا وإن كنّا عن دراستهم لغافلين ❊ أو تقولوا لو أنّا أُنزل علينا الكتاب لكنّا أهدىٰ منهم فقد جاءكم بيّنة من ربّكم وهدىً ورحمةً فمن أظلم ممّن كذّب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ﴾[(٢)] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولّوا فاعلم أنّما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإنّ كثيراً من الناس لفاسقون ❊ أفحكم الجاهليّة يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾[(٣)] .

وبعد ذلك نقول : إنّ إختلاف العامّة في الأُصول والفروع ومذاهب أئمّتهم الأربعة أمر لا ينكر . فإن كان جميعها صحيحاً ، لزم عدم إكمال الدين ، وأن يكون حكم اللّه سبحانه تابعاً للأهواء والآراء .

الوجه الرابع : لو سلّم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله بيّن جميع الأحكام ، فمن يبلّغها إلىٰ أُمّته بعد وفاته إلىٰ يوم القيامة ؟ فإن قالوا : إنّ أُمّته المعاصرين له يحفظونها ويبلّغونها إلىٰ من بعدهم ، ففيه أنّهم قد اختلفوا في الفروع أشدّ الإختلاف ، فترىٰ أنّهم لم يحفظوا كيفيّة الأذان الذي كان يؤذّن في زمانه خمس مرّات .

---

(١) الشورى : ١٠ .

(٢) الأنعام : ١٥٥ – ١٥٧ .

(٣) المائدة : ٤٩ – ٥٠ .

الوجه الخامس : أنّ المراد من إكمال الدين هو إكماله بالنسبة إلى الناس جميعاً ، ولا يكون الدين كاملاً إلاّ إذا كان بحيث يتمّ الحجّة على الناس ، والدين لا يختصّ بالعرب ، بل يعمّ الناس أجمعين ، فلابدّ وأن يكون له حافظ يمكنه بيان حقّيّة الدين ورفع الشبهات عن الناس ، بأن يكون له معجزة تدلّ علىٰ حقّيّة الدين ، كما كان الأئمّة المعصومون عليهم السلام متمكّنين من الإعجاز ، وقد ملئت كتب الشيعة من ذكر معجزاتهم ، فأثبتوا بها أنّ الإسلام دين إلهيّ ، ولا يكفي إعجاز القرآن لجميع الناس ؛ لأنّ غير العربيّ ربّما لا يفهم إعجازه .

هذا التفسير الذي ذكر للآية ظاهر ، ولكن قال في الكشّاف : « اليوم أكملت لكم دينكم » كفيتكم أمر عدوّكم ، وجعلت اليد العليا لكم ، كما تقول الملوك : اليوم كمل لنا الملك ، وكمل لنا ما نريد ، إذا كفوا من ينازعهم الملك ، ووصلوا إلىٰ أغراضهم ومباغيهم ، أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم ، من تعليم الحلال والحرام ، والتوقيف على الشرائع ، وقوانين القياس واُصول الاجتهاد[١] إنتهىٰ .

أقول : أمّا المعنى الأوّل ، فليس معنى مطابقاً لمدلول الآية ؛ لأنّ الدين هو الإسلام ، وهو عبارة عن عقائد وأحكام لا ربط له بالملك ، فلا يقال كمل العقائد والأحكام لأنّ العدوّ صار مقهوراً .

وأمّا المعنى الثاني ، فقد تبيّن ممّا ذكرنا أنّه لم يعلم جميع اُمّته جميع الحلال والحرام .

وأمّا قوله « وقوانين القياس واُصول الاجتهاد » فبطلانها من

---

(١) الكشّاف ١ : ٥٩٣ .

الواضحات لمن راجع ما كتبه علماء الشيعة في بطلانهما ، وقد منع الله رسوله عن ذلك وقال : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ❊ لأخذنا منه باليمين ﴾[١] .

ولا سبيل لأحد إلىٰ ملاكات الأحكام غير المعصومين الذين يتّخذون علومهم من الله ، مثلاً جعل عتق الرقبة عدلاً لإطعام عشرة مساكين في قوله تعالىٰ ﴿ فكفّارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ﴾[٢] وعدلاً لإطعام ستّين مسكيناً في قوله تعالىٰ ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثمّ يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا ذلكم توعظون به والله بما تعلمون خبير ❊ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا فمن لم يستطع فإطعام ستّين مسكيناً ﴾ الآية[٣] .

قوله تعالىٰ ﴿ وأتممت عليكم نعمتي ﴾ أي : النعمة الدنيويّة والأُخرويّة قد أتممتها عليكم ، فلا نقص في النعمة عليكم .

وقد استعمل إتمام النعمة في النعمتين في القرآن الكريم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ هو الذي ألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾[٤] أي : نعمة الدين أزالت عنكم الحسد والكبر وغيرهما ، وقال الله تعالىٰ : ﴿ والله جعل لكم ممّا خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتمّ نعمته عليكم

---

(١) الحاقّة : ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢) المائدة : ٨٩ .

(٣) المجادلة : ٣ ـ ٤ .

(٤) آل عمران : ١٠٣ .

لعلّكم تسلمون ﴾[١].

وقال الله تعالىٰ بعد جعل بعض الأحكام: إنّه إنّما جعل عليكم ليتمّ نعمته، مثل قوله بعد تشريع التيمّم ﴿ ولكن يريد ليطهّركم وليتمّ نعمته عليكم لعلّكم تشكرون ﴾[٢] فأخبر الله تعالىٰ بأنّه يريد إتمام النعمة بجعل الأحكام.

فلمّا جعل تمام الأحكام أخبر تبارك وتعالىٰ بأنّه قد أتمّ الأحكام، ولم يبق بعده نعمة الدين ناقصة، بل صارت تامّة، ونعمة الدين إن تمّت لعلّه يتمّ نعمة الدنيا.

ولعلّ المراد بإتمام النعمة أعمّ من المادّيّة والمعنويّة، لكن القوم بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله كفرت بأنعم الله، فأذاقهم الله ما ابتلوا به، فوقعت الحوادث التي وقعت بعد وفاته صلّى الله عليه وآله.

وإتمام النعمة كذلك إنّما يكون إذا أمنت البلاد، ووصل إلىٰ كلّ ذي حقّ حقّه، وتمتّع كلّ إنسان بعيشه، واكتسب السعادة الأُخرويّة، وهذا لا يتحقّق إلاّ إذا حكم العباد قائد سائس غير مخطىء، أي: معصوم عالم قويّ، وهذا لا يكون إلاّ إذا تصدّىٰ للخلافة عليّ وأبناؤه الطاهرون عليهم السلام.

قوله تعالىٰ ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ فالإسلام هو الدين، لكن إلى اليوم المذكور لم يكن قد رضيه للمخاطبين ولمن يأتي بعدهم ديناً لهم، وإنّما رضي بعد الإكمال والإتمام، وتعيين خليفة النبيّ الذي يكون

---

(١) النحل: ٨١.

(٢) المائدة: ٦.

ضامناً لبقاء الدين .

وقد ظهر بالبيان المتقدّم أنّ إخباره تعالىٰ عن إكمال الدين إخبار عن نصب خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله في زمان حياته ، وهو بمنزلته علماً وعملاً وعصمةً ، وقد بيّن اللّه سبحانه في كتابه شروط الخليفة ، وهي متوفّرة في علي وأولاده المعصومين عليهم السلام لا في غيره ، ومن جانب الإعتساف واطّلع على التاريخ الصحيح يستفيد من هذه الآية الشريفة أُموراً :

منها : أنّ من حضر السقيفة لتعيين خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله، فقد خالف القرآن ؛ لأنّ الدين الذي أكمله اللّه عزّوجلّ لا يكون إكماله إلاّ بعد تعيين اللّه سبحانه خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله .

ومنها : أنّ من استعمل الرأي والإستحسان والقياس في أحكام اللّه سبحانه ، فقد خالف القرآن ؛ لأنّ الأحكام إن كانت من الدين ، فقد أكملها اللّه وبيّنها لنبيّه . وإن لم تكن من الدين ، فلا حاجة بالناس إليها .

ومنها : أنّ الخبر المنسوب إلى النبيّ أنّه قال لمعاذ بن جبل لمّا وجّهه إلى اليمن قاضياً ، بعد أن قال : أجتهد رأيي لا آلو ، قال : فضرب رسول اللّه صلى الله عليه وآله علىٰ صدره ، وقال : الحمد للّه الذي وفّق رسول رسول اللّه لما يحبّ . مجعول ؛ لأنّه مخالف للقرآن ؛ لأنّه سبحانه أكمل الدين ، وليس آراء الناس إلاّ آراءً لهم لا حكم اللّه تعالىٰ .

ومنها : أنّ عموم الخبر المنسوب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم . مجعول ؛ لأنّه مخالف للقرآن لو أُريد كلّ من صحب النبيّ صلى الله عليه وآله ؛ لأنّه وقع بينهم الإختلاف في أحكام الدين .

زعم بعض العامّة عدم دلالة الآية الشريفة علىٰ خلافة علي عليه السلام ، قال : إنّ هذه الآية ليست فيها دلالة علىٰ علي عليه السلام ، ولا علىٰ

إمامته ، بل فيها إخبار اللّه بإكمال الدين وإتمام النعمة على المؤمنين ورضا الإسلام ديناً .

أقول : قد عرفت أنّ إكماله متوقّف علىٰ تعيين الخليفة ، ولم يعيّن النبيّ ﷺ خليفةً إلاّ من وجد فيه الصفات المذكورة في القرآن ، وهي متوفّرة في علي عليه السلام .

الآية الخامسة : قوله تعالىٰ ﴿ يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته واللّه يعصمك من الناس إنّ اللّه لا يهدي القوم الكافرين ﴾[١] لا شكّ في أنّ الرسول ﷺ قبضت روحه المقدّسة مؤدّياً رسالته مرضيّاً عند ربّه .

وسياق الآية يدلّ علىٰ أنّها واردة في واقعة خاصّة ؛ لأنّ الرسول ﷺ كان مأموراً بتبليغ رسالته من أوّل بعثته ، فأمره بتبليغ الرسالة ولا سيّما في أواخر حياته[٢] أو بعد قدومه إلى المدينة -كما يقوله بعض العامّة- لا يكون إلاّ لواقعة مهمّة .

وأيضاً سياق الآية يدلّ علىٰ أنّ ما أُمر بتبليغه واقعة مهمّة كان الرسول ﷺ يحذر عن تبليغه ، ويخاف عن امتناع الناس عليه ، مع أنّه قد بلّغ ما أُنزل إليه في الحلال والحرام ، ولم يتداخله خوف في بيانهما ، ولم يكن ينبغي أن يتداخله خوف في بيانهما .

لاسيّما في أواخر حياته ، أو بعد دخوله المدينة ، وقد قوي الإسلام وكثر الأتباع من المهاجرين والأنصار ، فلم يكن الواقعة حكماً راجعاً

---

(١) المائدة : ٦٧ .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره [٢ : ٧٩] : هذه الآية من أواخر ما نزل بها ، والله أعلم .

إلى الدماء من القتل ونحوه ، أو الأعراض من النكاح والطلاق ، أوالمال، ولم يكن خائفاً من أحد يحتاج إلىٰ أن يعصمه اللّه من الناس ، كما يتداخله الخوف في هذه الواقعة .

وأيضاً قوله سبحانه ﴿ وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته ﴾ يدلّ علىٰ أنّ ما بلّغه من الأحكام قبل ذلك لا يكون تبليغاً ما لم يبلّغ هذا الذي أُنزل إليه ؛ لأنّه عماد الجميع وركنه ، وممّا يتوقّف عليه توقّف الشيء على الجزء الرئيسيّ ، كالرقبة في الإنسان ، فهو حكم واحد قد أُمر بتبليغه ، يساوي عدم تبليغه سلب التبليغ عمّا بلّغه قبل ذلك .

ومن ذلك يظهر أنّه ينبغي أن يكون آخر الأحكام ، أو قريباً منه ؛ لأنّه في أوّل بعثته لم يبلّغ أصلاً ، فلو كانت الآية نازلة فيه ـ أي: في أوّل بعثته ـ لم يكن للكلام معنى صحيح ، فإنّه نظير أن يقال لمن لم يأكل الخبز : كل الخبز وإلاّ فما أكلت الخبز .

وكذا لا معنىٰ له إن كان في وسط بعثته ، فإنّه لا يقال بلّغ ما أُنزل إليك قبلاً ، وإلاّ فما بلّغت ما مضىٰ ممّا بلّغته ، أو بلّغ ما ينزل إليك بعد ذلك وإلاّ فما بلّغت ما مضىٰ . فالأمر بالتبليغ في هذه الآية أمر بتبليغ حكم واحد في آخر عمره يساوي عدم تبليغه عدم تبليغ جميع ما بلّغه . وأنّ الذي أُمر بتبليغه كالرسالة ، وأنّه لو لم يبلّغه ما كان صنع شيئاً ولا قام بالرسالة ، فهو شاهد أنّ الأمر الذي أُمر بتبليغه يجري مجرىٰ نفسه الشريفة التي لا عوض عنه، وهذه صفة من يكون قائماً مقامه في العباد والبلاد ، وحافظاً لكلّ ما دعا إليه ودلّ عليه إلىٰ يوم المعاد .

فهذه الأُمور التي ذكرناها تدلّنا بوضوح لا يختلجه ريب أنّ ما أُنزل إليه الذي أُمر بتبليغه بهذه الشدّة ، وأنّه تعالىٰ يعصمه من الناس ، هو أهمّ

الواجبات الذي يتوقّف عليه إجراء سائر الأحكام ، وهو تبليغ من عيّنه اللّه سبحانه وتعالىٰ أن يكون خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله في جميع ماكان يتصدّى له من تعليم الكتاب وبيان الأحكام وسياسة العباد .

وانّ ذلك ممّا يحكم به بديهة العقل من أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله إذا لم يعيّن خليفته يكون الأُمّة بعد وفاته حيارىٰ ، ويضمحلّ الإسلام وأحكامه تدريجاً بسبب تلاعب من يتصدّىٰ للأمر كما ترىٰ ، ولم يعيّن إلاّ المعصوم ، وهو علي عليه السلام وبنوه عليهم السلام .

وقد ورد في أخبار أهل البيت عليهم السلام أنّ الآية نزلت في شأن خلافة علي عليه السلام . وبعض تفاسير العامّة فسّر الآية الشريفة بما لا يمكن تصديقه.

قال القاضي عبد الجبّار : ربّما قيل في قوله تعالىٰ ﴿ بلّغ ما أُنزل إليك ﴾ الآية ، معلوم أنّه إذا لم يبلّغ الرسالة فما فائدة التكرار ؟ وجوابنا : أنّ المراد بقوله « بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك » هو القرآن ، وبيّن أنّه إن لم يبلّغ القرآن لا يكون قد بلّغ الرسالة أجمع ، فليس ذلك بتكرار ، بل هو تنبيه علىٰ أنّ في جملة ما حمل من الرسالة ما لا ينطق القرآن به ، ومتىٰ لم يبلغ القرآن لم يتمّ إبلاغ الرسالة أجمع إلىٰ آخر كلامه(١) .

أقول : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يبلّغ ما ينزل عليه من القرآن ولا يخاف من أحد .

وقال في الكشّاف : « بلّغ ما أُنزل إليك » جميع ما أُنزل إليك وأيّ شيء أُنزل إليك ، غير مراقب في تبليغه أحداً ، ولا خائف أن ينالك مكروه « وإن لم تفعل » وإن لم تبلّغ جميعه كما أمرتك « فما بلّغت رسالته »

---

(١) تنزيه القرآن للقاضي عبد الجبّار ص ١٢١ .

وقرىء رسالاته ، فلم تبلّغ إذاً ما كلّفت من أداء الرسالات ، ولم تـؤدّ منها شيئاً قطّ ، وذلك أنّ بعضها ليس بأولىٰ بالأداء من بعض ، وإن لم تؤدّ بعضها فكأنّك أغفلت أداءها جميعها إلىٰ آخر كلامه[١].

أقول : إن أراد أنّ المراد ممّا أُنزل إليك جميع ما أُنزل إليك ، فهو تفسير بالرأي ؛ لأنّ النبيّ ﷺ قد بلّغ ما أنزل إليه من أوّل بعثه إلىٰ ما قبل نزول هذه الآية ، فلابدّ أن يكون المعنىٰ بلّغ هذا المقدار الذي أُنزل إليك قبل نزول هذه الآية ، وحينئذ إن كان هذا البعض كسائر ما أُنزل إليه ولم يكن له أهمّيّة توجب عدم جدوىٰ ما بلّغه قبل ذلك ، كـان نـظير أن يكـون الشخص مأموراً بأكل قرصة خبز جميعها ، فأكلها وبقي منها جـزء لم يأكله ، فيقال له : كل هذا البعض وإن لم تأكل ما أكلت جميع الخبز ، وهو توضيح الواضح .

قوله تعالىٰ ﴿ إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ لعلّه يدلّ علىٰ أنّ من لا يقبل منك ما أُمرت بتبليغه من أمر خلافة علي عليه‌السلام فهو من الكافرين وليس عليك هداهم . ويحتمل أن يكون النبيّ ﷺ خائفاً من أن لا يقبل أُمّته ذلك ، فيصيروا مرتدّين ، مع أنّه كان حريصاً علىٰ هدايتهم ، فقال الله تبارك وتعالىٰ : إنّ الكافرين لا يهتدون .

الآية السادسة : قوله تعالىٰ ﴿ ولتكن منكم أُمّة يـدعون إلى الخـير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأُولئك هـم المـفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات وأُولئك لهم

---

(١) الكشّاف ١ : ٦٣٠ .

عذاب عظيم ﴾[١] .أوجب الله تعالىٰ أن تكون أُمّة من جميع المكلّفين يفعلون ما ذكره ، فإنّ الخطاب متوجّه إلىٰ عامّة المكلّفين ، كسائر الخطابات القرآنيّة ، فيدلّ علىٰ لزوم أن يكون في كلّ زمان من أزمنة التكليف بعد هذا الخطاب من يدعو إلى الخير ، ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر . والمراد بالخير والمعروف والمنكر الواقعيّ منها ممّا يحتاج إليها المكلّفون ، ولا يتحقّق العلم بها إلاّ لمن يتلقّىٰ من الله تعالىٰ بالوحي وغيره ، أو يتلقّىٰ ممّن يوحي إليه ، وهو لا يكون إلاّ العالم بجميع ذلك المعصوم عن الخطأ ؛ لأنّ المخطىء جاهل .

فإذا وجب وجود من يكون متّصفاً بذلك ، وجب إطاعتهم على الجميع ، وإلاّ كان وجوب دعوتهم لغواً ، فيستفاد منه وجوب إحتفاف الناس حول من يفعل ذلك في كلّ زمان ، وهو الإمام المعصوم ، وهو يقتضي توحيد الناس أجمع علىٰ ذلك .

ويستفاد ذلك أيضاً من قوله تعالىٰ ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرّقوا ﴾ الآية ، ويتسائل علىٰ أنّه هل عملت هذه الاُمّة بعد نبيّها بهذه الآية ، أو تفرّقت كما ترىٰ ، فرقة شيعة يعتقدون أنّ علي بن أبي طالب عليه‌السلام إمام ينبغي أن يكون آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر ، وفاطمة الزهراء عليها‌السلام التي صرّحت نصوص الفريقين علىٰ أنّها ماتت غاضبة علىٰ أبي بكر وعمر في هذه الفرقة تعتقد إمامة بعلها علي عليه‌السلام . وفرقة تعتقد خلاف ذلك ، ولا ريب ولا شكّ أنّ أهل البيت عليهم‌السلام في الفرقة الناجية ، وأنّ غيرهم تفرّقوا من بعد ما جاءتهم البيّنات .

---

(١) آل عمران : ١٠٤ – ١٠٥ .

الفصل الخامس
في الآيات الدالّة على الصفات التي يعتبر توفّرها في النبيّ ﷺ و خليفته

تقدّم في الفصل السابق الآيات الدالّة علىٰ أنّ الدين قد أُكمل في زمان حياة النبيّ ﷺ وأنّ الإكمال لا يتحقّق إلاّ أن يعيّن اللّه من يكون خليفة النبيّ ﷺ، وأن يكون متّصفاً بجميع صفات النبيّ إلاّ النبوّة، ونذكر في هذا الفصل الآيات الدالّة علىٰ صفاتهما لنطبقها علىٰ من اتّصف بها.

العصمة :

الأوّل : أن لا يكونا كافرين بالله تعالىٰ في عمرهما ولو في لحظة، بل كان فيهما العصمة، بأن يكونا موحّدين مؤمنين معصومين من أوّل حياتهما إلىٰ وفاتهما ؛ لقوله تعالىٰ ﴿ وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربّه بكلمات فأتمّهنّ قال إنّي جاعلك للناس إماماً قال ومن ذرّيّتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾[1].

بيان : قوله سبحانه ﴿ إبتلىٰ ﴾ لعلّ معنى الإبتلاء وصول نقمة أونعمة إلىٰ شخص، يصير ما فيه بالقوّة من الإيمان أوالشقاوة فعليّاً، ينكشف

(١) البقرة : ١٢٤.

بسببها حاله لنفسه أو لغيره في اختياره ما يريد اللّه سبحانه ، أو اختياره ما تشتهيه نفسه . قوله تعالىٰ ﴿بكلمات﴾ قيل : فيها وجوه :

أحدها : ما تعبّد به من السنن الحنفيّة .

ثانيها : الأوامر والنواهي من ذبح الولد والهجرة وغيرهما .

ثالثها : أنّ الكلمات قوله تعالىٰ ﴿ إنّي جاعلك للناس إماماً قال ومن ذرّيّتي ﴾ بأن يكون قوله تعالىٰ ﴿ إنّي جاعلك للناس إماماً ﴾ بمنزلة البيان للكلمات ، وقوله تعالىٰ ﴿ قال ومن ذرّيّتي ﴾ بمنزلة البيان لقوله تعالىٰ ﴿ فأتمّهنّ ﴾ ولعلّه أنسب من المعنيين الأوّلين .

رابعها : أنّ الكلمات هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه، وهي التي لا تنفد وإن نفد البحر .

قوله تعالىٰ ﴿ فأتمّهنّ ﴾ قيل : فيه وجوه :

أحدها : أنّ التكاليف أو السنن وما شرع له قد قام بهنّ كلّهنّ ، كما قال ﴿ وإبراهيم الذي وفّىٰ ﴾[1] .

ثانيها : أنّه أتمّ – أي : ابراهيم عليه السلام – الإمامة التي قد نالها بأن طلبها لذرّيّته ، فأتمّها إلى الثاني عشر عجّل اللّه تعالىٰ فرجه .

ثالثها : أنّ اللّه سبحانه أتمّ الإمامة في ذرّيّته .

قوله تعالىٰ ﴿ قال إنّي جاعلك ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنّه بيان لقوله ﴿ وإذ ابتلىٰ ﴾ فإنّه مجمل يفسّره قوله ﴿ إنّي جاعلك ﴾ إلىٰ آخره ، أي : انّ اللّه تعالىٰ إبتلىٰ ابراهيم بالكلمات التي هي الإمامة ، فأكرمه بالإمامة .

---

(١) النجم : ٣٧ .

ثانيهما : أنّه ابتلي بالكلمات وأتمّهنّ ، ثمّ جعله إماماً[١].

قوله تعالىٰ ﴿ للناس إماماً ﴾ الإمام هو المتقدّم الذي يقتدىٰ به ويتّبع ويطاع في أوامره ونواهيه ، وهو يقتضي عموم العلم والعصمة ، فإنّ اللّه تعالىٰ لا يجعل الجاهل إماماً واجب الإتّباع ، بعد أن نهىٰ عن اتّباع الجهل في قوله تعالىٰ ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾[٢] وغيرها من الآيات ، وغير المعصوم مخطىء والمخطىء جاهل . ثمّ إنّ ابراهيم عليه‌السلام كان نبيّاً قبل أن يصير إماماً ، والنبيّ مقتدى الناس ، فهو إمام .

والدليل علىٰ كونه نبيّاً قبل ذلك أنّ ذبح إسماعيل عليه‌السلام كان من جملة ما ابتلاه الله به ، وإسماعيل عليه‌السلام قد ولد له في أخير أيّامه ؛ لقوله تعالىٰ ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل ﴾[٣] .

وأيضاً قوله « ومن ذرّيّتي » يدلّ علىٰ وجود الذرّيّة له ، وسأل الله تعالىٰ أن يجعل فيهم الإمامة ، فتدلّ الآية علىٰ أنّ الإمامة لها مراتب ، وقد نال مرتبة منها بالنبوّة ، ثمّ بلغ أعلىٰ مرتبة بعد ذلك ، ولعلّه مرتبة

---

(١) روى الصدوق في كمال الدين [ص ٢٠٤ - ٢٠٥] بإسناده عن المفضّل بن عمر ، عن الصادق جعفر بن محمّد عليهما‌السلام قال : سألته عن قول الله عزّوجلّ ﴿ وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربّه بكلمات فأتمّهنّ ﴾ ما هذه الكلمات ؟ قال : هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه ، وهو أنّه قال : أسألك بحقّ محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلاّ تبت عليّ ، فتاب الله عليه ، إنّه هو التوّاب الرحيم .

قلت له : يابن رسول الله فما يعني عزّوجلّ بقوله ﴿ فأتمّهنّ ﴾ قال : يعني فأتمّهنّ إلى القائم عليه‌السلام إثنا عشر إماماً ، تسعة من ولد الحسين الحديث . ورواه في البحار ٢٤ : ١٧٧ ح ٨ .

(٢) الاسراء : ٣٦ .

(٣) إبراهيم : ٣٩ .

أُولي العزم .

فإذا ثبت تحقّق هذه المرتبة في ذرّيّته ، فتدلّ الآية علىٰ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله من أُولي العزم ، وأنّ مرتبة الأئمّة المعصومين عليهم السلام مرتبة أُولي العزم ؛ لأنّ الله تعالىٰ يقول : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذرّيّتهما النبوّة والكتاب ﴾(١) وقال سبحانه : ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذرّيّته هم الباقين ﴾(٢) ولا ريب في أنّ الذرّيّة الباقية من نوح إبراهيم عليهما السلام : وأنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام من ذرّيّة إبراهيم عليه السلام .

قوله تعالىٰ ﴿ ومن ذرّيّتي ﴾ أي : إجعل من ذرّيّتي إماماً ، وقد استجاب اللّه دعاءه ، حيث قال سبحانه : ﴿ وجعلنا في ذرّيّته النبوّة والكتاب ﴾(٣). وسيأتي بيان أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام هم الواجدون للكتاب ، فإذا كانوا واجدين للكتاب ، فهم الأئمّة الذين قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ ومن ذرّيّتي ﴾ .

ثمّ إنّ الإمامة هي الرئاسة الدينيّة ، وذلك لا يكون للكافر والمشرك والعاصي حال الإمامة ، كان مؤمناً قبل ذلك ، أو كان كافراً من الأوّل ، وإبراهيم عليه السلام لا يطلب من اللّه سبحانه أن يجعل منصب الإمامة للعاصي حال كونه عاصياً ، فكونه مؤمناً متّقياً حال الإمامة معلوم .

فطلبه الإمامة لبعض ذرّيّته : إمّا أن يكون مخصوصاً بمن كان معصوماً في تمام عمره ، أو للأعمّ منه وممّن كان كافراً في بعض أيّام

---

(١) الحديد : ٢٦ .

(٢) الصافّات : ٧٥ - ٧٧ .

(٣) العنكبوت : ٢٧ .

عمره، وصار مؤمناً حال وصول منصب الإمامة إليه، فقال اللّه سبحانه: إنّ منصب الإمامة لا ينالها الظالم في بعض أيّام عمره، بل يختصّ بمن يولد موحّداً مؤمناً، كما قال عيسىٰ عليه السلام في المهد ﴿ إنّي عبد اللّه آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً ﴾ (١) علىٰ ما تقدّم بيانه.

قوله تعالىٰ ﴿ عهدي ﴾ المراد به الإمامة حتّىٰ يطابق الجواب السؤال (٢)، واحتمل بعضهم إرادة الدين، أي: لا ينال ديني الظالمين. أو

---

(١) مريم: ٣٠.

(٢) روى الكليني قدّس سرّه في الكافي [١: ١٧٤] بإسناده عن هشام بن سالم، قال: قال أبوعبد الله عليه السلام: الأنبياء والمرسلون علىٰ أربع طبقات: فنبيّ منبّأ في نفسه لا يعدو غيرها، ونبيّ يرىٰ في النوم ويسمع الصوت ولا يعاينه في اليقظة، ولم يبعث إلىٰ أحد وعليه إمام مثل ما كان إبراهيم علىٰ لوط عليهما السلام، ونبيّ يرىٰ في منامه ويسمع الصوت ويعاين الملك، وقد اُرسلوا إلىٰ طائفة قلّوا أو كثروا، كيونس قال الله ليونس: ﴿ وأرسلناه إلىٰ مائة ألف أو يزيدون ﴾ قال: يزيدون ثلاثين ألفاً وعليه إمام. والذي يرىٰ في نومه ويسمع الصوت ويعاين في اليقظة، وهو إمام مثل اُولي العزم، وقد كان إبراهيم عليه السلام نبيّاً وليس بإمام، حتّىٰ قال الله: ﴿ إنّي جاعلك للناس إماماً قال ومن ذرّيّتي ﴾ فقال الله: ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ من عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً. (ح ١).

وأيضاً بإسناده عن زيد الشحّام، قال: سمعت أباعبد الله عليه السلام يقول: إنّ الله تبارك وتعالىٰ إتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً، وإنّ الله إتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً، وإنّ الله إتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، وإنّ الله إتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً. فلمّا جمع له الأشياء، قال: ﴿ إنّي جاعلك للناس إماماً ﴾ قال: فمن عظمها في عين إبراهيم قال: ﴿ ومن ذرّيّتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ قال: يكون السفيه إمام التقيّ. (ح ٢).

وأيضاً بإسناده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: إنّ الله اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً، واتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً، واتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، واتّخذه خليلاً قبل أن يتّخذه إماماً، فلمّا جمع له هذه الأشياء - وقبض يده - قال له: يا إبراهيم إنّي جاعلك للناس إماماً، فمن عظمها في عين إبراهيم عليه السلام قال: يا ربّ

إطاعة اللّه ، أي : لا ينال طاعتي عدوّ لي . وهذه الإحتمالات بعيدة عن

ومن ذرّيّتي ، قال : لا ينال عهدي الظالمين . (ح ٤).

وروى أيضاً في الكافي [١ : ١٩٨ ح ١] بإسناد مرفوع ، عن عبد العزيز بن مسلم ، قال: كنّا مع الرضا عليه‌السلام بمرو ، فاجتمعنا في الجامع في بدء مقدمنا ، فأداروا أمر الإمامة ، وذكروا كثرة إختلاف الناس فيها ، فدخلت علىٰ سيّدي عليه‌السلام فأعلمته خوض الناس فيه ، فتبسّم عليه‌السلام ثمّ قال : يا عبد العزيز جهل القوم وخدعوا عن آرائهم ، إنّ الله عزّوجلّ لم يقبض نبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله حتّىٰ أكمل له الدين ، وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كلّ شيء ، بيّن فيه الحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، وجميع ما يحتاج إليه الناس كملاً ، فقال عزّوجلّ ﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾ وأنزل في حجّة الوداع وهي آخر عمره صلى‌الله‌عليه‌وآله ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ وأمر الإمامة من تمام الدين .

ولم يمض رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله حتّىٰ بيّن لأُمّته معالم دينهم ، وأوضح لهم سبيلهم ، وتركهم علىٰ سبيل القصد ، وأقام لهم عليّاً عليه‌السلام علماً وإماماً ، وما ترك لهم شيئاً يحتاج إليه الأُمّة إلاّ بيّنه ، فمن زعم أنّ الله عزّوجلّ لم يكمل دينه ، فقد ردّ كتاب الله ، ومن ردّ كتاب الله فهو كافر به .

هل يعرفون قدر الإمامة ومحلّها من الأُمّة فيجوز فيها إختيارهم ؟ إنّ الإمامة أجلّ قدراً وأعظم شأناً وأعلا مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم ، أو ينالوها بآرائهم ، أو يقيموا إماماً باختيارهم ، إنّ الامامة خصّ الله عزّوجلّ بها إبراهيم الخليل عليه‌السلام بعد النبوّة والخلّة مرتبة ثالثة ، وفضيلة شرّفه بها وأشاد بها ذكره ، فقال ﴿ إنّي جاعلك للناس إماماً ﴾ فقال الخليل عليه‌السلام سروراً بها ﴿ ومن ذرّيّتي ﴾ قال الله تبارك وتعالى ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ فأبطلت هذه الآية إمامة كلّ ظالم إلىٰ يوم القيامة وصارت في الصفوة . الحديث .

وروىٰ أيضاً فيه [١ : ٣٢١ ح ٣] بإسناده عن خيثمة ، قال : قال لي أبو عبد الله عليه‌السلام : يا خيثمة نحن شجرة النبوّة ، وبيت الرحمة ، ومفاتيح الحكمة ، ومعدن العلم ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة ، وموضع سرّ الله ، ونحن وديعة الله في عباده ، ونحن حرم الله الأكبر ، ونحن ذمّة الله ، ونحن عهد الله ، فمن وفا بعدنا فقد وفا بعهد الله ، ومن خفرها فقد خفر ذمّة الله وعهده .

ظاهر الكلام . وأبعد من الجميع إرادة عهد النبوّة ، وذلك لأنّ إبراهيم عليه السلام كان نبيّاً ، فوصل إلىٰ حدّ الإمامة ، ثمّ بعد وصوله إليه سأل هـذا الذي وصل إليه لبعض ذرّيّته .

قوله تعالىٰ ﴿ الظالمين ﴾ أي : الظالمين في بعض أيّام عمرهم ؛ لأنّ المسؤول جعل الإمامة للعادل وله فردان :

أحدهما : العادل في جميع عمره .

ثانيهما : الظالم في بعض أيّام عمره ، العادل حال الإمـامة ، فأخـبر سبحانه بأنّ الظالم في بعض أيّام عمره لا ينال عهد الإمامة حتّىٰ حال عدالته ؛ لصدق كونه ظالماً ولو في بعض أيّام عمره .

وفيه إشارة إلىٰ أنّ الإمامة تكون من إختيار الله تعالىٰ دون إخـتيار العباد ؛ لأنّهم إنّما يختارون علىٰ ظاهر الحال ، ولعلّ باطن من يختارونه يكون فيه ظلم وسوء الأعمال ، فإذا كان الظالم مطلقاً ممنوعاً من عهد الله تعالىٰ وإمامته ، فلم يبق طريق إلىٰ معرفة من ينال العـهد إلاّ مـمّن يطّلع علىٰ سريرته ، وهو الله تبارك وتعالىٰ .

ثمّ إنّ الظلم هو التعدّي عن الحدّ الشرعيّ أو العقليّ ، سواء كان عن تعمّد أو خطأ ، فمن قتل غيره خطأً كان ظالماً وإن لم يعاقب ، فغير الظالم بهذا المعنىٰ هو المعصوم ، واستعمل في القرآن الكريم في مـوارد لعـلّه يجمعها الظلم للنفس ، حتّىٰ أنّ الظلم بالغير متضمّن لظلم النفس : لأنّ جميع المعاصي ظلم بالنفس .

أحدها : الشرك والكفر ، قال سبحانه : ﴿ يا بنيّ لا تشـرك بـاللّه إنّ

الشرك لظلم عظيم ﴾[١] وقال سبحانه : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾[٢].

ثانيها : المعاصي ، قال سبحانه : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا اللّه فاستغفروا لذنوبهم ﴾[٣].

ثالثها : ما يوجب الوقوع في المشقّة ، ولعلّ منه قوله تعالىٰ ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾[٤] وقوله تعالىٰ ﴿ قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفرلنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين ﴾[٥] فلعلّ المراد وقوعهما في مشقّة الدنيا ، فإنّهما كانا في الجنّة يأكلان وكانا في راحة ، فقد خالفا اللّه في الأمر الإرشاديّ واُطلق عليها الغواية والعصيان . وقيل : إنّه من ترك الأولىٰ . وعلىٰ كلّ لم يشركا طرفة عين .

وقوله تعالىٰ ﴿ قال ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفرلي فغفرله إنّه هو الغفور الرحيم ﴾[٦] لعلّ المراد أنّه أوقع نفسه في مشقّة ؛ لأنّه لمّا دخل المدينة وقتل القبطيّ طلبه فرعون لأن يغتاله ﴿ فغفر له ﴾ أي : ستر له ونجّاه .

وقيل : إنّه من ترك الأولىٰ ، أو قاله إنقطاعاً إلى اللّه .

والدليل علىٰ أنّه ليس المراد العصيان قوله ﴿ فخرج منها خائفاً

---

(١) لقمان : ١٣ .

(٢) البقرة : ٢٥٤ .

(٣) آل عمران : ١٣٥ .

(٤) البقرة : ٣٥ .

(٥) الأعراف : ٢٣ .

(٦) القصص : ١٦ .

يترقّب قال ربّ نجّني من القوم الظالمين ﴾[١] دلّ علىٰ أنّ قتله القبطيّ لم يكن ذنباً ، وإلاّ لم يكونوا ظالمين بطلب القود . فالقوم كانوا ظالمين بأحد المعنيين الأوّلين ، وموسىٰ عليه السلام يكون ظلمه لنفسه بالمعنى الثالث ؛ لأنّ الأنبياء كانوا أئمّة للناس .

وحاصل ما استفيد من الآية الشريفه أنّ الإمامة لا تصلح لمن كان كافراً مشركاً عابداً للوثن في بعض أيّام عمره ، وأنّ دعاء إبراهيم عليه السلام أن يجعل اللّه سبحانه من ذرّيّته إماماً مخصوص بمن كان مؤمناً في تمام عمره . وقد استجاب اللّه سبحانه دعاءه ، وجرىٰ ذلك في أولاده إسماعيل وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم عليهم السلام إلىٰ أن انتهىٰ إلىٰ نبيّنا صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام ، ولا يكون في غير علي عليه السلام ممّن كان كافراً في بعض أيّام عمره .

وببيان أوضح الأقسام المتصوّرة أربعة :

الأوّل : الكافر أو العاصي في جميع أيّام عمره من أوّله إلىٰ آخره .

الثاني : المؤمن المطيع لله سبحانه وتعالىٰ من أوّل عمره إلىٰ آخره .

الثالث : الكافر أو العاصي في أوّل عمره ، ثمّ صار مؤمناً مطيعاً في آخره عمره .

الرابع : عكس الثالث .

ويتصوّر إمامة الثالث والرابع في حالين :

أحد هما : حال الكفر والعصيان .

ثانيهما حال الايمان والإطاعة لله سبحانه .

---

(١) القصص : ٢١ .

وإنّ إبراهيم عليه السلام الذي وصل إلىٰ منصب الإمامة بعد أن ابتلاه اللّه بالكلمات وأتمّها ، وكان في أرقىٰ مرتبة الإيمان بالله والتوحيد له ، لا يطلب الإمامة للقسم الأوّل ، وهو واضح ، ولا يطلب للثالث والرابع حال كفرهما وعصيانهما ، بل إنّما يطلب : إمّا للثاني فقط ، أوله وللثالث والرابع حال الايمان والإطاعة لله سبحانه . وحينئذٍ إن كانت الإمامة تصلح للثالث والرابع حال الإيمان والإطاعة ، فلا يناسب قوله تعالىٰ في الجواب ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ وإنّما يناسب الجواب إذا كانت الإمامة خاصّة بالقسم الثاني .

وبما ذكرنا اتّضح أنّ ما ذكره الرازي في الجواب عن استدلال الشيعة بالآية الشريفة على اعتبار العصمة في الإمام بقوله : كلّ ما ذكرتموه معارض بأنّه لو حلف لا يسلّم علىٰ كافر ، فسلّم علىٰ إنسان مؤمن في الحال إلاّ أنّه كان كافراً قبل بسنين متطاولة ، فإنّه لا يحنث ، فدلّ علىٰ ما قلناه ، ولأنّ التائب عن الكفر لا يسمّىٰ كافراً ، والتائب عن المعصية لا يسمّىٰ عاصياً ، فكذا القول في نظائره[1] .

في غير محلّه ؛ لأنّ قياس المورد بالمثال المذكور غير صحيح ، حيث أنّ ابراهيم عليه السلام لا يطلب للظالم حال تلبّسه بالظلم ، بل يطلب : إمّا للمؤمن في تمام عمره ، أو للمؤمن حال إيمانه وإن كان قبله ظالماً ، فلا يناسب الجواب بأنّ الإمامة لا تصل إلى الظالم حال كونه ظالماً .

فقد ظهر من هذا البيان أنّ الآية الكريمة تنفي خلافة الثلاثة المتقدّمة علىٰ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ؛ لأنّهم كانوا كافرين قبل أن

---

(١) التفسير الكبير ٤ : ٤٢ .

يسلموا . وتدلّ علىٰ ثبوت الإمامة لعلي عليه السلام ؛ لأنّه لو لم يكن ينالها أحد لا الظالم ولا غيره ، لأجاب الله تعالىٰ إبراهيم عليه السلام أنّه لا ينال عهدي أحداً لا خصوص الظالمين .

ثمّ إنّه قد تبيّن ممّا ذكرنا أنّ الأخبار التي رواها العامّة من طرقهم وزعموا دلالتها علىٰ خلافة الغاصبين منصب الخلافة ، مخالفة للقرآن ، فهي مفتعلة مكذوبة إن كان المراد بها وصول الإمامة التي هي رئاسة الدين والدنيا ، واستمرار خطّ النبوّة التي دلّت الآيات الشريفة المذكورة في الفصل المتقدّم علىٰ ثبوتها من زمان آدم عليه السلام إلى انقضاء التكليف إليهم ، نعم إن كان المراد بها وصول الإمارة الغصبيّة إليهم فهو لا ينكر .

الشهادة :

الثاني : من صفات خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه يشهد يوم القيامة عند الله علىٰ من عاصره من الإنس والجنّ علىٰ أعمالهم الخفيّة والجليّة ، كما يشهد النبيّ صلى الله عليه وآله عليها . والشهيد علىٰ كلّ فرد من الإنس والجنّ لابدّ أن تتوفّر فيه أُمور ثلاثة :

الأوّل : أن يكون عدلاً عند الله تعالىٰ حتّىٰ يقبل شهادته عنده .

الثاني : أن يكون عالماً بجميع الأحكام ، أُصولها وفروعها ، معصوماً لا يخطىء ؛ لأنّ المخطىء جاهل لا يقبل شهادة الجاهل .

الثالث : أن يكون مطّلعاً علىٰ معتقدات الإنس والجنّ في شرق الأرض وغربها وملكاتهم وأحوالهم وأعمالهم الصغيرة والكبيرة حتّىٰ يتحمّل الشهادة ، وهذا ما يعتقده الشيعة من أنّ خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب وأولاده المعصومين عليهم السلام شهداء كذلك ، كالنبيّ صلى الله عليه وآله كلّ علىٰ أهل عصره . وأمّا غيرهم ، فليس أئمّتهم كذلك ، ولا يعتقدون فيهم ذلك .

وينبغي ذكر بعض الآيات :

منها : قوله تعالىٰ ﴿ فكيف إذا جئنا من كلّ أُمّة بشهيد وجئنا بك علىٰ هؤلاء شهيدا ﴾(١) وقوله سبحانه ﴿ ويوم نبعث في كلّ أُمّة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً علىٰ هؤلاء ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء ﴾(٢) وآيات مشتملة علىٰ ذلك ، كقوله تعالىٰ ﴿ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً ﴾(٣) .

بيان : قوله تعالىٰ ﴿ إذا جئنا ﴾ أي : يوم القيامة ، بقرينة قوله تعالىٰ ﴿ وجيء بالنبيّين والشهداء وقضي بينهم بالحقّ وهم لا يظلمون ﴾(٤) .

قوله تعالىٰ ﴿ كلّ أُمّة ﴾ يشمل جميع الإنس والجنّ .

قوله تعالىٰ ﴿ بشهيد ﴾ الشهود والشهادة الحضور عند الشيء مع العلم به ، والمشاهدة له بالبصر أو البصيرة بتنزيلها منزلة البصر ، أو الأعلىٰ من البصر والبصيرة ، كشهود اللّه سبحانه الأشياء .

والشاهد هو الحاضر المعاين للشيء ، وكذلك الشهيد . ولعلّ الفرق بينهما أنّه لوحظ في الثاني حيثيّة الإتّصاف بالشهود .

ثمّ إنّ الحضور يكون بوجوه :

أحدها : حضور الأشياء جميعها عنده سبحانه حضور المخلوق عند خالقه ، وممكن الوجود المتوقّف وجوده علىٰ وجود الواجب ، قال

---

(١) النساء : ٤١ .

(٢) النحل : ٨٩ .

(٣) الفتح : ١٨ .

(٤) الزمر : ٦٩ .

سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إنّ اللّه كان علىٰ كلّ شيءٍ شهيدا ﴾[١] .

ثانيها : حضور موجود عند موجود آخر ، يبصره بعينه أو ببصيرته من دون أن يطّلع علىٰ جميع أعماله الجليّة والخفيّة ممّا يضمره في قلبه من الإيمان ومراتبه والنفاق ، وسائر الصفات الحسنة والرذيلة .

ثالثها : إحاطة مخلوق بجميع ما يعمله الإنس والجنّ وإن لم يكن حاضراً عنده حسّاً ، ويصدق الشاهد والشهيد علىٰ مثله .

ثمّ إنّه ليس المراد بالشهيد الملائكة ؛ لقوله تعالىٰ في الآية الثانية ﴿ من أنفسهم ﴾ والمراد به أحد إحتمالين :

الأوّل : أن يكون المراد به نبيّ كلّ اُمّة حتّىٰ بعد وفاته إلىٰ أن يأتي نبيّ آخر ؛ لأنّ الأنبياء عليهم‌السلام أحياء عند الله تعالىٰ ، فإنّهم أفضل من حيث النبوّة من الشهداء الذين هم أحياء عند ربّهم يرزقون ، لكن ربما ينافيه قوله تعالىٰ حكاية عن عيسىٰ عليه‌السلام ﴿ وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلمّا توفّيتي كنت أنت الرقيب عليهم وأنت علىٰ كلّ شيء شهيد ﴾[٢] فإنّه نفىٰ كونه شهيداً عليهم بعد أن توفّاه الله من بينهم .

الثاني : أن يكون المراد به عدل حيّ موجود في كلّ زمان .

قال في التبيان في تفسير الآية الشريفة ، وقيل : هؤلاء الشهود هم عدول الآخرة الذين لا يخلو زمان منهم يشهدون على الناس بما عملوا من عصيانهم[٣] إنتهىٰ .

قلت : ولعلّه يؤيّده قوله تعالىٰ ﴿ ولكلّ اُمّة رسول فإذا جاء رسولهم

---

(١) النساء : ٣٣ .

(٢) المائدة : ١١٧ .

(٣) التبيان ٨ : ١٨٤ .

قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾[١] . ثمّ إنّ الشهادة المذكورة تتوقّف على العلم بجميع أعمال المشهود له وعليه ، وهو يحصل بالعلم بالكتاب الذي هو تبيان لكلّ شيء ، ولعلّه الوجه في تذييل الآية الثانية المذكورة بقوله سبحانه ﴿ ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء ﴾ .

ويدلّ عليه أيضاً قوله تعالىٰ ﴿ قل كفىٰ باللّه شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾[٢] حيث جعل الشاهد اللّه ومن يعلم الكتاب الذي هو تبيان لكلّ شيء ، وقد أثبتنا أنّ الذين عندهم علم الكتاب هم النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام فهم الشهداء كلٌّ في قرنه[٣] .

---

(١) يونس : ٤٧ .

(٢) الرعد : ٤٣ .

(٣) روى الكليني قدس سره في الكافي [١ : ١٩٠] بإسناده عن سماعة ، قال : قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ ﴿ فكيف إذا جئنا من كلّ أُمّة بشهيد وجئنا بك علىٰ هؤلاء شهيداً ﴾ قال : نزلت في أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله في كلّ قرن منهم إمام منّا شاهد عليهم ، ومحمّد صلى الله عليه وآله شاهد علينا . (ح ١) .

وروىٰ أيضاً بإسناده عن بريد العجلي ، قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ ﴿ وكذلك جعلناكم أُمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ قال : نحن الأُمّة الوسطىٰ ونحن شهداء الله علىٰ خلقه ، وحججه في أرضه ، قلت : قول الله عزّوجلّ ﴿ ملّة أبيكم إبراهيم ﴾ قال : إيّانا عنىٰ خاصّة ﴿ هو سمّاكم المسلمين من قبل ﴾ في الكتب التي مضت ﴿ وفي هذا ﴾ القرآن ﴿ ليكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ فرسول الله صلى الله عليه وآله الشهيد علينا بما بلّغنا عن الله عزّوجلّ ، ونحن الشهداء على الناس ، فمن صدّق صدّقناه يوم القيامة ، ومن كذّب كذّبناه يوم القيامة . (ح ٢) .

وروىٰ أيضاً بإسناده عن معلّى بن محمّد ، عن أحمد بن عمر الحلاّل ، قال : سألت أباالحسن عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ ﴿ أفمن كان علىٰ بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه ﴾ فقال : أمير المؤمنين صلوات الله عليه الشاهد علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ورسول الله صلى الله عليه وآله علىٰ بيّنة من ربّه . (ح ٣) .

وقد ظهر ممّا بيّنا أنّ المستفاد من الآيات الشريفة أُمور :

أحدها : أنّ الشهيد عالم بجميع أعمال العباد خيرها وشرّها ، وهو موقوف على العلم بجميع أحكام الدين أُصولاً وفروعاً ، الأحكام الفرديّة والإجتماعيّة ، السياسيّة والأخلاقيّة وغيرها ، معصوماً عن الخطأ ؛ لأنّ المخطىء جاهل .

ثانيها : عصمته ؛ لأنّ قبول شهادته في كلّ شيء يتوقّف علىٰ عدم خطئه ، فيكون معصوماً .

ثالثها : الحياة المادّيّة الدنيويّة ؛ لقوله تعالىٰ حكاية عن عيسىٰ ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلمّا توفّيتني كنت أنت الرقيب

ورویٰ أيضاً بإسناده عن بريد العجلي ، قال : قلت لأبي جعفر عليه‌السلام : قول الله تبارك وتعالىٰ ﴿ وكذلك جعلناكم أُمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ قال : نحن الأُمّة الوسط ، ونحن شهداء الله تبارك وتعالىٰ علىٰ خلقه ، وحججه في أرضه ، قلت : قوله تعالىٰ ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربّكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون * وجاهدوا في الله حقّ جهاده هو اجتباكم ﴾ قال : إيّانا عني ونحن المجتبون ، ولم يجعل الله تبارك وتعالىٰ في الدين من حرج ، فالحرج أشدّ من الضيق ﴿ملّة أبيكم إبراهيم ﴾ إيّانا عنىٰ خاصّة و ﴿ سمّاكم المسلمين ﴾ الله سمّانا المسلمين ﴿من قبل ﴾ في الكتب التي مضت ﴿ وفي هذا ﴾ القرآن ﴿ ليكون الرسول عليكم شهيداً وتكونوا شهداء على الناس ﴾ فرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله الشهيد علينا بما بلّغنا عن الله تبارك وتعالىٰ ، ونحن الشهداء على الناس ، فمن صدّق يوم القيامة صدّقناه ، ومن كذّب كذّبناه . (ح ٤).

وروىٰ أيضاً بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي ، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه قال : إنّ الله تبارك وتعالىٰ طهّرنا وعصمنا ، وجعلنا شهداء علىٰ خلقه ، وحجّته في أرضه ، وجعلنا مع القرآن ، وجعل القرآن معنا ، لا نفارقه ولا يفارقنا . (ح ٥).

عليهم وأنت علىٰ كلّ شيء شهيد ﴾[١] وهو من أُولي العزم ، فلعلّ سائر الأنبياء كذلك ، نعم أنّ نبيّنا ﷺ شاهد بعد وفاته أيضاً ، كما يدلّ عليه الأخبار . ولا ينافيه قوله تعالىٰ ﴿ وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾[٢] لأنّه كما يحتمل رجوع ضمير موته إلىٰ أهل الكتاب يعني اليهود ، كذلك يحتمل رجوعه إلىٰ عيسىٰ عليه‌السلام ، أي : اليهود يؤمنون بعيسىٰ بعد نزوله من السماء في زمان الحجّة عجّل الله فرجه .

وجميع ما ذكر لا يتمّ إلاّ علىٰ ما يعتقده الشيعة الإماميّة من أنّ النبيّ ﷺ شهيد علىٰ جميع العباد فى زمان حياته ، وأنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه‌السلام بعد وفاة النبيّ ﷺ ، وهكذا أولاده المعصومون عليهم‌السلام شهداء كلّهم في زمانهم ، وبعد وفاة الإمام الحسن العسكري عليه‌السلام يكون الشهيد الحجّة الثاني عشر عليه‌السلام الموجود الغائب عن الأنظار وسيظهر ويملأ الأرض عدلاً وقسطاً .

نعم إنّ أخبارنا تدلّ علىٰ أنّ النبيّ ﷺ وخلفاءه الأئمّة المعصومين عليهم‌السلام شهداء في جميع الأزمنة ، وربّما يساعده قوله تعالىٰ ﴿ وقل اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون إلىٰ عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

والعمل يشمل العمل الجوارحي والعمل القلبي ، من الإيمان والكفر والحسد والكبر وغيرها ، فلابدّ أن يكون من يرىٰ العمل مطّلعاً علىٰ

---

(١) المائدة : ١١٧ .

(٢) النساء : ١٥٩ .

جميع ذلك . وممّا يدلّ علىٰ أنّ المراد من المؤمنين طائفة خاصّة من المؤمنين أنّ الخطاب في عملكم : إمّا متوجّه إلىٰ خصوص المشافهين ، أو عامّ لجميع المكلّفين إلىٰ يوم الدين . وعلىٰ كلا التقديرين لابدّ أن يكون الراؤون غير المرئيّين .

ومنها : قوله سبحانه ﴿ وكذلك جعلناكم أُمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليكم ﴾[(١)] .

بيان : قوله تعالىٰ ﴿ وكذلك ﴾ أي : وهكذا ﴿ جعلناكم ﴾ أي : جعلاً تكوينيّاً ؛ لأنّه المناسب للتعليل في قوله تعالىٰ ﴿ لتكونوا شهداء ﴾ فإنّ الوسط من يكون وسطاً عملاً ، لا من كان مكلّفاً بأحكام وسط .

و« كُم » إمّا عامّ إستغراقيّ لكلّ فرد فرد ممّن أسلم لساناً ، وإمّا خاصّ بالمؤمن العادل ، وإمّا خاصّ بالأئمّة المعصومين عليهم السلام .

والمعنى الأوّل غير صحيح ؛ لأنّ المنافقين ورؤساء الضلال والمرتدّين ليسوا وسطاً . وكذا المعنى الثاني .

أمّا أوّلاً ، فلأنّ الوسط هو العدل واقعاً من جميع الجهات في الإعتقاد والحال والأعمال الإجتماعيّة والفرديّة ، وهو موقوف على العلم بجميع ذلك غير مخطىء فيها ؛ لأنّ المخطىء منحرف عن الوسط وإن كان معذوراً ، فلا يتحقّق الوسط بقول مطلق إلاّ في المعصوم .

وثانياً : أنّ الشهادة تقتضي العلم بفعل المشهود له أو عليه ، والمؤمن العادل لا يعلم حال الناس في خلواتهم ولا ما في نفوسهم من الإيمان والنفاق ، فيتعيّن المعنى الثالث .

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

قوله تعالىٰ ﴿ شهداء ﴾ قد مرّ معناه .

قوله تعالىٰ ﴿ على الناس ﴾ الناس إسم جمع علىٰ ما قيل ، واللام يفيد العموم ، أي : جميع الجماعات من الإنسان . والمحتمل فيه أُمور :

أحدها : جميع الناس ممّن آمن برسول اللّه ﷺ ومن لم يؤمن ، فلابدّ أن يكون الشاهد فرداً خاصّاً لئلاّ يلزم إتّحاد الشاهد والمشهود .

ثانيها : اليهود والنصارىٰ وغيرهم ممّن لم يؤمن برسول اللّه ﷺ، قاله إبن كثير .

ثالثها : المكذّبون للأنبياء ، فإنّ أُممهم المطيعون يشهدون لهم علىٰ أُممهم المكذّبين لهم بأنّهم قد بلّغوا رسالاتهم . ومقتضىٰ إطلاق الناس لجميع الناس هو المعنى الأوّل .

قوله تعالىٰ ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ يحتمل أن يكون المخاطب أحد ثلاثه :

الأوّل : الشهداء ، أي : يكون الرسول شهيداً على الشهداء ، وهم الأُمّة الوسط .

الثاني : جميع الناس ، فيكون الرسول شهيداً علىٰ جميع الناس في جميع الأعصار .

الثالث : المشافهون للخطاب ، وهم المعاصرون للرسول ﷺ .

ومنها : قوله تعالىٰ ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربّكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون * وجاهدوا في اللّه حقّ جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم

وتكونوا شهداء على الناس ﴾[١].

قوله تعالىٰ ﴿ يا أيّها الذين ﴾ الخطاب عامّ، ولكن يمكن تقييده ببعض المؤمنين، إن كان الخطابات المذكورة بعد ذلك متّحدة مع هذا الخطاب. ويمكن إبقاؤه على العموم، وتخصيص الخطاب في قوله تعالىٰ ﴿ واجتباكم ﴾ ببعض المؤمنين.

قوله تعالىٰ ﴿ هو اجتباكم ﴾ الإجتباء لغة: الإختيار، كما في لسان العرب عن إبن سيدة: واجتبى الشيء إختاره، إلىٰ أن قال: وقوله تعالىٰ ﴿ وكذلك يجتبيك ربّك ﴾ قال الزجّاج: معناه وكذلك يختارك ويصطفيك، وهو مشتقّ من جبيت الشيء إذا خلصته لنفسك، ومنه جبيت الماء في الحوض، قال الأزهري: وجباية الخراج جمعه وتحصيله مأخوذ من هذا[٢] إنتهىٰ.

واستعمل في القرآن في شأن الأنبياء، كقوله تعالىٰ في وصف إبراهيم عليه السلام ﴿ شاكراً لأنعمه اجتباه ﴾[٣] وقوله تعالىٰ في آدم عليه السلام ﴿ ثمّ اجتباه ربّه فتاب عليه ﴾[٤] وقوله تعالىٰ في يونس عليه السلام صاحب الحوت ﴿ فاجتباه ربّه فجعله من الصالحين ﴾[٥] وقوله تعالىٰ ﴿ ولكن اللّه يجتبي من رسله من يشاء ﴾[٦] وقوله تعالىٰ في يوسف عليه السلام ﴿ وكذلك

---

(١) الحجّ: ٧٧ - ٧٨.

(٢) لسان العرب ٢: ١٧٥ ط بيروت.

(٣) النحل: ١٢١.

(٤) طه: ١٢٢.

(٥) القلم: ٥٠.

(٦) آل عمران: ١٧٩.

يجتبيك ربّك ويعلّمك ﴾[١] وقوله تعالىٰ في الأنبياء عليهم السلام ﴿ ومن آبائهم وذرّيّاتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم ﴾[٢] وقوله تعالىٰ ﴿ ومن ذرّيّة إبراهيم وإسرائيل وممّن هدينا واجتبينا ﴾[٣].

وبملاحظة هذه الآيات يظهر أنّ الإجتباء يختصّ ببعض المؤمنين ، وهم الأئمّة المعصومون عليهم السلام ، فالإجتباء بحقيقة معناه يساوق جعل العبد مخلصاً مخصوصاً باللّه لا نصيب لغيره تعالىٰ فيه ، وهذه صفة لا توجد إلاّ في المعصومين .

قوله تعالىٰ ﴿ ما جعل عليكم ﴾ يعني : أنّ الأحكام المجعولة عليكم لا حرج فيها ، فمن وطّن نفسه على العمل بها لم يكن عليه حرج ، أو أنّه لم يجعل عليكم حكماً حرجيّاً ، فلو فرض صيرورة بعض الأحكام بالنسبة إلىٰ بعض المكلّفين حرجيّاً لم يجب عليه ، لكن الإحتمال الأوّل غير بعيد .

قوله تعالىٰ ﴿ ملّة أبيكم ﴾ إن كان المراد الأب الروحي ، فيمكن شمول الخطاب لجميع المؤمنين . وأمّا إن كان المراد الأب الجسمي ، فيختصّ بذرّيّته ، ولعلّ المراد ذرّيّته من إسماعيل عليه السلام بقرينة إتّحاد المخاطبين في أبيكم وسمّاكم .

قوله تعالىٰ ﴿ هو سمّاكم المسلمين ﴾ لعلّه إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ فيما حكاه عن إبراهيم عليه السلام ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت السميع العليم ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن

---

(١) يوسف : ٦ .

(٢) الأنعام : ٨٧ .

(٣) مريم : ٥٨

ذرّيّتنا أُمّة مسلمة لك ﴾(١) فإنّهما طلبا من اللّه أن يجعل من ذرّيّتهما أُمّة مسلمة ، فإبراهيم عليه السلام سمّاهم مسلمين . ويحتمل أن يكون المعنىٰ اللّه سمّاكم المسلمين من قبل نزول القرآن وفي هذا القرآن .

والمراد من الإسلام ما قاله نوح عليه السلام ﴿ وأُمرت أن أكون من المسلمين ﴾(٢) لا ما قيل للأعراب حيث ﴿ قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾(٣) .

قوله تعالىٰ ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴾ أي : على الذين اجتباهم الله ، وهم المعصومون بالبيان المتقدّم .

ومنها : قوله تعالىٰ ﴿ والذين آمنوا باللّه ورسله أُولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربّهم لهم أجرهم ونورهم ﴾(٤) .

قوله تعالىٰ ﴿ والشهداء ﴾ إن كان المراد بهم الشهيد من كلّ أُمّة ، فهم الأئمّة المعصومون عليهم السلام ، وإن كان المراد المؤمنين حقّاً ، فهم شهداء عند اللّه سبحانه علىٰ أنّ الدين حقّ قد بلّغهم الإمام المعصوم عليه السلام(٥) .

---

(١) البقرة : ١٢٧ .

(٢) النمل : ٩١ .

(٣) الحجرات : ١٤ .

(٤) الحديد : ١٩ .

(٥) روى الكليني قدس سره في الكافي [١ : ١٨١ ح ٥] باسناده عن ذريح ، قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الأئمّة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : كان أمير المؤمنين عليه السلام اماماً ، ثمّ كان الحسن عليه السلام اماماً ، ثمّ كان الحسين عليه السلام اماماً ، ثمّ كان علي بن الحسين عليهما السلام اماماً ، ثمّ كان محمّد بن علي عليهما السلام اماماً ، من أنكر ذلك كان كمن أنكر معرفة الله تبارك وتعالى ومعرفة رسوله صلى الله عليه وآله ، ثمّ قال : قلت : ثمّ أنت جعلت فداك ، فأعدتها عليه ثلاث مرّات ، فقال لي : انّي انّما حدّثتك لتكون من شهداء الله تبارك وتعالى في أرضه .

ويحتمل إرادة كون المؤمنين يشهد بعضهم علىٰ بعض أنّه مؤمن .

الأعلميّة :

الثالث : أن يكونوا أعلم الناس[(١)] ؛ لقوله تعالىٰ ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[(٢)] لعلّ المعنىٰ عدم إستواء العلم والجهل ، بل إنّ العلم مقدّم على الجهل في كلّ ما ينبغي التقدّم ، والعالم يتقدّم لعلمه ، فإن قدّم الجاهل على العالم وصار متبوعاً ومطاعاً فهو قبيح منكر في العقول .

---

(١) روى العلاّمة المجلسي تتمّة في البحار [٢٤ : ١١٩ – ١٢٢] عن بصائر الدرجات ، بإسناده عن جابر ، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّوجلّ ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يتذكّر أُولي الألباب ﴾ فقال : نحن الذين نعلم وعدوّنا الذين لا يعلمون ، وشيعتنا أُولي الألباب .

ثمّ أورد عدّة أخبار في هذا المعنىٰ في الباب ، ثمّ قال : إعلم أنّ هذه الآية من أعظم الحجج علىٰ إمامة أئمّتنا عليهم السلام للإتّفاق علىٰ كونهم أعلم أهل زمانهم ، لاسيّما بالنسبة إلى الخلفاء المعاصرين لهم .

(٢) الزمر : ٩ .

الفصل السادس

في الآيات الدالّة علىٰ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله و الأئمّة المعصومين عليهم السلام هم الواجدون لكتاب اللّه بالوجود العيني فهم متّصفون بجميع أوصاف الكتاب

وهذا الفصل داخل في الفصل المتقدّم ؛ لأنّ ذلك من الأوصاف التي اعتبرها الكتاب فيهم ، لكن أفردناه لعظم شأنه ، وهي عدّة آيات :

الآية الأُولىٰ : قوله تعالىٰ ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلاّ الكافرون * وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون * بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أُوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون ﴾[1] .

قد أخبر سبحانه وتعالىٰ عن أنّ الكتاب المنزل على النبيّ صلى الله عليه وآله بما له من الصفات من كونه تبياناً لكلّ شيء ونوراً وذكراً وغيرها من الصفات ، له وجود عينيّ علميّ في صدور الذين أُوتوا العلم ، ولم يخصّه بصدر النبيّ صلى الله عليه وآله .

بيان : قوله سبحانه ﴿ أنزلنا إليك الكتاب ﴾ قال في الجمهرة : وقد

---

(١) العنكبوت : ٤٧ – ٤٩ .

كتب الكتاب يكتبه كتباً إذا جمع حروفه ، وأصل الكتب ضمّك الشيء إلى الشيء[١] .

وقال في تهذيب اللغة : وقال شمر : الكتب جمعك بين الشيئين[٢] .

وقال في المقاييس : يدلّ علىٰ جمع شيء إلىٰ شيء ، من ذلك الكتاب والكتابة[٣] .

أقول : ولعلّ المعنى الجامع هو مجموعة من الأُمور في محلّ علىٰ طبق ما يلائمها ، ولا يختصّ بالمنقوش في القرطاس ونحوه ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أُولئك كتب في قلوبهم الايمان ﴾[٤] وقال سبحانه : ﴿ كتب عليه أنّه من تولاّه فإنّه يضلّه ويهديه إلىٰ عذاب السعير ﴾[٥] .

لعلّ المعنىٰ كتب على الشيطان علىٰ نحو يناسب ذلك ، والتعبير بالكتابة للدلالة على الثبوت والتحقّق ، وإذا أُريد التوثّق من شيء كتب ، ولعلّ إستفادة اللزوم من الكتابة في أمثال قوله تعالىٰ ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾[٦] من هذه الجهة ، لا لوضع الكتابة لمعنى الوجوب واللزوم .

ويحتمل أن يكون المعنىٰ أنّ ذات الشيطان كتابة ذلك ، كما قيل : إنّ الكتابة هو إثبات المكتوب في رقّه اللائق به وإظهاره في ذلك ، فالصورة تكتب في المرآة لأنّها تنقش فيها ، وصورة العمل بخصوصيّات المكان

---

(١) جمهرة اللغة ١ : ١٩٦ .

(٢) تهذيب اللغة ١٠ : ١٥٠ .

(٣) مقاييس اللغة ٥ : ١٥٨ .

(٤) المجادلة : ٢٢ .

(٥) الحجّ : ٤ .

(٦) البقرة : ١٨٣ .

والزمان والفاعل تنقش في خيال من رآها ، والقلم قد كتب بمداد من صفتك وعملك ، والمكان والزمان صورة العمل في اللوح المحفوظ ، فلا يضمحلّ من الوجود ، والنجّار قد كتب السرير بمداد الخشب والهيئة الخاصّة ، فالسرير كتاب .

أقول : وورق الأشجار كتاب ، والإنسان كتاب ، قال :

وتزعم أنّك جسم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين ... الذي بأحرفه تظهر المضمر

قوله سبحانه ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب ﴾ قيل : في المراد بهم وجوه :

الأوّل : أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ .

الثاني : المسلمون .

الثالث : محمّد وآله عليهم السلام[1] ويؤيّده قوله تعالىٰ ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته ﴾ المأوّل بالأئمّة عليهم السلام[2]؛ لأنّ حقّ تلاوة القرآن موقوف علىٰ فهم غوامضه والعمل بمضامينه ، وهو مختصّ بالأئمّة عليهم السلام .

قوله تعالىٰ ﴿ يؤمنون به ﴾ أي : بالكتاب ، أو بالنبيّ صلى الله عليه وآله .

قوله تعالىٰ ﴿ ومن هؤلاء ﴾ فيه إحتمالان :

---

(١) روىٰ في البحار [٢٣ : ١٨٨ ح ١] عن أبي الجارود ، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّوجلّ ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ﴾ قال : هم آل محمّد . وروىٰ نحوه عن أبي الورد عن أبي جعفر عليه السلام .

(٢) روىٰ في الكافي [١ : ٢١٥ ح ٤] عن أبي ولاّد ، قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته يؤمنون به ﴾ قال : هم الأئمّة عليهم السلام . ورواه في البحار ٢٣ : ١٨٩ - ١٩٠ ح ٦ .

الأوّل : كفّار مكّة .

الثاني : أهل الكتاب .

قوله تعالىٰ ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك ﴾ معناه : أنّك ما كنت تقرأ الكتاب وما كنت تكتب ، لا أنّك لا تعرف أن تقرأ ولا تعرف أن تخطّ ، بل كان يعرف ذلك ، لكنّه لم يفعل حتّىٰ يكون القرآن معجزة خالدة له .

قوله تعالىٰ ﴿ بل هو آيات ﴾ أي : الكتاب المتّصف بالأوصاف التي يأتي بيانها في الفصل الآتي له وجود عينيّ خارجيّ في صدور الذين أُوتوا العلم ، وهذا الوجود العينيّ مختصّ بالنبيّ ومن يتلوه علماً وعملاً وعصمة ؛ لأنّ سائر وجوداته ليست متّصفة بالصفات التي يأتي ذكرها ، فإنّ وجود المنقوش في القراطيس ونحوها يعرفه كلّ من عرف الخطّ ، مسلماً كان أو كافراً ، عربيّاً أو عجميّاً .

ووجوده المقروء يعرفه كلّ من عرف القراءة ، حتّى الأطفال يقرؤون القرآن كما يقرؤون غيره من الكتب ، ووجوده علىٰ ظهر القلب يحفظه كلّ من أراد حفظه : إمّا من الخطّ المنقوش ، أو من تبعيّة قارٍ يقرأه ، والأطفال يقرؤون القرآن عن ظهر القلب في حين أنّهم لا يعرفون الخطّ .

وله وجود في قلوب المؤمنين المتّقين العالمين به ، لكن ليس له الأوصاف التي يأتي بيانها ، فإنّ من أوصافها ما ذكره الله تعالىٰ في قوله ﴿ ولو أنّ قرآناً سيّرت به الجبال أو قطّعت به الأرض أو كلّم به الموتىٰ ﴾(١) أي : كان هذا القرآن ، فإنّ هذه الصفة وغيرها لا توجد من

---

(١) الرعد : ٣١ .

المؤمنين المتّقين.

قوله تعالىٰ ﴿ في صدور ﴾ يدلّ علىٰ صدور جماعة لا صدر واحد، فإنّه لا شكّ في أنّ صدر نبيّنا صلى الله عليه وآله مشتمل لحقيقة الكتاب مع تمام أوصافه، والصدور الأُخر التي تشتمل عليه لابدّ أن تكون كصدر النبيّ صلى الله عليه وآله علماً وعملاً وعصمة، وهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأولاده المعصومون عليهم السلام.

وللعامّة تفسيرات حول الآية:

الأوّل: أنّ الكتاب ليس عبارة عن المقروء، ولا عن النقش في القرطاس ونحوه الذي هو الخطّ، بل انّه آيات ودلالات واضحات في صدور العلماء، وهم النبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنون؛ لأنّهم حفظوه ورعوه ورسخ معناه في قلوبهم.

قال إبن كثير: إنّ هذا القرآن آيات بيّنة واضحة الدلالة على الحقّ أمراً ونهياً وخبراً يحفظه العلماء، يسّر اللّه عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً، كما قال تعالىٰ: ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر ﴾[1].

أقول: هذا التفسير لا يساعده ظاهر الآية؛ لأنّ قوله « بل » إضراب عن سابقه، وهو أن يكون الكتاب عبارة عن قراءته من القرطاس وحفظه عن ظهر القلب من السماع من قارٍ يقرأه، أو من الخطّ المنقوش، أو كونه راسخاً في قلوب المؤمنين، فإنّ جميع ذلك لا يجعل الكتاب آية وعلامة علىٰ وجود الله تعالىٰ، بل هو علامات علىٰ وجود الله محلّها صدر النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٤١٧.

الثاني : أنّ معنىٰ كون الكتاب في صدور الذين أُوتوا العلم ، أنّه أُعطي هذه الأُمّة الحفظ ، ومن كان قبلها لا يقرؤون الكتاب إلاّ نظراً ، فإذا طبّقوه لم يحفظوا ما فيه إلاّ اليسير .

قال في الكشّاف : بل القرآن آيات بيّنات في صدور العلماء به وحفّاظه ، وهما من خصائص القرآن كون آياته بيّنات الإعجاز ، وكونه محفوظاً في الصدور يتلوه أكثر الأُمّة ظاهراً ، بخلاف سائر الكتب ، فإنّها لم تكن معجزات وما كانت تقرأ إلاّ من المصاحف [(١)] إنتهىٰ .

وحاصل كلامه أنّ القرآن معجزة في فصاحته ويحفظ في الصدور ، وليس له شأن آخر .

وفيه أنّ الحفظ عن ظهر القلب لا يكون من خصائص العلماء ، فإنّ الأطفال الصغار ومن لا يفهم اللغة العربيّة يحفظون القرآن ، فلا يتعيّن حفظه في صدور الذين أُوتوا العلم ، مع أنّ دعوىٰ إختصاص القرآن بكونه محفوظاً ومقروءً عن ظهر القلب دون سائر الكتب ممّا يكذّبه الوجدان ؛ لأنّ أشعار العرب قابلة للحفظ وتقرأ عن ظهر القلب .

والثالث : أن يكون الضمير في قوله « بل هو » راجعاً إلى النبيّ ﷺ أي : كونه أُمّيّاً لا يقرأ ولا يكتب ، آيات بيّنات في صدور العلماء من أهل الكتاب ؛ لأنّه منعوت بهذه الصفة في كتبهم .

قال إبن كثير : العلم بأنّك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطّه بيمينك آيات بيّنات في صدور الذين أُوتوا العلم من أهل

---

(١) الكشّاف ٣ : ٤٥٨ .

الكتاب [١].

قلت : كان الأنسب علىٰ هذا المعنىٰ أن يفرد قوله « آيات » لأنّ كون النبيّ ﷺ أُمّياً آيةٌ واحدة لا آيات ، فالضمير إن كان يرجع إلى النبيّ ﷺ، فهو آية بيّنة . وإن كان يرجع إلى العلم بأنّك لا تقرأ ولا تكتب، فهو أيضاً آيةٌ بيّنة .

وقد تبيّن أنّ هذه المعاني التي ذكروها غير صحيحة ، بل الصحيح ما ذكرناه ، أي : ليس الكتاب من المقروء ، ولا من الخطّ المكتوب في القرطاس ، ولا ما رسخ في قلوب المؤمنين ممّا يعملون به ، بل الكتاب له وجود عينيّ ، وهو آيات في صدور الذين أُوتوا العلم ، فمرتبة منه عند الذي عنده علم من الكتاب ، ومرتبة عالية منه عند الأنبياء عليهم السلام ، وعند نبيّنا محمّد ﷺ جميع مراتبه ، وكذا الأئمّة المعصومين الهداة عليهم السلام ، بجميع مراتب الهداية التي لا تحصل إلاّ بعد العلم بالكتاب .

ثمّ إنّ ظاهر الآية أنّه بعد نزوله يكون كذلك ، فلا يشمل الأنبياء الماضين ، بل يختصّ بالنبيّ ﷺ والأئمّة الهداة المعصومين عليهم السلام .

إن قلت : إنّ الآية الشريفة تدلّ علىٰ وجود آيات الكتاب في صدور جمع ولم يبيّن المراد بهم ، والنبيّ ﷺ ممّن علم إرادته ، وأمّا غيره فلا دلالة عليه .

قلت : تبيّن ممّا ذكرناه وما سنذكره أنّ الكتاب له أوصاف كثيرة ، وهذه الأوصاف غير موجودة في غير أمير المؤمنين علي وأولاده المعصومين عليهم السلام . فإن لم تكن موجودة فيهم ، فلا أحد يوجد فيه هذه

---

(١) تفسير ابن كثير ٣ : ٤١٧ .

الأوصاف ، هذا مع أنّه يعلم بوجود هذه الأوصاف فيهم من لاحظ أحوالهم وتاريخهم .

قوله تعالىٰ ﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾ يدلّ علىٰ أنّ المنكر للآيات التي هي في صدور الذين أُوتوا العلم من الظالمين ، يشمله الآيات الواردة في ذمّ الظالمين .

ثمّ إنّ الكتاب ليس بعربيّ ولا غيره ، ولعلّه يدلّ عليه قوله سبحانه ﴿ إنّا جعلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون ﴾[(١)] أي : جعلنا الكتاب عربيّاً ليعقله الناس الذين بعث فيهم النبيّ صلى الله عليه وآله .

وقد ورد في بعض الأخبار أنّ الكتاب الذي يكون مع الأنبياء هو الإسم الأكبر الذي يعلم به علم كلّ شيء .

الآية الثانية : التي تدلّ على اتّحادهم مع الكتاب قوله سبحانه ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحقّ مصدّقاً لمابين يديه إنّ اللّه بعباده لخبير بصير * ثمّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن اللّه ذلك هو الفضل الكبير * جنّات عدن يدخلونها ﴾[(٢)] الآيات[(٣)] .

---

(١) الزخرف : ٣ .

(٢) فاطر : ٣١ - ٣٣ .

(٣) روى الكليني قدس سره في الكافي [١ : ٢١٤] بإسناده عن سالم ، قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ ﴿ ثمّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ قال : السابق بالخيرات الإمام ، والمقتصد العارف للإمام ، والظالم لنفسه الذي لا يعرف الامام .(ح١) . وروىٰ نحوه عدّة أخبار في هذا المعنىٰ .

وروىٰ أيضاً بإسناده في حديث طويل عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام إلىٰ أن قال : ثمّ

دلّت الآية الشريفة علىٰ أنّ الكتاب الذي نزّل على النبيّ ﷺ المشتمل علىٰ ما كان وما يكون الهادي والنور والرحمة إلى غيرها من الصفات التي ذكرت له ، قد أورثه اللّه عباده المصطفين ، وليس هو الموجود بين الدفّتين ، فإنّه وصل إلىٰ غير المصطفين بل غير المسلمين .

بيان : قوله تعالىٰ ﴿ ثمّ ﴾ يدلّ على التراخي ، ومقتضاه أن يكون الكتاب الذي أُوحي إلى النبيّ ﷺ المذكور في الآية السابقة منتقلاً إلى العباد المصطفين الذين يكونون بعد وفاة النبيّ ﷺ موجودين كما كان عند النبيّ ﷺ ، وقد كان الأنبياء عليهم السلام آتاهم الله الكتاب .

قوله تعالىٰ ﴿ أورثنا الكتاب ﴾ فيه إحتمالان :

الأوّل : المراد إيراث حقيقة الكتاب لا الموجود بين دفّتي المصحف ، فإنّه لا يختصّ بالعباد المصطفين ، فإنّه وصل إلىٰ أيدي الكفّار والمنافقين ، ولا الموجود اللفظي منه المقروء من النقوش ، أو عن ظهر القلب ؛ لأنّ الكفّار والمنافقين قادرون على القراءة من النقش ، أو عن ظهر القلب ، ولا الموجود من معانيه التصوّريّة ، أو بعض معانيه التصديقيّة ، فإنّه يعرفه من كان مطّلعاً على اللغة العربيّة وإن لم يكن مسلماً .

بل الوجود العينيّ منه بمراتبه ، فمرتبه العليا ورّثه العباد المصطفون التي أُعطيت الأنبياء وأوصياؤهم عليهم السلام .

ويدلّ علىٰ أنّ الكتاب ليس هو المقروء والخطّ المنقوش قوله

قال : ﴿ ثمّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ فنحن الذين اصطفانا الله عزّوجلّ وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كلّ شيء . (١ : ٢٢٦) .

وأورد العلاّمة المجلسي قدس سره في البحار (٢٣ : ٢١٢) عدّة أخبار في هذا المعنىٰ .

سبحانه حكاية عن مريم ﴿ فأجاءها المخاض إلىٰ جذع النخلة - إلىٰ قوله سبحانه - فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيّاً ❁ قال إنّي عبد اللّه آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً ﴾[1].

فإنّ هذا القول منه في المهد يدلّ علىٰ أنّ نفسه المقدّسة كتاب، ولعلّ هذا القول هو المراد بقوله سبحانه ﴿ إذ قال اللّه يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلىٰ والدتك إذ أيّدتك بروح القدس تكلّم الناس في المهد وكهلاً وإذ علّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾[2].

---

(١) مريم: ٢٣ - ٣٠.

(٢) المائدة: ١١٠. روى الكليني تَتِرُّ في الكافي [١ : ٣٨٢] بإسناده عن يزيد الكناسي، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام أكان عيسى بن مريم عليه السلام حين تكلّم في المهد حجّة لله علىٰ أهل زمانه؟ فقال: كان يومئذ نبيّاً حجّة لله غير مرسل، أما تسمع لقوله حين قال: ﴿ إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً ﴾ قلت: فكان يومئذ حجّة لله علىٰ زكريّا في تلك الحال وهو المهد؟

فقال: كان عيسىٰ في تلك الحال آية للناس ورحمة من الله لمريم حين تكلّم، فعبّر عنها وكان نبيّاً حجّة علىٰ من سمع كلامه في تلك الحال، ثمّ صمت فلم يتكلّم حتّىٰ مضت له سنتان، وكان زكريّا الحجّة لله عزّوجلّ على الناس بعد صمت عيسىٰ بسنتين، ثمّ مات زكريّا، فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبيّ، أما تسمع لقوله عزّوجلّ ﴿ يا يحيىٰ خذ الكتاب بقوّة وآتيناه الحكم صبيّاً ﴾.

فلمّا بلغ عيسىٰ عليه السلام سبع سنين تكلّم بالنبوّة والرسالة حين أوحى الله تعالىٰ إليه، فكان عيسىٰ الحجّة علىٰ يحيى وعلى الناس أجمعين. وليس تبقى الأرض يا أبا خالد يوماً واحداً بغير حجّة لله على الناس منذ خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الأرض.

فقلت: جعلت فداك أكان عليّ عليه السلام حجّة من الله ورسوله علىٰ هذه الأُمّة في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: نعم يوم أقامه للناس ونصبه علماً ودعاهم إلىٰ ولايته وأمرهم بطاعته.

قلت: وكان طاعة علي عليه السلام واجبة على الناس في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعد وفاته؟

وظاهر الآيتين أنّه قال في المهد آتاني الكتاب ، وهو متّحد مع نفسه المقدّسة ، ويدلّ عليه قوله تعالىٰ بعد ذكر إبراهيم ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاًّ هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذرّيّته داود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسىٰ وهارون وكذلك نجزي المحسنين ❁ وزكريّا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس كلٌّ من الصالحين ❁ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاًّ فضّلنا على العالمين ❁ ومن آبائهم وذرّيّاتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلىٰ صراط مستقيم ❁ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ❁ أُولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة ﴾ الآية(١) .

ويدلّ عليه أيضاً قوله تعالىٰ ﴿ كان الناس أُمّة واحدة فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ الآية(٢) . ولعلّ قوله تعالىٰ ﴿ يا يحيىٰ خذ الكتاب بقوّة ﴾(٣) يريد به ذلك .

الإحتمال الثاني : أن يكون المراد إيراث الكتاب بمراتبه من المرتبة الأُولىٰ وهي العلم بقراءته إلى المرتبة الأعلىٰ المتّحدة مع نفوس الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام ، فإيراث الكتاب إيراث علمه ، فإن عمل به

فقال : نعم ولكنّه صمت فلم يتكلّم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وكانت الطاعة لرسول الله صلى الله عليه وآله علىٰ أُمّته وعلىٰ علي عليه السلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وكانت الطاعة من الله ومن رسوله على الناس كلّهم لعلي عليه السلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وكان علي عليه السلام حكيماً عليماً .

(١) الأنعام : ٨٤ – ٨٩ .

(٢) البقرة : ٢١٣ .

(٣) مريم : ١٢ .

كان ممدوحاً ، وإلاّكان مذموماً ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنىٰ ﴾[(١)] وقال تعالىٰ : ﴿ إنّ الذين أُورثوا الكتاب من بعدهم لفي شكّ منه مريب ﴾[(٢)] .

وعلىٰ كلا الإحتمالين ، فالآية تدلّ علىٰ أنّ الكتاب بما له من الصفات والمراتب قد أورثه الله تعالىٰ هذه الأُمّة ، ولا يليق بالمرتبة العالية إلاّ السابق إلى الخيرات .

قوله تعالىٰ ﴿ الذين اصطفينا ﴾ في معنى الإصطفاء والمراد بها إحتمالان :

الأوّل : إختيارهم للمرتبة العالية المساوقة لمرتبة النبوّة والإمامة ، ويمكن أن يعرف معنى المصطفين من الآيات التي ذكر فيها الإصطفاء ، وهي قوله تعالىٰ ﴿ إن اللّه اصطفىٰ لكم الدين ﴾[(٣)] لأنّ الغرض من خلقة الإنسان هو تديّنه بالدين ، فالدين من أحسن ما اصطفي .

وقوله تعالىٰ ﴿ إنّ اللّه اصطفىٰ آدم ونوحاً وآل ابراهيم ﴾[(٤)] وقوله تعالىٰ ﴿ وقل الحمد لله وسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ ﴾[(٥)] وقوله تعالىٰ ﴿ يا مريم إنّ اللّه اصطفاك وطهّرك واصطفاك علىٰ نساء العالمين ﴾[(٦)] وقوله تعالىٰ ﴿ إنّ اللّه اصطفاه ﴾ وقوله تعالىٰ ﴿ إنّي

(١) الأعراف : ١٦٩ .
(٢) الشورىٰ : ١٤ .
(٣) البقرة : ١٣٢ .
(٤) آل عمران : ٣٣ .
(٥) النمل : ٥٩ .
(٦) آل عمران : ٤٢ .

اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾[١] وقوله تعالىٰ ﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا ﴾[٢] وقوله تعالىٰ ﴿ إنّ اللّه يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾[٣] وقوله تعالىٰ ﴿ وإنّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾[٤].

والمستفاد من هذه الآيات أنّ الإصطفاء هو إختيار الله عبداً من عباده وجعله خالصاً مخلصاً له تعالىٰ، كالأنبياء عليهم السلام والأولياء.

الإحتمال الثاني: أن يكون المراد بالإصطفاء إختيارهم علىٰ سائر الناس بجهة إختصّوا بها، أي: إنّ الله اصطفىٰ هذه الأُمّة مثلاً علىٰ سائر الأُمم، نظير قوله تعالىٰ ﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنّي فضّلتكم على العالمين ﴾[٥] أي: بالآيات التي نزلت عليهم والنعم التي أنعمها عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ ولقد اخترناهم علىٰ علم على العالمين * وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴾[٦] ولم يكن بنو إسرائل كلّهم من المصطفين الأخيار، بل انّ بعضهم آذوا موسى عليه السلام.

وكذا قيل في اصطفاء مريم ﴿ إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك علىٰ نساء العالمين ﴾[٧] أي: من حيث أنّها أنجبت بدون بعل، وكان رزقها

---

(١) الأعراف: ١٤٤.

(٢) البقرة: ١٣٠.

(٣) الحجّ: ٧٥.

(٤) ص: ٤٧.

(٥) البقرة: ٤٧ و ١٢٢.

(٦) الدخان: ٣٢ – ٣٣.

(٧) آل عمران: ٤٢.

يأتيها في محرابها ، فلا ينافي أفضليّة سيّدة النساء فاطمة الزهراء عليها عليها ، وإن لم تكن لها هذه الخصوصيّة .

قوله تعالىٰ ﴿ فمنهم ﴾ في مرجع الضمير إحتمالات :

الأوّل : أن يرجع إلىٰ عبادنا لا إلى الذين ، نظير قوله تعالىٰ ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذرّيّتهما النبوّة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾[1] أي : من ذرّيّتهما ، مع أنّه قد جعل في ذرّيّتهما النبوّة والكتاب ، كان من الذرّيّة مهتد وكثير منهم فاسقون .

الثاني : أن يرجع إلى الذين اصطفينا ، ويكون المراد أنّه تولّد من الذين اصطفينا من عبادنا ظالم لنفسه إلىٰ آخر الآية .

الثالث : أن يكون المرجع الذين اصطفينا أيضاً ، لكن يكون المراد من الإصطفاء الإحتمال الثاني ، بأن يكون الظالم لنفسه ممّن اصطفاه الله حيث جعله من هذه الأُمّة ، لكن لم يعرف حقّ الكتاب وانحرف وكان من المنافقين .

قوله تعالىٰ ﴿ ظالم لنفسه ﴾ الظلم له مراتب : فظلم بالنفس يوجب إستحقاق العقاب ، وظلم يوجب إستحقاق العتاب ، وظلم بالنفس يوجب الوقوع في المشقّة . وقد استعمل الظلم في القرآن في معاني متعدّدة . وفي المراد بالظالم إحتمالات :

الأوّل : أن يكون الإصطفاء بالمعنى الثاني ، ويكون المراد من الظالم العاصي والمرتدّ ، نظير قوله تعالىٰ ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾[2] وحينئذ لا

---

(١) الحديد : ٢٦ .

(٢) الواقعة : ٩ .

يراد به أهل البيت وأئمّتهم .

الثاني : أن يكون المراد من ظلم نفسه وتاب بحيث كان من أهل النجاة .

الثالث : ما ورد في الأخبار من أنّ المراد به الظالم من الذرّيّة .

قوله تعالىٰ ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ أي : معتدل في اُمور دينه ممّن ليس بظالم لنفسه ، ولم يصل إلىٰ حدّ السابقين إلى الخيرات .

قوله تعالىٰ ﴿ ومنهم سابق إلى الخيرات ﴾ وهو متّحد مع قوله تعالىٰ ﴿والسابقون السابقون * اُولئك المقرّبون ﴾[1] أو متّحد مع قوله تعالىٰ ﴿والسابقون الأوّلون ﴾[2] .

قوله تعالىٰ ﴿ ذلك الفضل الكبير ﴾ فيه إحتمالان :

الأوّل : أن يرجع إلى المقتصد والسابق .

الثاني : أن يرجع إلى الجميع ، ويكون قرينة علىٰ أنّ المراد بالظالم من تاب وكان من أهل النجاة ، وهو خصوص من كان من الذرّيّة ، أو الأعمّ منهم .

وحاصل المعنىٰ : أنّ الكتاب الذي اُوحي إلى النبيّ بمراتبه باق بعده في من اصطفاه الله ، الذين هم السابقون إلى الخيرات ، وبعد ملاحظة سائر الآيات ، وملاحظة أوصاف الكتاب والمتّصفين بهم ، لا يبقىٰ ريب ولا شكّ في أنّ المراد بإيراث الكتاب بمرتبته العالية هو إيراثه لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأولاده المعصومين عليهم السلام .

---

(١) الواقعة : ١٠ – ١١ .

(٢) التوبة : ١٠٠ .

ولبعض المحقّقين بيان في اتّحاد الكتاب الناطق مع الصامت .

قال : ولا يخفىٰ عليك أنّ الكتاب كتابان : كتاب صامت ، وكتاب ناطق مشتمل علىٰ ما اشتمل عليه الصامت ، كما أنّ الصامت مبيّن لما اشتمل عليه الناطق كمضاهاة مكتوب القرآن لملفوظه ، فهما كالسبّابتين .

وكلّ منهما دالّ على الآخر ، كالمرآتين المتقابلتين اللتين يظهر في كلّ منهما الآخر بما انعكس فيها ، فإنّ كلّ ما اشتمل عليه القرآن من معرفة اللّه سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله وآثاره ، ومعرفة حقائق الأشياء في المبدأ والبرزخ والمعاد ووجوه الحكمة فيها ، وبيان صفات المواليد الثلاثة ، وأحوال الإنسان وشقاوته وسعادته ، وما يؤدّي إلىٰ كلّ منهما ، وبيان ما وقع وما يقع وأحكام اللّه سبحانه وغيرها ممّا يدلّ عليها دلالة لفظيّة موجودة في نفس الإمام عليه‌السلام منقوشة بالوجود العلمي الذي هو أعلىٰ مرتبة من الوجود اللفظي والكتبي .

وكلّ ما يحكي عنه القرآن بجميع أنواعه حكاية لفظيّة وضعيّة ، يدلّ عليه علوم الإمام عليه‌السلام دلالة علميّة مرآتيّة ، فكما أنّ المطّلع علىٰ ألفاظ القرآن ينتقل منها إلىٰ تلك المعاني ، كذلك المطّلع علىٰ علومه ينتقل إليها ، وكلّ أثر يوجده الأوّل من التقريب والتعريف والتعليم والبشارة والإنذار والتكميل والترقّي إلىٰ عالم القدس والنصح والدعاء إلى اللّه سبحانه بأنواع المقرّبات يترتّب علىٰ الثاني أيضاً ، بل الموجود في الثاني المعاني والألفاظ قوالب لها يحكي عنها ، فإنّ الإمام عليه‌السلام هو الذي عنده علم الكتاب ، وكلّ شيء أحصى اللّه سبحانه في الإمام المبين بالوجود العلمي وفي الكتاب الكريم بالوجود اللفظي .

وفرق ظاهر بين كتاب العلم ونفس العالم المنتقش فيها العلوم، فالإمام عليه السلام بهذا الإعتبار كتاب ناطق كتب اللّه سبحانه في لوحه معاني القرآن وألفاظه وتجلّىٰ فيه بصفاته وآياته وأفعاله مع استجماعه لسائر الشؤون من تخلّقه بما يستحقّه القرآن من الأخلاق وعلمه بما يرغب إليه من الأفعال وامتثاله لأحكامه في جميع المقامات، فهو كتاب إلٰهيّ وانقياد وعمل بمقتضاه، فهو الداعي إلى اللّه علىٰ نحو دعاء القرآن مع زيادة القبول والدعاء بالفعل، فإنّ أخلاقه وأعماله تدعو العارف بها إلى التشبّه بها خصوصاً مع المناسبة الظاهريّة في هيكل البشريّة.

فهما من حيث الحكاية متشاركان في جميع المقامات، وإن ازداد الثاني على الأوّل بأُمور أُخر، وكلّ منهما يدلّ علىٰ صاحبه، ويشهد بحقيقته ويبيّنه؛ إذ جميع صفات الإمام عليه السلام مسطور في الكتاب، ويشهد له بذلك، وإلاّ لم يكن تبياناً لكلّ شيء، كما أنّ جميع صفات القرآن لفظاً ومعنىً غيرهما تحصىٰ في الإمام عليه السلام، ويشهد له بالحقيقة تفصيلاً علماً ولفظاً وتخلّقاً، وهو علىٰ صورة القرآن تماماً مع إجابته وقبوله.

فإن قلت: فعلىٰ هذا الثقل الأكبر هو الإمام عليه السلام دون الكتاب، والخبر مصرّح بخلافه.

قلت: إذا لاحظنا سائر مراتب القرآن ومقاماته دون مقام اللفظ والكتب والنقش، فمن جملة مقاماته مقام قلب النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام إذ هو آيات بيّنات. إنتهىٰ.

أقول: ويحتمل أن يكون الخبر المذكور وارداً علىٰ ما يوافق فهم

المستمعين (١).

---

(١) أقول : بعض هذه الأخبار إشتمل علىٰ أنّ أحدهما أكبر ولم يذكر أيّهما أكبر ، وهو : روى العلاّمة المجلسي قدّس سرّه في البحار [٢٣ : ١٠٦ ح ٧] عن الطرائف : روي عن أحمد بن حنبل في مسنده بإسناده إلىٰ أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : إنّي قد تركت فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي ، وأحدهما أكبر من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، ألا وإنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا عليّ الحوض .

وروىٰ عنه أيضاً قال : ومن ذلك في المعنىٰ من كتاب الجمع بين الصحاح الستّة من الجزء الثالث من أجزاء أربعة من صحيح أبي داود وهو كتاب السنن ، ومن صحيح الترمذي بإسنادهما عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : إنّي تارك فيكم ثقلين ، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر الحديث (ح ١١).

وبعضها لم يذكر الأكبريّة ، وهو : ما رواه في البحار [٢٣ : ١٠٧ ح ٩] عن الطرائف قال : ومن ذلك ما رواه أيضاً أحمد بن حنبل في مسنده بإسناده إلىٰ زيد بن ثابت قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : إنّي تارك فيكم الثقلين خليفتين : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ، وإنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا عليّ الحوض .

وروىٰ عنه أيضاً عن صحيح مسلم ، إلىٰ أن قال : ثمّ قال : أمّا بعد أيّها الناس أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأُجيب ، وإنّي تارك فيكم الثقلين أوّلهما كتاب الله فيه النور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، فحثّ علىٰ كتاب الله تعالىٰ ورغّب فيه ، ثمّ قال : وأهل بيتي ، أُذكركم الله في أهل بيتي ، أُذكركم الله في أهل بيتي ، أُذكركم الله في أهل بيتي (ح ١٠).

وروىٰ عنه أيضاً ، عن مناقب إبن المغازلي بإسناده ، قال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : إنّي أُوشك أن أُدعىٰ فأُجيب ، وإنّي تارك فيكم الثقلين : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وإنّ اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا عليّ الحوض ، فانظروا ماذا تخلفوني فيهما (ح ١٢) وكذا (ح ١٣) و (ح ١٤) نحو ما مرّ .

وبعضها ذكر أنّ الكتاب أكبر ، وهو : ما رواه في البحار [٢٣ : ١٠٩ ح ١٥] عن الطرائف ، قال : ومن ذلك بإسناده أيضاً ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : إنّي فرطكم على الحوض ، فأسألكم حين تلقوني عن الثقلين كيف خلفتموني فيهما ؟ فاعتلّ علينا لا ندري

الآية الثالثة : قوله تعالىٰ ﴿ هو الذي بعث في الأُمّيينَ رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ﴾[١] .

بيان : قوله تعالىٰ ﴿ ويعلّمهم الكتاب ﴾ تعليم الكتاب يكون علىٰ أنحاء :

الأوّل : قراءته عليهم ، فإنّه بلسان عربيّ مبين ، وهم أهل اللسان يفهمون معانيه ، ويبيّن لهم ما لا يفهمونه ، كمفهوم الصلاة والصوم والحجّ ونحوها ، فإنّها أسام للأعمال التي تكون الأخبار الواردة فيها بياناً لها ، كما أنّ مخترع الطيّارة إن تكلّم بها ، فإنّه يعلم جميع ما يكون به

ما الثقلان ، حتّىٰ قام رجل من المهاجرين ، فقال : يا نبيّ الله بأبي أنت وأُمّي ما الثقلان ؟ قال : الأكبر منهما كتاب الله ، طرف بيد الله تعالى وطرف بأيدكم فتمسّكوا به ولا تزلّوا وتضلّوا ، والأصغر منهما عترتي الحديث .

وبعضها : ذكر أنّ الأفضل هو علي بن أبي طالب ، وهو : ما رواه في تفسير البرهان [١ : ١٤ ح ٣٢] عن زيد بن ثابت ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّي تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعلي بن أبي طالب ، وعلي أفضل لكم من كتاب الله لأنّه مترجم لكم عن كتاب الله .

ويمكن الجمع بين هذه الأخبار لو صحّت أسانيدها بأنّ لكتاب الله مقامات ، منها مقام قلب النبيّ صلى الله عليه وآله ، ولمّا كان أفضل من جميع ما سوى الله ، فيكون أفضل من سائر مقامات الكتاب ، وكذا علي بن أبي طالب عليه السلام فإنّه نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وأولاده المعصومون عليهم السلام بمنزلته ، ويحمل ما دلّ علىٰ أنّ الكتاب أفضل علىٰ أنّه إن نظر إلىٰ حيثيّة الكتاب وحيثيّة العترة بما هم مؤمنون بالكتاب ، فالكتاب أفضل ، فتدبّر .

وقد يقال بأنّ مراتب القرآن ومقاماته قلب النبيّ صلى الله عليه وآله فهو في رتبته ، وهو أفضل من الأئمّة المعصومين عليهم السلام ، فيكون القرآن من هذه الجهة أفضل من العترة .

قلت : ما ذكره صحيح لولا ظهور الخبر في أنّه صلى الله عليه وآله يخلّف بعد وفاته في أُمّته كتاب الله وهو أكبر .

(١) الجمعة : ٢ .

وجودها. وإن أراد تعليم ما وضع له اللفظ بيّن جميع ما يتحقّق به وجودها.

الثاني: قراءته عليهم وتعليمهم مفاهيم الألفاظ المخترعة، وتعليم إشاراته ولوازم الكلام، ويختصّ بهذا التعليم بعض الأُمّة.

الثالث: تعليم حقيقته بانتقاله إلى المتعلّم، بحيث يكون صدر المتعلّم وجوداً عينيّاً للقرآن متّصفاً بصفاته، ولعلّه لذا ذكر التعليم بعد التزكية؛ لأنّ علم الكتاب لا يحصل إلاّ في قلب زكيّ نقيّ طاهر مطهّر، فإنّ علم الكتاب يعطي العالم قدرة التصرّف في التكوينيّات، كما حكى الله تعالىٰ في القرآن بقوله ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك ﴾[١] فإنّه علم بعض الكتاب، كما هو ظاهر كلمة «من» وهو إن اقتضى التصرّف المذكور، فكيف بمن علم الكتاب كلّه، ولم يزكّ أحد كتزكية علي وفاطمة وابناهما المعصومين صلوات عليهم أجمعين، فهم اللايقون لتعلّم حقيقة الكتاب.

وأيضاً أنّ رسول الله ﷺ أدّىٰ رسالته بتزكية أُمّته وتعليمهم الكتاب والحكمة، ولا يكون ذلك إلاّ بتعليمه واحداً من أُمّته جميع مراتب القرآن يبقىٰ بعد وفاته يزكّي أُمّته ويعلّمهم الكتاب، ويعلّم واحداً يبقىٰ بعد ذلك، وهكذا إلىٰ آخر زمان التكليف، ولم يكن أحد لايقاً بذلك إلاّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأولاده المعصومون عليهم السلام، والأخبار في كونهم مع القرآن كثيرة[٢].

---

(١) النمل: ٤٠.

(٢) روى الكليني قدس سره في الكافي [١ : ١٩١ ح ٥] باسناده عن سليم بن قيس الهلالي، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، قال: انّ الله تبارك وتعالى طهّرنا وعصمنا وجعلنا

الفصل السابع
في أوصاف الكتاب و هي موجودة في النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام

تقدّم في الفصلين السابقين أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وخليفته متّصفون بصفات الكتاب، فنبيّن في هذا الفصل أوصاف الكتاب، وهي :

أحسن الحديث :

الأوّل : أحسن الحديث، قال اللّه سبحانه : ﴿ اللّه نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾[1].

بيان : الإنسان في طبعه طالب للكمال، ويحبّ الإطّلاع علىٰ أسباب الوصول إلى الكمال، وأيضاً أنّه يريد الإطّلاع علىٰ ما مضىٰ وما يأتي، و الإستماع إلى الحديث عنها.

وأحسن الحديث هو الخبر المطابق للواقع، المبيّن طريق نيل الإنسان إلى الكمال، والكتاب أحسن الحديث، يحدّث عن المبدأ والمعاد وما مضىٰ ويأتي، وعن طريق سعادة الإنسان في الدارين، وما يؤول إليه أمر الإنسان من الجنّة والنار وأوصافهما.

شهداء على خلقه، وحجّته في أرضه، وجعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا.

(١) الزمر : ٢٣.

فالنبيّ والإمام الواجدان للكتاب يكونان أحسن الحديث ، يحكي أقوالهما وأحوالهما وأعمالهما وأخلاقهما ، عن الكمال المطلق الذي يميل إليه الإنسان العاقل .

الآيات :

الثاني : الآيات . قال اللّه سبحانه وتعالىٰ : ﴿ بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أُوتوا العلم ﴾[(١)] وقال تعالىٰ : ﴿ هو الذي ينزّل علىٰ عبده آيات بيّنات ﴾[(٢)] وقال تعالىٰ : ﴿ كتاب فصّلت آياته قرآناً عربيّاً لقوم يعلمون ﴾[(٣)] .

والنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام الذين لهم مرتبة من الكتاب آيات بيّنات[(٤)]، فإنّهم علامات جليلة واضحة لعظمة اللّه وقدرته

(١) العنكبوت : ٤٩ .

(٢) الحديد : ٩ .

(٣) فصّلت : ٣ .

(٤) روى الكليني قدس سره في الكافي [١ : ٢٠٧ح١] بإسناده عن داود الرقّي ، قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالىٰ ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ قال : الآيات هم الأئمّة ، والنذر هم الأنبياء عليهم السلام .

وأيضاً روىٰ بإسناده عن يونس بن يعقوب رفعه ، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّوجلّ ﴿ كذّبوا بآياتنا كلّها ﴾ يعني الأوصياء . (ح ٢) .

وأيضاً روىٰ بإسناده عن أبي حمزة ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت له : جعلت فداك إنّ الشيعة يسألونك عن تفسير هذه الآية ﴿ عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ قال : ذلك إليّ إن شئت أخبرتهم وإن شئت لم أخبرهم ، ثمّ قال : لكنّي أُخبرك بتفسيرها ، قلت : عمّ يتساءلون ؟ قال : فقال : هي في أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول : ما لله عزّوجلّ آية هي أكبر منّي ، ولا لله نبأ أعظم منّي .(ح٣).

وأورد العلاّمة المجلسي قدس سره في البحار [٢٣ : ٢٠٦] في باب أنّهم عليهم السلام آيات الله

وخزنة علم اللّه، فهم أكبر آيات اللّه.

وبذلك يظهر أنّ المعرضين عنهم من مصاديق المعرضين عن آيات اللّه، قال اللّه سبحانه: ﴿ والذين كذّبوا بآياتنا صمّ وبكم في الظلمات من يشأ يضلله ومن يشأ يجعله علىٰ صراط مستقيم ﴾[١].

وسنبيّن أنّ الصراط المستقيم هو صراط النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام، فمن كان علىٰ صراطهم، فهو الذي صدّق بآيات اللّه ولم يكذّب بها، ومن كذّبهم وخالفهم وأعرض عنهم ولم يعتقد إمامتهم، فهو المكذّب بآيات الله، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ ومن أظلم ممّن ذكّر بآيات ربّه ثمّ أعرض عنها ﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿ ألم تكن آياتي تتلىٰ عليكم فكنتم بها تكذّبون -إلىٰ قوله تعالىٰ- فاتّخذتموهم سخريّاً حتّىٰ أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون ﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ﴾[٤]

وبيّناته وكتابه، أخباراً كثيرة، فراجع.

(١) الأنعام: ٣٩.

(٢) السجدة: ٢٢.

(٣) المؤمنون: ١٠٥ - ١١٠.

(٤) طه: ١٢٦. روىٰ في الكافي [١: ٤٣٥ ح ٩٢] بإسناده عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ ﴿ ومن أعرضَ عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً ﴾ يعني: ولاية أمير المؤمنين عليه السلام قلت: ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمىٰ ﴾ يعني: أعمى البصر في الآخرة أعمى القلب في الدنيا عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، قال: وهو متحيّر في القيامة يقول: ﴿ لم حشرتني أعمىٰ وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ﴾ قال: الآيات الأئمّة عليهم السلام الحديث.

وقال سبحانه : ﴿ وإذا تتلىٰ عليهم آياتنا ﴾[١].

البشير النذير :

الثالث : البشير النذير ، قال سبحانه : ﴿ فإنّما يسّرناه بلسانك لتبشّر به المتّقين وتنذر به قوماً لدّا ﴾[٢] وقال سبحانه : ﴿ مصدّقاً لما بين يديه وهدىً وبشرىٰ للمؤمنين ﴾[٣] وقال سبحانه : ﴿ تبياناً لكلّ شيء وهدىً ورحمةً وبشرىٰ للمسلمين ﴾[٤] وقال سبحانه : ﴿ لينذر الذين ظلموا وبشرىٰ للمحسنين ﴾[٥].

اللغة : البشارة هو وعد وصول الخير والثواب الموجب للسرور الذي يظهر في بشرة الوجه ، والبشرة ظاهر جلد الإنسان ، والبشارة بالخير والنذارة بغيره .

والقرآن مبشّر يبشّر بالثواب على الخيرات ، ومنذر يخوّف عن الموبقات ، والإنسان بطبيعته البشريّة يميل إلى الدنيا وما فيها ، ويغفل عن الآخرة ، فيحتاج دائماً إلىٰ ترغيب وترهيب ليجتهد في كسب الخيرات ، ويتّقي من ضرر المهلكات ، فالنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام الواجدان للكتاب يكونان كذلك ، يرغّبان في ثواب الآخرة بأقوالهم وأعمالهم وأحوالهم .

---

(١) الأنفال : ٣١ .

(٢) مريم : ٩٧ .

(٣) البقرة : ٩٧ .

(٤) النحل : ٨٩ .

(٥) الأحقاف : ١٢ .

بصائر :

الرابع : بصائر ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربّكم فمن أبصر فلنفسه ﴾[(١)] وقال سبحانه : ﴿ هذا بصائر من ربّكم وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون ﴾[(٢)] وقال سبحانه : ﴿ بصائر للناس وهدىً ورحمة لعلّهم يتذكّرون ﴾[(٣)].

قال في الصحاح : البصر حاسّة الرؤية ، وأبصرت الشيء رأيته ، قال : وبصرت بالشيء علمته ، والبصير العالم ، والتبصّر التأمّل والتعرّف ، قال : والبصيرة الحجّة والإستبصار في الشيء[(٤)].

وقال في المقاييس : العلم بالشيء ، يقال : هو بصير به ومن هذه البصيرة ، قال : والبصيرة البرهان ، وأصل ذلك كلّه وضوح الشيء[(٥)].

أقول : البصائر جمع البصيرة ، فإن أدرك الشيء كما يدرك بالبصر وهو حاسّة الرؤية ، بأن يكون وضوحه كوضوح الشيء المرئيّ بالعين ، أُطلق على المبصر أنّه بصير وإن لم يكن بآلة ، فإطلاق البصير عليه سبحانه وتعالىٰ يكون إطلاقاً حقيقيّاً ، والبصائر هي الأُمور التي توضح الشيء وضوحاً ، كما اذا رئي بالعين مشاهدة .

وآيات الكتاب المجيد كذلك ، فهي تكون تبياناً لما خفي من العلوم والمعارف والمدركات الباطنيّة ، بها يرتفع الغشاوة والعشاوة عن

---

(١) الأنعام : ١٠٤ .

(٢) الأعراف : ٢٠٣ .

(٣) القصص : ٤٣ .

(٤) صحاح اللغة ٢ : ٥٩١ .

(٥) معجم مقاييس اللغة ١ : ٢٥٣ – ٢٥٤ .

البصيرة الباطنيّة، فيصير الإنسان بصيراً بعد أن كان أعمىٰ.

فالنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام بصائر للناس، فمن اتّصل بهم وغرف من علومهم أبصر داء نفسه ودوائها، وعرف الأُصول الإعتقاديّة والأحكام الفرعيّة، وأبصر منافع دنياه وما يوجب سعادته وشقاوته.

بيّنات:

الخامس: بيّنات، قال اللّه سبحانه وتعالىٰ: ﴿ إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدىٰ من بعد ما بيّناه في الكتاب أُولئك يلعنهم اللّه ﴾[1].

البيّنة: ما يبيّن به الشيء، ويطلق على الحجّة؛ لأنّها تبيّن حقّيّة ما قامت عليه، فهو مأخوذ من البيان، وإذا كان القرآن بيّنة، فالنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام الواجدان للكتاب بيّنات.

برهان:

السادس: برهان، قال اللّه سبحانه: ﴿ يا أيّها الناس قد جاءكم برهان من ربّكم ﴾[2] والقرآن برهان يبرهن به ويستدلّ به؛ لإعجازه واشتماله على المعارف الحقّة، وإخباره عمّا وقع وعمّا يقع، يدفع به شبهات شياطين الإنس والجنّ، ويظفر به علىٰ من خالف الحقّ، فالنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام برهانان.

مبارك:

السابع: مبارك، قال اللّه سبحانه: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك

---

(١) البقرة: ١٥٩.

(٢) النساء: ١٧٤.

فاتّبعوه واتّقوا لعلّكم ترحمون ﴾[١] وقال سبحانه : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾[٢] وقال سبحانه : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته ﴾[٣] .

قال الخليل : البركة من الزيادة والنموّ .

أقول : بركات السماء المطر يحيي به الأرض ، وبركات الأرض ثمرات الأشجار والزروع . والكتاب المبارك هو الكتاب الذي له بركات وخيرات ؛ لأنّ الكفر والأخلاق الرذيلة ، وهوى النفس وميلها إلى المعاصي والنيّات السيّئة ، ترتفع ببركة قراءته وتبياناته ومواعظه وزواجره ودلالاته ، وغيرها من سائر بركاته ، وبه يطلب إقالة العثرات باستجلاب حال التوبة الماحية للعثرات ، واستشفائه من الأمراض الباطنيّة لترتفع ببركته .

فالقرآن يهطل علىٰ أهله بركات كثيرة ، ظاهريّة وباطنيّة ، سماويّة وأرضيّة . والنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام لهما بركات تهطل علىٰ من اتّصل بهم واتّبعهم .

تبيان :

الثامن : تبيان لكلّ شيء ، قال اللّه سبحانه : ﴿ ونزّلنا إليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء ﴾[٤] تدلّ الآية الشريفة علىٰ أنّ الكتاب النازل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله مبيّن لكلّ شيء من المبدأ والمعاد وما كان وما يكون ، وإذا

---

(١) الأنعام : ١٥٥ .

(٢) الأنبياء : ٥٠ .

(٣) ص : ٢٩ .

(٤) النحل : ٨٩ .

كان النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام واجدين للكتاب، فهم عالمون بكلّ شيء.

بيان: قوله تعالىٰ ﴿ ونزّلنا ﴾ كيفيّة نزول الكتاب وإن كانت مجهولة عندنا، إلاّ أنّه لابدّ من الإعتراف بها علىٰ ما هو الواقع.

قوله سبحانه ﴿ الكتاب ﴾ تقدّم أنّ مادّة كتب تدلّ علىٰ مجموعة اُمور علىٰ طبق ما يلائمها، وتقدّم إحتمال أن يكون المراد من الكتاب هو ما اشتمل على الإسم الأعظم، وأنّه متّحد مع هذا القرآن النازل على النبيّ صلى الله عليه وآله.

قوله تعالىٰ ﴿ تبياناً ﴾ أي: مبيّناً، وكيفيّة تبيينه الأشياء علىٰ أنحاء لا يعرفها إلاّ من اُنزل عليه، وهو النبيّ صلى الله عليه وآله ومن كان مثله، وهم الأئمّة المعصومون عليهم السلام.

قوله تعالىٰ ﴿ لكلّ شيءٍ ﴾ عامّ لجميع الأشياء من صفات اللّه سبحانه علىٰ أكمل وجه، والإسم الأعظم، وبدأ الخلق، وما هو كائن وما يكون من العرش والكرسيّ والسماوات والأرضين وما فيها، والشرائع والأحكام، وكلّ ما فرض أنّه شيء.

فالواجد للكتاب العالم به يعرف كلّ شيء، ويعرف الإسم الأعظم، ويقدر علىٰ كلّ شيء بإذن اللّه سبحانه، وقد حكى اللّه سبحانه قصّة سليمان عليه السلام حيث قال: ﴿ أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفريت من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك

طرفك ﴾[١] فأحضر عرش المرأة من سبأ - لعلّه اليمن - عند سليمان عليه السلام في الشامات قبل أن تطرف عينه ، مع أنّه كان عنده علم بعض الكتاب علىٰ ما يقتضيه كلمة ﴿ من الكتاب ﴾ فكيف بمن عنده علم الكتاب كلّه .

فالنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام عالمون بكلّ شيء ، حيث أنّهم واجدون كلّ الكتاب ، والمخالفون للشيعة ذكروا إشتمال الكتاب علىٰ كلّ شيء .

قال النيشابوري في تفسيره : وكيف لا وفيه ـ أي : في القرآن - نبأ الأوّلين وخبر الآخرين وحكم ما بين الخلائق أجمعين[٢] .

وقال إبن كثير في تفسيره : قال إبن مسعود : قد بيّن لنا في هذا القرآن كلّ علم وكلّ شيءٍ . وقال مجاهد : كلّ حلال وحرام . وقول ابن مسعود أعمّ وأشمل ، فإنّ القرآن قد اشتمل علىٰ كلّ علم نافع ، من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي ، وكلّ حلال وحرام ، وما الناس محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم[٣] إنتهىٰ .

أقول : ويؤيّد كونه أعمّ وأشمل ما دلّ من الآيات علىٰ وجود كتاب مشتمل علىٰ كلّ شيء ، وهو قوله تعالىٰ ﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾[٤] وقوله سبحانه ﴿ ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين ﴾[٥]

---

(١) النمل : ٣٨ - ٣٩ .

(٢) التفسير النيشابوري ١ : ٤ المطبوع على هامش تفسير الطبري .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ : ٥٨٢ .

(٤) الأنعام : ٣٨ .

(٥) الأنعام : ٥٩ .

وقوله تعالىٰ ﴿ وكلّ شيء أحصيناه كتاباً ﴾[(١)] .

وما دلّ علىٰ أنّ ما في السماء والأرض في كتاب مبين ، وهو في قوله تعالىٰ ﴿ وما من غائبة في السماء والأرض إلاّ في كتاب مبين ﴾[(٢)] وقوله سبحانه « وما يعزب عن ربّك من مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين ﴾[(٣)] وقوله سبحانه ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السماء ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين ﴾[(٤)] .

فهذه الآيات تدلّ علىٰ وجود كتاب فيه كلّ شيء ، فإذا ضممنا إليها ما دلّ علىٰ أنّ آيات هذا القرآن آيات الكتاب المبين ، وهو قوله ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾[(٥)] وقوله سبحانه ﴿ تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾[(٦)] وقوله تعالىٰ ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾[(٧)] وقوله تعالىٰ ﴿ طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾[(٨)] وقوله تعالىٰ ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾[(٩)] وقوله تعالىٰ ﴿ حم * والكتاب المبين * إنّا

(١) النبأ : ٢٩ .

(٢) النحل : ٧٥ .

(٣) هود : ٦ .

(٤) سبأ : ٣ .

(٥) يوسف : ١ .

(٦) الحجر : ١ .

(٧) الشعراء : ٢ .

(٨) النمل : ١ .

(٩) القصص : ٢ .

جعلناه قرآناً عربيّاً ﴾[١] وقوله تعالىٰ ﴿ حم * والكتاب المبين * إنّا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾[٢].

كان المستفاد من مجموع هذه الآيات وغيرها أنّ الكتاب المنزل على النبيّ ﷺ هو الكتاب المبين المشتمل علىٰ كلّ شيء ، وإذا كان تبياناً لكلّ شيء ، وهو آيات بيّنات في صدور الذين أُوتوا العلم ، أي : النبيّ ﷺ والأئمّة المعصومون عليهم السلام .

ولعلّهم المراد بقوله تعالىٰ ﴿ وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾[٣] فهم العالمون بكلّ شيء ، ومنه ما كان يعلمه آدم عليه السلام الذي علّمه اللّه الأسماء كلّها ، وجميع ما كان يعلمه سائر الأنبياء ، فهم ورثة علومهم ، والتفاضل إنّما يكون بالعلم والتقوىٰ ، كما مدح اللّه سبحانه العلم في كتابه ﴿ يرفع اللّه الذين آمنوا والذين أُوتوا العلم درجات ﴾[٤].

وبذلك يظهر أنّ نبيّنا ﷺ والأئمّة الطاهرين عليهم السلام أفضل من جميع الأنبياء ؛ لأنّهم أعلم منهم ، وكذا من الملائكة ، لقوله تعالىٰ ﴿ وعلّم آدم الأسماء ﴾[٥] الآية .

ثمّ إنّ علينا أن نؤمن بأنّ الكتاب تبيان لكلّ شيء ، ويعرف أهله منه كلّ شيء ، وإن كان غيرهم لا يعرفون إلاّ النصوص والظواهر .

ولصاحب الكشّاف هنا كلام ، قال : فإن قلت : كيف كان القرآن تبياناً

---

(١) الزخرف : ١ – ٣ .

(٢) الدخان : ١ – ٣ .

(٣) يس : ١٢ .

(٤) المجادلة : ١١ .

(٥) البقرة : ٣١ .

لكلّ شيء ؟ قلت : المعنىٰ أنّه بيّن كلّ شيء من أُمور الدين ، حيث كان نصّاً علىٰ بعضها وإحالة على السنّة ، حيث أمر فيه باتّباع رسول الله ﷺ وطاعته ، وقيل : – ما ينطق عن الهوىٰ – وحثّاً على الإجماع في قوله ﴿ويتّبع غير سبيل المؤمنين﴾ وقد رضي رسول الله ﷺ لأُمّته إتّباع أصحابه والإقتداء بآثارهم في قوله « أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم » وقد اجتهدوا وقاسوا ووطّأوا طرق القياس والإجتهاد ، فكانت السنّة والاجماع والقياس والإجتهاد مستندة إلىٰ تبيان الكتاب ، فمن ثَمّ كان تبياناً لكلّ شيء[١] إنتهىٰ .

أقول : أما يخاف الله تعالىٰ من هذا التفسير بالرأي ، وهل كان الأحكام ناقصة حتّىٰ جاء أبو حنيفة وقاس الأحكام بعضها علىٰ بعض ؟!.

تتميم :

تدلّ آيات على اختصاص العلم بالغيب باللّه سبحانه ، وبعضها علىٰ نفي النبيّ ﷺ علم الغيب عن نفسه ، وبعضها علىٰ نفي علمه ببعض الأشياء ، وبعضها علىٰ أنّ علم النبيّ ﷺ قابل للإزدياد ، فهي أقسام :

الأوّل : ما دلّ على اختصاص الغيب باللّه تعالىٰ ، وهو قوله تعالىٰ ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾[٢] وقوله تعالىٰ ﴿ فقل إنّما الغيب لله ﴾[٣] وقوله تعالىٰ ﴿ ولله غيب السماوات والأرض ﴾[٤] وقوله

---

(١) الكشّاف ٢ : ٤٢٤ .

(٢) الأنعام : ٦٠ .

(٣) يونس : ٢٠ .

(٤) النحل : ٧٩ .

تعالىٰ ﴿ قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلاّ اللّه ﴾[١] وقوله تعالىٰ ﴿ يوم يجمع اللّه الرسل فيقول ماذا أُجبتم قالوا لا علم لنا إنّك أنت علاّم الغيوب ﴾[٢].

الثاني : ما دلّ علىٰ أنّ النبيّ ﷺ لا يعلم الغيب ، وهو قوله تعالىٰ ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن اللّه ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنّي ملك إن أتّبع إلاّ ما يوحىٰ إليّ ﴾[٣] وقوله تعالىٰ ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء ﴾[٤].

الجواب : أنّ علم الغيب خاصّ بمن يعلم الغيب من ذاته لا بعلم مستفاد من غيره .

توضيحه : أنّ الغيب ما غاب عن الحواسّ ، وليس شيء بغيب عند اللّه ، فإنّ كلّ شيء عنده شهادة . والغيب المطلق ما غاب عن جميع الخلق ولا يعلمه إلاّ اللّه[٥] .

---

(١) النحل : ٦٦ .

(٢) المائدة : ١٠٩ .

(٣) الأنعام : ٥٠ .

(٤) الأعراف : ١٨١ .

(٥) روىٰ في البحار [٢٥ : ٢٦٦ ح ٩] عن الإحتجاج ، قال : وممّا خرج عن صاحب الزمان صلوات الله عليه ردّاً على الغلاة من التوقيع جواباً لكتاب كتب إليه علىٰ يد محمّد بن علي بن هلال الكرخي : يا محمّد بن علي تعالى الله عزّوجلّ عمّا يصفون ، ليس نحن شركاء في علمه ولا في قدرته .

بل لا يعلم الغيب غيره ، كما قال في محكم كتابه تبارك وتعالىٰ ﴿ قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلاّ الله ﴾ وأنا وجميع آبائي من الأوّلين آدم ونوح وإبراهيم وموسىٰ وغيرهم من النبيّين ومن الآخرين محمّد رسول الله وعلي بن أبي طالب والحسن والحسين وغيرهم ممّن مضىٰ من الأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين إلىٰ مبلغ أيّامي

وأمّا الأنبياء وأوصياؤهم ، فإنّهم يعلمون ما غاب عن بعض وليس ذلك بغيب ؛ لأنّهم لا يعلمون شيئاً إلاّ بتعليم اللّه ، فيكون ذلك مدركاً بحواسّهم ، وما كان مدركاً بالحواسّ بتعليم الغير يكون شهوداً ، وإن كان غيباً بالنسبة إلىٰ غيره .

وقد أشار إلىٰ ذلك فى نهج البلاغة ، قال عليه‌السلام في جواب من قال إنّك تعلم الغيب : يا أخا كلب ليس هو بعلم غيب ، وإنّما هو تعلّم من ذي علم، وإنّما علم الغيب علم الساعة ، وما عدّده الله سبحانه بقوله ﴿ إنّ الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت ﴾ الآية ، فيعلم الله سبحانه ما في الأرحام من ذكر واُنثىٰ ، وقبيح أو جميل ، وسخيّ أو بخيل ، وشقيّ أو سعيد ، ومن يكون في النار حطباً ، أو في الجنان للنبيّين مرافقاً ، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلاّ الله ، وما سوىٰ ذلك فعلم علّمه الله نبيّه فعلّمنيه ، ودعا لي بأن يعيه صدري ، وتضطمّ عليه جوارحي [(١)] .

واتّضح بما ذكرنا أنّ قوله تعالىٰ حكاية عن نبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ﴿ لو كنت أعلم الغيب ﴾ معناه أنّه لو كان عالماً بالغيب بأن كان غنيّاً بذاته لم يكن متعلّماً عن غيره لاستكثر من الخير ولم يمسّه السوء ، فإنّ الغنيّ بالذات خير محض ولا يمسّه سوء ونقص ، فنفي علم الغيب عنه صادق على الحقيقة .

ومنتهىٰ عصري عبيد الله عزّوجلّ الحديث .

(١) نهج البلاغة ص ١٨٦ رقم الكلام : ١٢٨ .

ثمّ إنّ بعض الآيات التي تدلّ علىٰ نفي علم الغيب عن غير الله مطلق يمكن تقييده بأنّه لا يعلم الغيب إلاّ اللّه ، أو من ارتضاه من رسول ، لقوله تعالىٰ ﴿ وما كان اللّه ليطلعكم على الغيب ولكن يجتبي من رسله من يشاء ﴾[1] وقوله تعالىٰ ﴿ عالم الغيب فلا يظهر علىٰ غيبه أحداً إلاّ من ارتضىٰ من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾[2] .

الثالث : ما دلّ على انحصار العلم بخمسة أشياء باللّه تعالىٰ ؛ وهو قوله تعالىٰ ﴿ إنّ اللّه عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وماتدري نفس بأيّ أرض تموت إنّ اللّه عليم خبير ﴾[3] وقوله تعالىٰ ﴿يسألونك عن الساعة أيّان مرساها قل إنّما علمها عند ربّي ﴾[4] وقوله تعالىٰ ﴿ ويقولون متىٰ هذا الوعد إن كنتم صادقين ۞ قل إنّما العلم عند اللّه ﴾[5] .

دلّت هذه الآيات على انحصار العلم بالساعة عند اللّه ، فيخصّ به سائر ما دلّ علىٰ أنّ غير اللّه تعالىٰ يعرف كلّ شيء بوحي ونحوه .

وأمّا الأربعة الباقية ، فيمكن منع دلالة الآية على انحصار العلم بها باللّه .

والآية الدالّة علىٰ أنّ اللّه سبحانه يظهر علىٰ غيبه من ارتضىٰ من رسول أظهر من هذه الآية ، فيمكن تقييده بأنّه لا يعلم هذه الأربعة إلاّ

---

(١) آل عمران : ١٧٥ .

(٢) الجنّ : ٢٦ .

(٣) لقمان : ٣٤ .

(٤) الأعراف : ١٨٧ .

(٥) النمل : ٧١ – ٧٢ .

من ارتضىٰ من رسول ، أو لا يعلم جميعها . وما ذكرناه إحتمال والعلم عند الله تعالىٰ .

الرابع : ما دلّ علىٰ عدم علم النبيّ ﷺ ببعض الأُمور ، وهو قوله تعالىٰ ﴿ ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾[١] وقوله تعالىٰ ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتّبع إلاّ ما يوحىٰ إليّ ﴾[٢] وقوله تعالىٰ ﴿ وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾[٣] وقوله تعالىٰ ﴿ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلاّ اللّه ﴾[٤] .

الجواب عن الآية الأُولىٰ أوّلاً : أنّه يمكن أن يكون الخطاب لغير النبيّ ﷺ كما في صدر الآية ﴿ وممّن حولكم من الأعراب منافقون ﴾ لكنّه بعيد .

وثانياً : أنّ العلم لعلّه بمعنى المعرفة ؛ لأنّه قد تعدّىٰ إلىٰ مفعول واحد ، أي : لا تعرفهم ، ويقال عرفاً علىٰ من يعرف شيئاً ولا يرتّب الأثر عليه أنّه لا يعرفه ، فالمعنىٰ لا تعرفهم ، أي : لا ترتّب الأثر علىٰ معرفتك .

وثالثاً : يراد بذلك لا تعلمهم من عند نفسك ، وإن كنت تعلمهم من جهة تعليم اللّه تعالىٰ .

وقيل : المعنىٰ لا تعلمهم بالإمارات والحواسّ الظاهريّة ، مع فطنتك وصدق فراستك وعلمك الباطنيّ بهم ، وذلك لشدّة مهارتهم في النفاق ،

---

(١) التوبة : ١٠١ .

(٢) الأحقاف : ٩ .

(٣) الأنبياء : ١٠٩ .

(٤) ابراهيم : ٩ .

ومحافظتهم بإظهار الوفاق الدالّ عليه السياق بقوله « مردوا على النفاق » أي : تمهّروا وتمرّنوا .

ولعلّ النكتة في إظهار أنّه لا يعلمهم أنّه أبقىٰ للإسلام ، فإنّ المنافقين لو علموا أنّ النبيّ ﷺ يعلم أحوالهم لتفرّقوا عنه مخافة أن يدلّ الناس عليهم ، وفي اجتماعهم حوله شوكة للإسلام ظاهراً ، وفي تفرّقهم ضرر عليه بقاءً .

هذا مع أنّه لو علم عامّة الناس أنّه يعلم الغيب لتوهّموا فيه الاُلوهيّة ، فاقتضت المصلحة الإلٰهيّة أن يكون النبيّ من البشر علىٰ هذا المنوال .

والجواب عن الآية الثانية : أنّ المعنىٰ أنّي لا أدري ما يفعل بي لولا الوحي إليّ ، ولكنّي أتّبع القرآن ، ولا يحصل إتّباع القرآن إلاّ بعد الوحي به ، فإذا كان عالماً بالقرآن وفيه تبيان كلّ شيء ، فهو عالم بعد الوحي بكلّ شيء .

والجواب عن الآية الثالثة : أنّ علم الساعة أي العلم بزمان وقوعها تحقيقاً لعلّه من العلم بالغيب الذي لم يظهره اللّه علىٰ أحد من خلقه .

والجواب عن الآية الرابعة : أنّ الحصر إضافيّ ، فإنّ الملائكة الحافظين لهم والشيطان ولعلّ بعض الأجنّة كانوا يعلمونهم ، هذا مع أنّه مقول قول موسىٰ عليه السلام ، كما يظهر من الآيات السابقة فلاحظ .

الخامس : ما دلّ علىٰ أنّ علمه قابل للزيادة ، وهو قوله تعالىٰ ﴿ وقل ربّ زدني علماً ﴾[1] .

والجواب : أنّه ليس صريحاً في أنّه لم يعلم ما كان ، ولعلّ المراد

---

(١) طه : ١١٤ .

إزدياد علمه باللّه وصفاته سبحانه وتعالىٰ، فلا تنافي بين ذلك وبين قوله تعالىٰ ﴿ تبياناً لكلّ شيءٍ ﴾ لأنّ صفاته تعالىٰ لا نهاية لها، كما أنّ القرب إليه لا نهاية له، فيزداد علمه باللّه، مع أنّه يعلم ما كان وما يكون من المخلوقات.

ولعلّه يستفاد من قوله تعالىٰ ﴿ وقل ربّ زدني علماً ﴾ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام أبداً في الزيادة؛ لأنّ اللّه سبحانه جعل الزيادة في الدرجات بالأعمال، وأنّهم عليهم السلام لا ينقطع عنهم الزيادة بعد وفاتهم؛ لأنّ من سنّ سنّة حسنة فله أجر من عمل بها، فلا تستبعد زيادة درجاتهم بالصلاة عليهم، أو النيابة عنهم في أفعال الخير[١].

السادس: ما دلّ علىٰ عدم علمه بالأجل المحتوم، وإنّ العلم به مخصوص بالله تعالىٰ، وهو قوله سبحانه ﴿ يمحو اللّه ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب ﴾[٢] وقوله تعالىٰ ﴿ قضىٰ أجلاً وأجل مسمّىً عنده ﴾[٣] دلّتا علىٰ أنّ علم المحتوم يختصّ باللّه سبحانه، فكيف يقال

---

(١) روىٰ في البحار [٢٦ : ٢٠ ح ٧] عن بصائر الدرجات، بإسناده عن حمران بن أعين، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام : عندكم التوراة والإنجيل والزبور وما في الصحف الأولىٰ صحف إبراهيم وموسىٰ ؟ قال: نعم، قلت: إنّ هذا لهو العلم الأكبر، قال: يا حمران لو لم يكن غير ما كان ولكن ما يحدث بالليل والنهار علمه عندنا أعظم.

وروىٰ عنه بإسناده عن بكر بن كرب، قال: كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام فسمعناه يقول: أما والله إنّ عندنا ما لا نحتاج إلى الناس، وإنّ الناس ليحتاجون إلينا، إنّ عندنا الصحيفة سبعون ذراعاً بخطّ علي وإملاء رسول الله صلّى الله عليهما وعلىٰ أولادهما، فيها من كلّ حلال وحرام، إنّكم لتأتون فتدخلون علينا، فنعرف خياركم من شراركم. (ح ٨).

(٢) الرعد: ٣٩.

(٣) الأنعام: ٢.

إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام يعلمون ما كان وما يكون ؟.

والجواب : أنّ إطلاق الآية يمكن أن يفسّره قوله تعالىٰ ﴿ إلاّ من ارتضىٰ من رسول ﴾[1] ثمّ إنّ صريح القرآن أنّ غير اللّه كان يعلم الغيب بتعليم اللّه ، لاحظ قصّة من صاحبه موسىٰ عليه السلام ، فقتل الغلام وخرق السفينة وغيرها ، كإخبار عيسىٰ عليه السلام ما يدّخرون في بيوتهم .

المثاني :

التاسع : المثاني ، قال اللّه سبحانه وتعالىٰ : ﴿ اللّه نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود ﴾[2] وقال سبحانه : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾[3] .

المثاني جمع مثنىٰ ، وهي تكرير الكلام المشتمل على الحكم والمواعظ ، ليتقرّر ويتثبّت في نفس الإنسان ، وتكريره يوجب أن يرعد فرائص الإنسان ، ويقرع سمعه بكلام عظيم ، ليوحشه عن هذه النشأة ويخرجه عنها ، ويؤنسه إلىٰ ذكر اللّه ، ويلين قلبه القاسي ، وهو الذي يقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلىٰ ذكر اللّه .

ولا يخفىٰ أنّ المثاني في الآية الأُولىٰ وصف لتمام الكتاب ، ولكن في الآية الثانية يحتمل أن تكون « من » للتبعيض ، أي : سبعاً وهي الفاتحة ، وهو بعض الكتاب الذي هو المثاني كما روي ، وأن تكون للبيان ، أي : سبعاً هي المثاني وهي الفاتحة ؛ لأنّها تثنّىٰ في الركعتين . ويحتمل

---

(١) الجنّ : ٢٧ .

(٢) الزمر : ٢٣ .

(٣) الحجر : ٨٧ .

كلاهما من باب الإستعمال في أكثر من معنىٰ .

وإذا كان الكتاب مثاني ، فالأئمّة المعصومون عليهم السلام أيضاً مثاني يتكرّر من كلّ واحد منهم الحكم والمواعظ ، وأيضاً كلّ واحد عاش في زمان بين اُناس يختلف ظروفه عن آخر ، حتّىٰ يكون مثالاً للدين في زمانه واُسوة يقتدىٰ به ، كما أنّ الأنبياء كانوا كذلك ، فكان يوسف عليه السلام اُسوة للعفّة ، وأيّوب عليه السلام اُسوة للصبر على البلاء .

ثمّ إنّه يحتمل أن يكون المثاني مأخوذة من الثناء ، وعليه فكلّ واحد منهم يثني على اللّه عملاً ، فإنّهم بأعمالهم ثناء للّه وتمجيد له ؛ لأنّ الأثر الكامل يكون ثناءً عمليّاً لصاحبه ، كما أنّ الكتاب المتقن المتين ثـناء لصاحبه خارجاً .

حبل الله :

العاشر : حبل اللّه ، قال اللّه سبحانه وتعالىٰ : ﴿ واعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة اللّه عليكم إذ كنتم أعـداءً فألّـف بـين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم علىٰ شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن اللّه لكم آياته لعلّكم تهتدون ﴾[١] .

بيان : قـوله تـعالىٰ ﴿ إعـتصموا ﴾ العـصم الإمسـاك ، والإعـتصام الإستمساك .

قوله تعالىٰ ﴿ بحبل ﴾ لعلّ الحبل هوالشيء الممتدّ يشدّ به ، ويوصل به شيء بقوّة صوريّاً كان أو معنويّاً .

لكن قال الراغب في المفردات : واستعير للوصل ولكلّ ما يتوصّل به

(١) آل عمران : ١٠٣ .

إلىٰ شيء ، قال اللّه عزّ وجلّ : ﴿ واعتصموا بحبل اللّه جميعاً ﴾ فحبله هو الذي معه التوصّل به إليه من القرآن والعقل ، وغير ذلك ممّا إذا اعتصمت به أدّاك إلىٰ جواره ، ويقال للعهد حبل[١] إنتهىٰ .

أقول : وعلىٰ ما ذكره فاستعمال الحبل يكون مجازاً ، لكن لا يبعد أن يكون إستعماله في المعنى المذكور حقيقيّاً ؛ لأنّ لكلّ شيء عوالم ونشآت وأنحاء من الوجود ، واللفظ موضوع للدلالة عليها . مثلاً قيل : الرزق لغة ما ينتفع به ، والمتبادر منه عند العرف الطعام والشراب ، لكن يمكن أن يقال : إنّ رزق كلّ مخلوق ما به قوام وجوده وكماله اللايق به ، فالطعام رزق للبدن ، والعلم رزق للروح .

ثمّ إنّه لا ريب أنّ القرآن حبل الله ، يجب علىٰ جميع المكلّفين أن يعملوا به ويتّبعوه ، وهو الإعتصام به . وضدّ الإعتصام التفرّق في الدين ، قد نهاهم اللّه تعالىٰ عنه ، وذكر أنّ تفرّقهم كان ناشئاً من عدم إعتقادهم بالدين ، فإنّهم حين ما كانوا كفّاراً كانوا أعداءً ، تنشأ عداوتهم عن تكالبهم على الدنيا وشهواتها ؛ لأنّهم لم يعتقدوا باليوم الآخر حتّىٰ يخافوا من سوء أعمالهم .

فكلّ واحد منهم يحبّ ما يرجع إلىٰ نفسه في هذه الدنيا ، فيعادي من يزاحمه في ذلك ، وببركة الدين - أي : الإيمان باللّه وبالرسول وباليوم الآخر الذي أنعم اللّه عليهم - قد ألّف بين قلوبهم ، فنهاهم اللّه عن التفرّق في الدين ، وأمرهم بالإعتصام به .

وذمّ اللّه سبحانه الذين تفرّقوا في دينهم ، فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أن

---

(١) مفردات الراغب ص ١٠٧ ط طهران .

أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه ﴾[١] وقال سبحانه : ﴿ إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ﴾[٢] وقال سبحانه : ﴿ ولا تكونوا من المشركين من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾[٣] وقال سبحانه : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البيّنات ﴾[٤] .

فالإعتصام بحبل اللّه هوالإعتصام بالقرآن ، وهو السبيل إلى اللّه ، وقد قال سبحانه : ﴿ ولا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ﴾[٥] وهو الدين ، قال سبحانه : ﴿ قل إنّني هداني ربّي إلىٰ صراط مستقيم ديناً قيماً ﴾[٦] .

والقرآن يهدي إلى الصراط المستقيم ، قال سبحانه : ﴿ قد جاءكم من اللّه نور وكتاب مبين يهدي به اللّه من اتّبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلىٰ صراط مستقيم ﴾[٧] .

فمن تمسّك بالقرآن الذي هو حبل اللّه وعمل به واتّبعه ، نجّاه من المهالك وربطه إلىٰ عالم القدس ، وجذب روحه إليه ، وعصمه من أمواج

---

(١) الشورى : ١٣ .
(٢) الأنعام : ١٥٩ .
(٣) الروم : ٣٢ .
(٤) آل عمران : ١٠٥ .
(٥) الأنعام : ١٥٣ .
(٦) الأنعام : ١٦١ .
(٧) المائدة : ١٦ .

الفتن ، وهداه الصراط المستقيم .

والنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام الذين هم مرتبة من الكتاب مصاديق حبل اللّه [١]، قد أوجب اللّه الإعتصام بهم ، فولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام من الدين ، وعدم قبول ولايتهم يكون من التفرّق في الدين ، وترك العمل بالقرآن الكريم .

ولا يخفىٰ أنّ مراتب الدين متفاوتة ، يجب الإعتصام بجميع مراتبه ، ومنها ترتيب آثار الإسلام علىٰ مظهري الشهادتين ، وإن لم يكن معتقداً بولاية الأئمّة المعصومين عليهم السلام من العامّة غير الناصبين لهم ، وهو حكم ثانويّ ، وإلاّ فالذي أمر اللّه سبحانه به هو الإعتصام بالقرآن ، وهو يهدي إلىٰ إمامة الأئمّة الإثني عشر عليهم السلام .

ثمّ إنّ الآية الشريفة دلّت علىٰ أنّ خلاف الإعتصام بحبل اللّه – أي : دينه – هو التفرّق في الدين ، وهذه الأُمّة قد تفرّقت في دينها بعد النبيّ صلى الله عليه وآله . ودين الحقّ : إمّا في جانب علي بن أبي طالب عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام وأهل بيته عليهم السلام ، أو في جانب مخالفيهم .

ولمّا ثبت بالآيات المادحة لعلي وأهل بيته عليهم السلام الواردة فيهم قطعاً أنّ الحقّ معهم وأنّهم مع الحقّ ، فمن خالفهم فقد تفرّق في دينه ، وذلك ظاهر بالبيّنات المتقدّمة .

---

(١) أورد العلاّمة المجلسي قدس سره في البحار [٢٤ : ٨٢] في باب أنّهم عليهم السلام حبل الله المتين والعروة الوثقىٰ عدّة أخبار ، منها : عن الأمالي بإسناده ، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴾ نحن الحبل .

ومنها : عن تفسير العيّاشي عن أبي جعفر عليه السلام قال : آل محمّد عليهم السلام هم حبل الله الذي أمر بالإعتصام به ، فقال : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا ﴾ وغيرهما .

ويدلّ علىٰ ذلك أيضاً أمره سبحانه وتعالىٰ بتذكّر نعمته، وسيأتي أنّ أظهر مصاديقها هي نعمة الولاية لعلي وأهل بيته عليهم السلام.

ويدلّ أيضاً الغاية المذكورة بقوله تعالىٰ ﴿ لعلّكم تهتدون ﴾ وسيأتي أنّ الإهتداء هو قبول الهداية التي هي هداية المتّقين الذين يكونون تابعين للإمام الهادي إلى الحقّ، وهو علي وأولاده المعصومون عليهم السلام.

الحكيم:

الحادي عشر: الحكيم، قال اللّه سبحانه: ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾[2] ﴿ والقرآن الحكيم ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿ كتاب أُحكمت آياته ثمّ فصّلت ﴾[4] وقال سبحانه: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أُمّ الكتاب ﴾[5] وقال سبحانه: ﴿ كذلك أنزلناه حكماً عربيّاً ﴾[6] وقال سبحانه: ﴿ حكمةٌ بالغةٌ فما تغن النذر ﴾[7].

قال في المقاييس: الحكم هو المنع وأوّل ذلك هو الحكم، وهو المنع من الظلم وسمّيت حكمة الدابّة لأنّها تمنعها، والحكمة هذا قياسها، لأنّها تمنع من الجهل[8].

---

(١) آل عمران: ٥٨.

(٢) يونس: ١.

(٣) يس: ٢.

(٤) هود: ١.

(٥) آل عمران: ٧.

(٦) الرعد: ٣٧.

(٧) القمر: ٥.

(٨) معجم مقاييس اللغة ٢: ٩١.

قال في الصحاح : الحكم مصدر قولك حكم بينهم يحكم ، أي : قضىٰ وحكم له وحكم عليه ، والحكم أيضاً الحكمة من العلم ، والحكيم العالم، وصاحب الحكمة والحكيم المتقن للأُمور[١] .

والكتاب الحكيم المشتمل علىٰ جميع العلوم وما كان وما يكون يعطي المطالب الصحيحة المطابقة للواقع ليس فيه شيء لا حكمة فيه ، فإذا كان الكتاب حكيماً ومحكماً ومتقناً ، فالنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام يكونان حكيمين محكمين في أفعالهما وتروكهما ، فلا ينسب إليهما أمر ليس مطابقاً للحكمة ، فيكونان معصومين .

وإلاّ - أي : إن صدر عنهما فعل خطأً أو جهلاً بمبدئه أو عاقبته أو لهويّ نفسانيّ لا يطابق العقل السليم أو لظلم أو بخل أو غير ذلك - فلا يكونان حكيمين على الإطلاق ، وقد فرضنا أنّهما واجدين للكتاب المشتمل علىٰ جميع العلوم ، فهما حكيمان على الإطلاق في طول عمرهما .

ولا يبعد أن يكون مفهوم الحكم الجامع لجميع موارد الإستعمال هو كون الفعل الصادر متقناً ومتيناً علىٰ أساس وحقيقة واقعيّة .

فالحكمة إصابة الحقّ بالعلم والعقل ، والحكيم من كان فعله وتركه مصيبين للحقّ والواقع مطابقين للعقل السليم ، ولا يشوبه خلاف الواقع لجهل أو لداع نفسانيّ ونحوهما .

واللّه سبحانه حكيم ، أي : أنّ جميع أفعاله من الخلق والرزق والرحمة والعذاب وغيرها فعلاً وتركاً متقن وصواب ، ومطابق للواقع

---

(١) صحاح اللغة ٥ : ١٩٠١ .

الذي لا يمكن أن يكون وراءه واقع أصحّ منه ، ولا يصدر منه فعل لا يطابق الحكمة ؛ لأنّه : إمّا لجهل ، أو بخل ، أو خوف ، أو سائر الدواعي الفاسدة ، وسبحان اللّه عن ذلك كلّه .

والفرق بينه وبين العليم أنّ العلم مبدأ الحكيم ، والحكم بين الناس هو إتقان الأمر الذي اختلفوا فيه ، والإحكام الإتقان ، وكتاب محكم ، أي : متقن مطالبه قويّ مفاهيمه .

ثمّ إنّ الحكمة في جميع الأفعال والتروك تستدعي العلم بالمصالح العامّة للمسلمين ، والعلم بالمفاسد العامّة لهم ، والعلم بالمصالح والمفاسد الشخصيّة الراجعة إلىٰ نفسه ، فهو يعلم الخير كلّه والشرّ كلّه .

وهذا المقام لا يصل إليه إلاّ من هو متّصل بالوحي ، أو بمن اتّصل بالوحي ، ولا يدّعيه أحد من الأُمة في حقّ غير علي عليه‌السلام وبنيه المعصومين عليهم‌السلام .

وفي القرآن المجيد إيماء إلىٰ أنّ منصب الحكم من اللّه ليس باكتساب ، ولذا قد يكون الصبيّ حكيماً ؛ لأنّ الله أعطاه الحكم ، قال اللّه سبحانه : ﴿ وآتيناه الحكم صبيّاً ﴾[(١)] وقال سبحانه : ﴿ إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك اللّه ﴾[(٢)] .

فقد ظهر أنّ المصداق الظاهر لقوله تعالىٰ ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً ﴾ هو النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله والأئمّة المعصومون عليهم‌السلام ، فمعرفة الإمام المعصوم والإستضاءة من نوره من الحكمة ، فمن عرفها فقد أُوتي

(١) مريم : ١٢ .

(٢) النساء : ١٠٥ .

خيراً كثيراً[١].

الذكر :

الثاني عشر : الذكر والذكرىٰ والتذكرة ، قال سبحانه : ﴿ إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين ﴾[٢] وقال سبحانه : ﴿ وإنّه لذكر لك ولقومك ﴾[٣] وقال سبحانه : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ * إلاّ تذكرة لمن يخشىٰ ﴾[٤] وقال سبحانه : ﴿ كتاب أُنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرىٰ للمؤمنين ﴾[٥].

قال في الصحاح : الذكر والذكرىٰ خلاف النسيان ، والذكر الصيت والثناء ، والتذكرة ما يستذكر به الحاجة[٦].

وقال في المقاييس : ذكرت الشيء خلاف نسيته ، ثمّ حمل عليه الذكر باللسان ، ويقولون : اجعله منك علىٰ ذكر بالضمّ ، أي : لا تنسه[٧] إنتهىٰ .

ولعلّ المعنى الجامع هو الإستحضار في مقابل النسيان وعدم التوجّه، فذكر بالقلب ، وذكر باللسان ، وذكر عن نسيان ، وذكر عن إدامة الحفظ .

---

(١) روىٰ في الكافي [١ : ١٨٥ ح ١١] بإسناده عن أبي بصير ، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً ﴾ فقال : طاعة الله ومعرفة الإمام .

(٢) يس : ٦٩ .

(٣) الزخرف : ٤٤ .

(٤) طه : ٢ – ٣ .

(٥) الأعراف : ٢٠ .

(٦) صحاح اللغة ٢ : ٦٦٤ .

(٧) معجم مقاييس اللغة ٢ : ٣٥٨ .

والفرق بين الذكر والهداية أنّ الهداية هي التوجيه نحو شيء، والذكر هو إستحضار الشيء. وذكر اللّه عبده هو لطفه ورحمته الخاصّة في مقابل تركه، وإلاّ فكلّ موجود محتاج في وجوده إليه سبحانه.

والقرآن حضور للمعارف المتعلّقة بالمبدأ والمعاد وما بينهما لاشتماله عليها، فالإرتباط به تلاوة ومطالعة وغيرهما يكون موجباً للتذكّر، قال سبحانه: ﴿ فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾[١] وقال سبحانه: ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾[٢].

والقرآن يذكّر العبد ربّه، ومنسيّ نعمته وما نسي من عهده الأوّل، يرفع غشاوة الغفلة والنسيان عن قلبه، ولمّا كان القرآن تبياناً لكلّ شيء لا خطأ فيه، فهو ذكر لا خطأ فيه.

والكتاب ذكر في جميع مراتبه، ومنها مرتبة وجوده العلمي ومرتبة وجوده الذي هو قلب النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام، فهما ذكران معصومان لا خطأ فيهما.

و قد أُطلق الذكر على الرسول في قوله تعالىٰ ﴿ قد أنزل اللّه إليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات اللّه مبيّنات ﴾[٣] بناءً علىٰ أن يكون «رسولاً» بدلاً عن «ذكراً» واحتمل كونه مفعول ذكراً.

ثمّ كون القرآن ذكراً: إمّا مبالغة نظير زيد عدل، أو أنّه ذكر بالمعنى الفاعلي.

و قد ظهر بالبيان المذكور صحّة الأخبار المفسّرة للذكر والتذكرة وما

---

(١) ق: ٤٥.

(٢) القمر: ١٧ و ٢٢.

(٣) الطلاق: ١١.

يشتقّ منهما بالنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام[١]، وكذا صحّة الأخبار المفسّرة لمتّبعي الذكر بشيعتهم، وللمعرضين عن الذكر بمعانديهم.

---

(١) روى الكليني قدس سره في الكافي [١ : ٢١٠] بإسناده عن عبد الله بن عجلان، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّوجلّ ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الذكر أنا والأئمّة أهل الذكر، وقوله عزّوجلّ ﴿ وإنّه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ قال أبو جعفر عليه السلام : نحن قومه ونحن المسؤولون. (ح ١).

وروى أيضاً بإسناده عن عبد الرحمٰن بن كثير، قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ قال : الذكر محمّد صلى الله عليه وآله ونحن أهله المسؤولون، قال : قلت : قوله ﴿ وإنّه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ قال : إيّانا عنىٰ ونحن أهل الذكر ونحن المسؤولون. (ح ٢).

وأيضاً بإسناده عن الوشّاء، قال : سألت الرضا عليه السلام فقلت له : جعلت فداك ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ ؟ فقال : نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون الحديث.

وأيضاً بإسناده عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ ﴿ وإنّه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ فرسول الله صلى الله عليه وآله الذكر وأهل بيته عليهم السلام المسؤولون وهم أهل الذكر. (ح ٣).

وأيضاً بإسناده عن الفضيل، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تبارك وتعالىٰ ﴿ وإنّه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ الذكر القرآن ونحن قومه ونحن المسؤولون. (ح ٤) وغيرها من الأحاديث المذكورة في الباب.

وأورد العلاّمة المجلسي قدس سره في البحار [٢٣ : ١٧٢] في باب أنّهم عليهم السلام الذكر وأهل الذكر، وأنّهم المسؤولون، وأنّه فرض علىٰ شيعتهم المسألة ولم يفرض عليهم الجواب، عدّة أخبار كثيرة في هذا المعنىٰ، فمنها : ما في المناقب في قوله تعالىٰ ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ قال الباقر عليه السلام : نحن أهل الذكر.

ومنها : ما عن البصائر بإسناده، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ قال : رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته هم أهل الذكر، وهم الأئمّة وغيرهما.

تتميم :

يذكر فيه تطبيق بعض الآيات المشتملة علىٰ كلمة الذكر .

منها : قوله تعالىٰ ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[١] تقدّم أنّ الذكر هو إحضار الواقع علىٰ ما هو لغة ، وأهل الذكر من كان كلامه مطابقاً للواقع ، ويحصل من كلامه العلم ، وهو الإعتقاد بالشيء علىٰ ما هو عليه ، ويدلّ على اعتبار كون كلامه موجباً للعلم مفهوم قوله تعالىٰ ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾ .

ولأهل الذكر الواقعي الذي يحصل من قوله العلم مصاديق :

منها : علماء اليهود والنصارىٰ الذين عندهم جميع التوراة والإنجيل الصحيحين لا المحرّفين ، أو بعضهما غير المحرّف المشتمل علىٰ أوصاف الأنبياء عليهم السلام ، وقد كان في زمان النبيّ صلى الله عليه وآله جماعة من علمائهم عرفوا صحّة نبوّة نبيّنا بما عندهم من التوراة والإنجيل ، فيمكن شمول أهل الذكر لهم .

ومن مصاديقه كلّ معصوم عالم بشيء ، مثل نبيّنا صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام ، فإنّهم أهل الذكر ؛ لأنّهم يحملون الذكر في نفوسهم الشريفة ، كما يقال للعلماء أهل العلم ، ويصحّ إطلاق الذكر عليهم أيضاً ، كما تقدّم إطلاقه على الرسول ، وأيضاً الأئمّة المعصومون أهل رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ذكر .

وبما ذكر ظهر أنّه ليس المراد بأهل الذكر أهل التوراة والإنجيل

---

(١) الأنبياء : ٧ .

المحرّفين ؛ لأنّ الله تعالىٰ لا يأمر بسؤالهم ، ولا من كان محكوماً بالعدالة ظاهراً ، بل وإن كان عادلاً واقعاً ؛ لأنّه يحتمل فيه الخطأ ، ولا يحصل العلم من خبره ، ولا المجتهد ؛ لعدم حصول العلم من إخباره عن الحلال والحرام لاحتمال خطأه .

والمراد بالمسؤول من يحصل من قوله العلم ، أي : الإعتقاد بالشيء علىٰ ما هو به ؛ لأنّه أوجب السؤال ما لم يحصل العلم ، ولا يحصل العلم إلاّ من إخبار المعصوم ونحوه .

ومنها : قوله سبحانه ﴿ ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب ﴾[١] وهو من إضافة الذكر إلى الفاعل ، أي : ذكر الله عبده يوجب إطمئنان القلب ، أو المفعول ، أي : ذكر العبد ربّه يوجب إطمئنان القلب ، ولعلّهما متلازمان ؛ لقوله تعالىٰ ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾[٢] .

ولعلّ المراد بذكر الله التوجّه إليه ، وهو لا يكون إلاّ إذا كان مطيعاً له سبحانه ، فإنّ العاصي بعيد عنه ، فيختلف مراتب ذكر الله ، فمن كان في أعلىٰ مرتبة التقوىٰ وفنائه عن نفسه وبقائه بربّه ، وفناء صفات نفسه وظهور إنعكاس صفات الله فيه ، وفنائه عن إرادته ، وتبعيّته المطلقة لإرادة ربّه بظهور إرادة الله سبحانه فيه ، وفنائه عن أفعاله وظهور أفعال الله فيه ، فهو ذكر الله بعنوان مطلق .

والنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام الذين في صدورهم كتاب الله هم ذكر الله بقول مطلق ، فهم أرباب القلوب المطمئنّة ، ومصاديق قوله

---

(١) الرعد : ٢٨ .

(٢) البقرة : ١٥٢ .

تعالىٰ ﴿ يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلىٰ ربّك راضية مرضية ﴾ ومن عرفهم واتّبعهم حصل له اطمئنان القلب بقدر اتّباعه لهم ؛ لأنّهم ذكر الله بقول مطلق(١) .

ومنها : قوله تعالىٰ ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾(٢) يحتمل في الذكر أُمور :

أحدها : خصوص الرسول ، نظير قوله تعالىٰ ﴿ ذكراً رسولاً ﴾(٣) ويمكن أن يقال : إنّ قوله تعالىٰ قبله ﴿ يا أيّها الذي نزّل عليه الذكر ﴾ يبعّده .

ثانيها : الذكر بجميع مراتبه حتّىٰ مرتبة وجوده العلمي التي هي صدور النبيّ ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام ، وحفظه في هذه المرتبة هو بقاء وجوده العيني .

ثالثها : مابين الدفّتين والمقروء .

قوله تعالىٰ ﴿ وإنّا له ﴾ الضمير يرجع إلى الذكر ، وعن الفرّاء يجوز أنّ الهاء في « له » كناية عن النبيّ ﷺ ، ولعلّ مراده الذي نزّل عليه الذكر ، وعلىٰ كلّ فهو بعيد .

---

(١) روىٰ في البحار [٢٣ : ١٨٥ ح ٥٤] عن تفسير القمّي ، قال : ﴿ الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله ﴾ قال : الذين آمنوا الشيعة ، وذكر الله أمير المؤمنين والأئمّة عليهم السلام ثمّ قال: ﴿ ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب ﴾ .

وروىٰ أيضاً عن تفسير العيّاشي ، عن خالد بن نجيح ، عن جعفر بن محمّد عليهما السلام في قوله تعالىٰ ﴿ ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب ﴾ قال : بمحمّد ﷺ تطمئنّ القلوب ، وهو ذكر الله وحجابه . (ح ٦٢) .

(٢) الحجر : ٦ .

(٣) الطلاق : ١٠ – ١١ .

قوله تعالىٰ ﴿ لحافظون ﴾ يحتمل وجوهاً :

أحدها : الحفظ إلىٰ آخر الدهر ، فلا ينسخه كتاب .

ثانيها : الحفظ عن الزيادة والنقيصة والتحريف والتغيير ، ومثله قوله تعالىٰ ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾[١] فالقرآن ليس كالتوراة والإنجيل ، بل هو محفوظ عن كيد المشركين .

ثالثها : حفظه في جميع مراتبه ، فالمكتوب من المحو والمزق ، والمقروء من الغلط في الإعراب ومخارج الحروف ، والمحفوظ عن ظهر القلب من النسيان ، ووجوده المتحقّق في وعائه عن التغيير والتبديل والزيادة والنقيصة ، ووجوده الخارجي الذي هو قلب النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام عن الموت ، فوجوده الخارجي محفوظ بإمام معصوم حيّ باق .

ومنها : قوله تعالىٰ ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكا ﴾[٢] ونظائره من الآيات الذامّة للمكذّبين بالذكر والتذكرة والذكرىٰ ، والمعرضين عنها ، وهذه الآيات تنطبق على المعرضين عن مرتبة وجودها العيني الذي هو صدور النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام .

رحمة للمؤمنين

الثالث عشر : رحمة للمؤمنين ، قال عزّ من قائل : ﴿ هذا بصائر من ربّكم وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[٣] وقال : ﴿ ونزّلنا عليك الكتاب

---

(١) فصّلت : ٤٢ .

(٢) طه : ١٢٤ .

(٣) الأعراف : ٢٠٣ .

تبياناً لكلّ شيء وهدىً ورحمةً وبشرىٰ للمسلمين ﴾[١] وقال : ﴿ وننزّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ﴾[٢] .

قال في الصحاح : الرحمة الرقّة والتعطّف[٣].

وقال في المقاييس : أصل واحد يدلّ على الرقّة والعطف والرأفة[٤].

و قال في القاموس : الرقّة والمغفرة والتعطّف كالمرحمة[٥].

وفى مفردات الراغب : رقّة تقتضي الإحسان إلى المرحوم[٦].

وفي أقرب الموارد : رقّة القلب وانعطاف يقتضي التفضّل والإحسان و المغفرة[٧].

أقول : الرحمة مذكورة مع الرأفة ، قال عزّ من قائل : ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[٨] ومذكورة مع المغفرة ، قال سبحانه : ﴿ غفوراً رحيما ﴾[٩] فلعلّها مغايرة معهما مفهوماً ، كما أنّ الرقّة خلاف الغلظة ، فلا يبعد أن تكون الرحمة ضدّ الشدّة والعذاب ، قال سبحانه : ﴿ أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم ﴾[١٠] وقال سبحانه : ﴿ يعذّب من يشاء ويرحم

---

(١) النحل : ٨٩.

(٢) الاسراء : ٨٢.

(٣) صحاح اللغة ٥ : ١٩٢٩ .

(٤) معجم مقاييس اللغة ٢ : ٤٩٨ .

(٥) القاموس ٤ : ١١٧ .

(٦) مفردات الراغب ص ١٩١ ط طهران .

(٧) أقرب الموارد ١ : ٣٩٦.

(٨) التوبة : ١٢٨ .

(٩) النساء : ٩٦ .

(١٠) الفتح : ٢٩ .

من يشاء ﴾[١].

والرحمة هي العطف الحاصل للراحم نحو المرحوم، المنبعث عن ملاحظة حاجته وضرّه، المقتضي لإصلاح شأنه وجبر كسره، وتطلق على الخير الواصل إلى المرحوم، والخير الواصل إلى الشيء قد تكون عامّة، كالوجود والرزق ودفع المكاره وإعطاء المنافع وإصلاح الشأن، وقد وسعت رحمته كلّ شيء من مؤمن وكافر وجماد ونبات وحيوان وغيرها.

وقد تكون خاصّة بطائفة، كالقرب إلى اللّه سبحانه وإلىٰ نعيم الجنان، فإنّها خاصّة بالمؤمنين المتّقين، فمن أراد أن تشمله هذه الرحمة، فليكن من المؤمنين المتّقين، فقد فاز بهذه الرحمة السعداء علىٰ تفاوت درجاتهم في السعادة، وحرم منها الأشقياء علىٰ تفاوت درجاتهم في الشقاوة.

والقرآن الكريم رحمة خاصّة بالمؤمنين، فإنّهم باتّصافهم بما فيه وعملهم بما فيه على اختلاف مراتبهم يفوزون بالسعادات.

وأمّا الظالمون أنفسهم بالمعاصي والشرك بربّ العالمين، فإنّهم يبعدون عن التخلّق والعمل بما في القرآن، وقد قال سبحانه: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتّبعوه واتّقوا لعلّكم ترحمون ﴾[٢].

فإذا كان الكتاب رحمة، فهو بجميع مراتبه رحمة، فالنبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام مصاديق رحمة اللّه، وقد قال اللّه سبحانه في

---

(١) العنكبوت: ٢١.

(٢) الأنعام: ١٥٧.

النبيّ ﷺ ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم ﴾[١] .

الروح :

الرابع عشر : الروح ، قال اللّه تبارك وتعالىٰ : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنّك لتهدي إلىٰ صراط مستقيم ﴾[٢] وقال تعالىٰ : ﴿ يلقي الروح من أمره علىٰ من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾[٣] .

بيان : قوله تعالىٰ ﴿ وكذلك ﴾ أي : كما أوحينا إلىٰ سائر الأنبياء أوحينا إليك .

قوله تعالىٰ ﴿ أوحينا ﴾ قال الراغب في المفردات : أصل الوحي الإشارة السريعة .

أقول : ومنه إلقاء أمر في ذي روح إلقاءً خفيّاً وإن لم يكن إنساناً ، كما قال سبحانه : ﴿ وأوحىٰ ربّك إلى النحل ﴾[٤] ولعلّه يصدق الوحي على الإلقاء بواسطة خفيّة ، فالإلهام وحي ، فإذا كان المراد من الروح المذكور في الآية ملكاً صدق الوحي بإرساله إلى النبيّ ؛ لأنّه خفيّ ويلقي خفيّاً .

قوله تعالىٰ ﴿ إليك ﴾ أي : في حال كونك بشراً ذا جسم عنصريّ ، فلا

---

(١) التوبة : ٦١ .

(٢) الشورى : ٥٢ .

(٣) غافر : ١٥ .

(٤) النحل : ٦٧ .

ينافي ذلك مقام روحه الذي كان نوراً ، وكان أوّل ما خلق اللّه ، كما في الخبر .

قوله تعالىٰ ﴿ روحاً من أمرنا ﴾ يحتمل أُموراً :

أحدها : القرآن ولعلّه لكونه سبباً لحياة الأرواح ، كما أنّ بالروح حياة الأبدان ، فالإنسان ميّت معنىً ، وإن كان حيّاً صورةً ، إلاّ أن يحيىٰ بالعلم ، والقرآن روح يحيىٰ به حياة باقية حقيقيّة ، ويؤيّده الضمير في قوله تعالىٰ ﴿ جعلناه ﴾ أي : جعلنا الروح نوراً ، والنور قد أُطلق على القرآن في سائر الآيات ، ويؤيّده أيضاً قوله ﴿ ما الكتاب ﴾ يمكن أن يقال إنّه يفيد أنّك لم تكن تدري الكتاب ، فعلمته بعد ما أوحيناه إليك ، فهو الروح الذي أوحيناه .

ثانيها : روح القدس المودع في الرسل (١) ، وهو المقام الرفيع الملازم

---

(١) روى الكليني تَتِئُ في الكافي [١ : ٢٧١ ح ١] بإسناده عن جابر الجعفي ، قال : قال أبو عبد الله عليه‌السلام : يا جابر إنّ الله تبارك وتعالىٰ خلق الخلق ثلاثة أصناف ، وهو قول الله عزّوجلّ ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة * فأصحاب الميمنة * ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشئمة * ما أصحاب المشئمة * والسابقون السابقون * أُولئك المقرّبون ﴾ فالسابقون هم رسل الله عليهم‌السلام وخاصّة الله من خلقه ، جعل فيهم خمسة أرواح ، أيّدهم بروح القدس ، فبه عرفوا الأشياء ، وأيّدهم بروح الإيمان ، فبه خافوا الله عزّوجلّ الحديث .

وروىٰ أيضاً بإسناده عن جابر ، عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : سألته عن علم العالم ، فقال لي : يا جابر إنّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح : روح القدس ، وروح الإيمان ، وروح الحياة ، وروح القوّة ، وروح الشهوة ، فبروح القدس يا جابر عرفوا ما تحت العرش إلىٰ ما تحت الثرىٰ ، ثمّ قال : يا جابر إنّ هذه الأربعة يصيبها الحدثان ، إلاّ روح القدس فإنّها لا تلهو ولا تلعب . (ح ٢) ونحوه (٣) .

وروىٰ أيضاً بإسناده عن أسباط بن سالم ، قال : سأله رجل من أهل هيت وأنا حاضر عن قول الله عزّوجلّ ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ فقال : منذ أنزل الله عزّوجلّ

للرسالة والإمامة والعصمة ، ويكون نوراً ؛ لأنّه لا ظلمة معه لمن كان معه هذا الروح .

ثالثها : ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل عليهما السلام [١] ، ويؤيّده قوله تعالىٰ ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾[٢] وقوله تعالىٰ ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً ﴾[٣] ويمكن إرادة جميع المعاني المذكورة من كلمة الروح ، وسيأتي بيانه .

قوله تعالىٰ ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ﴾ يحتمل أن يكون المراد من الكتاب الإسم الأعظم الذي يكون عند الأنبياء[٤] ، ولعلّ المراد بقول عيسىٰ عليه السلام ﴿ آتاني الكتاب ﴾[٥] هو الإسم الأعظم ، فإن كان ملازماً للنبوّة ، فالمعنىٰ انّك ما كنت تدري الإسم الأعظم قبل أن يوحىٰ إليك وقبل نبوّتك .

ويحتمل أن يكون المراد الكتاب الذي أُنزل إليك نزل به جبرئيل ، فلم تكن تدري بالتفصيل . ويحتمل أن يراد ما كنت تعلّمت الكتابة .

ذلك الروح علىٰ محمّد صلى الله عليه وآله ما صعد إلى السماء وإنّه لفينا (١ : ٢٧٣ ح ٢) .

(١) روى الكليني قدس سره في الكافي [١ : ٢٧٣ ح ٣] باسناده عن أبي بصير قال : سألت أباعبد الله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ ﴿ يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي ﴾ قال : خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل ، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مع الأئمّة وهو من الملكوت . ونحوه (ح ٤) وأورد العلاّمة المجلسي في البحار ٢٥ : ٤٧ في باب الأرواح التي فيهم وأنّهم مؤيّدون بروح القدس ، أخباراً كثيرة فراجع .

(٢) المعارج : ٤ .

(٣) النبأ : ٣٨ .

(٤) راجع : أُصول الكافي ١ : ٢٩٣ ح ٣ .

(٥) مريم : ٣٠ .

قوله تعالىٰ ﴿ ولا الإيمان ﴾ لعلّ المراد به المرتبة الكاملة الملازمة للنبوّة والإمامة لا أصل الإيمان ؛ لأنّه كان مؤمناً قبل نزول الوحي ، ومعصوماً لم يشرك باللّه طرفة عين بالضرورة ، فينبغي أن يكون المراد هو الإيمان الملازم لمقام النبوّة والإمامة ، ويدلّ عليه بعض الأخبار(١) .

قوله تعالىٰ ﴿ من نشاء ﴾ لعلّ المراد به الناس إن أُريد من الروح القرآن ، وإن كان المراد به المعنيين الأخيرين ، فالمراد به الرسل والأئمّة المعصومون عليهم السلام .

ويمكن أن يقال : إنّ معنى قوله تعالىٰ ﴿ وكذلك ألقينا إليك روحاً ﴾ كقوله تعالىٰ ﴿ يلقي الروح من أمره ﴾ الآية ، إعطاؤه العقل الكامل الذي هو روح القدس ، وهو خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل عليهما السلام من الملكوت ، كما في الخبر ، ولعلّه لتجرّده عن المادّة العنصريّة ، وهو الوجود العيني للكتاب ، ما كنت تعلم من قبل وجودك البشري ذلك العلم ، ولا الإيمان الكامل الذي يحصل بعد العلم ؛ لأنّه كلّما كثر العلم إزداد الإيمان ، فهو نظير قوله تعالىٰ ﴿ قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إليّ ﴾(٢) .

---

(١) رویٰ في الكافي [١ : ٢٩٣ ح ٢] بإسناده عن أبي حمزة الثمالي ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : سمعته يقول : لمّا أن قضىٰ محمّد نبوّته ، واستكمل أيّامه ، أوحى الله تعالىٰ إليه : أن يا محمّد قد قضيت نبوّتك ، واستكملت أيّامك ، فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والإسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوّة في أهل بيتك عند علي بن أبي طالب ، فإنّي لن أقطع العلم والإيمان والإسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوّة من العقب من ذرّيّتك كما لم أقطعها من ذرّيّات الأنبياء .

(٢) الكهف : ١١٠ .

والنبيّ ﷺ له وجود بشريّ مثل سائر البشر ، وإن كان يمتاز عنهم ، والفرق بينه وبين غيره إنّما هو في الروح الموجود عنده الذي جعله الله نوراً يهدي به من يشاء .

الشفاء :

الخامس عشر : شفاء لما في الصدور ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا ﴾(١) وقوله تعالىٰ ﴿ قد جاءكم موعظة من ربّكم وشفاء لما في الصدور ﴾(٢) وقوله تعالىٰ ﴿ قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء ﴾(٣) .

فإنّه يشفي الأمراض الباطنيّة الروحيّة من الجهل والكفر والأخلاق الذميمة والعادات السيّئة التي تؤدّي إلىٰ موت روحانيّ ، فترتفع ببركته ، ويستدلّ به لرفع الشكوك والشبهات ؛ لأنّه تبيان لما خفي من العلوم والمدركات الباطنيّة ، ويهدي إلى الطريق الموصل إلى المطلوب من نعم الآخرة والأُولىٰ ومصالحهما ، ويرتفع ببركته الغشاوة عن البصيرة الباطنيّة ، فيصير الإنسان بصيراً بعد ما كان أعمىٰ .

وأيضاً يشفي الأمراض الجسمانيّة ، وقد وردت الأخبار بالإستشفاء به ، وبخصوص بعض الآيات لبعض الأمراض .

ثمّ إنّه شفاء لمن استنصحه . وأمّا من نظر فيه بأهوائه ، فلا يزيده إلاّ ضلالة وخساراً ، كنظر مخالفي الشيعة فيه ، واستدلالهم به علىٰ عدالة جميع الصحابة ، فإنّهم لمّا عدلوا عن وصيّ النبيّ ﷺ وخليفته الذي

---

(١) الاسراء : ٨٢ .

(٢) يونس : ٥٧ .

(٣) فصّلت : ٤٤ .

نصّ اللّه عليه علىٰ لسان رسوله إنّه علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد تعدّوا حدود اللّه ، ومن يتعدّ حدود اللّه فأُولئك هم الظالمون ، فلا تستبعد عدم هدايتهم بالقرآن ، مع أنّهم يتلونه أحسن التلاوة .

ولهم تفاسير قد أتعبوا فيها نفوسهم في تفسير كلماته وإعرابه ومعانيه، لكنّهم لم يصلوا إلىٰ هداية القرآن ، فإنّه يهدي للتي هي أقوم ، وهي ولاية علي عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام .

فإذا كان الكتاب بجميع مراتبه شفاء ، فالنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام يشفون جميع الأمراض الروحيّة والجسميّة . وقد كان عيسىٰ عليه السلام يبرأ الأكمه والأبرص بإذن اللّه ، ونبيّنا صلى الله عليه وآله أفضل منه وهو وارث الأنبياء ، كما في الأخبار(١) .

ثمّ إنّه يقتضي عموم العلم والعصمة ؛ لأنّ شفاء الأمراض الروحيّة إنّما يكون بعد الإحاطة بجميعها والعلم بعلاجها ، فلابدّ أن يكون الشافي عالماً بجميع ما يوجب البعد والهوان ، وعالماً بجميع ما يوجب القرب إلى اللّه ليشفيه من مرض الروح ، وهو البعد والهوان ، ويجعله من المقرّبين ، ولابدّ أن لا يخطىء ، وإلاّ ربّما زاد مرضاً علىٰ مرض

---

(١) روى الكليني قدس سره في الكافي [١ : ٤٧٠ ح ٣] بإسناده عن أبي بصير ، قال : دخلت علىٰ أبي جعفر عليه السلام فقلت له : رسول الله صلى الله عليه وآله وارث الأنبياء علم كلّما علموا ؟ قال لي : نعم ، قلت : فأنتم تقدرون علىٰ أن تحيوا الموتىٰ وتبرؤا الأكمه والأبرص ؟ قال : نعم بإذن الله ، ثمّ قال لي : اُدن منّي يا أبا محمّد ، فدنوت منه ، فمسح علىٰ وجهي وعلىٰ عيني ، فأبصرت الشمس والسماء والأرض والبيوت وكلّ شيء في البلد ، ثمّ قال لي : أتحبّ أن تكون هكذا ولك ما للناس وعليك ما عليهم يوم القيامة أو تعود كما كنت ولك الجنّة خالصاً ؟ قلت : أعود كما كنت ، فمسح علىٰ عيني فعدت كما كنت ، قال : فحدّثت إبن أبي عمير بهذا ، فقال : أشهد أنّ هذا حقّ ، كما أنّ النهار حقّ .

والمخطىء جاهل .

تنبيه :

لا يتوهّم كون الإستشفاء بالقرآن الكريم والنبيّ والإمام شركاً ؛ لأنّ الشرك هو إستناد ما يقع إلىٰ غير اللّه سبحانه . وأما الإستناد إليه بواسطة الأسباب ، فلا يكون شركاً ، بل قيل : أبى اللّه أن يجري الأُمور إلاّ بأسبابها ، فكما أنّ شرب الدواء نافع للمريض ؛ لأنّ اللّه قد جعل فيه هذه الخاصيّة ، كذلك القرآن الكريم ألفاظه ونقوشه شفاء للأمراض ، وكذلك الإتّصال بالنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام .

والأخبار[١] بالإستشفاء بهما كثيرة ، هذا مع أنّهما يطلبان من اللّه شفاء الأمراض .

الصدق والحقّ :

السادس عشر : الصدق والحقّ ، قال اللّه سبحانه : ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحقّ ﴾[٢] وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قل صدق اللّه فاتّبعوا ملّة إبراهيم حنيفاً ﴾[٣] وقال سبحانه : ﴿ فمن أظلم ممّن كذب على اللّه وكذّب بالصدق إذ جاءه ﴾[٤] .

وإذا كان الكتاب صدقاً ، فجميع مراتبه صدق ، فالنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة

---

(١) روىٰ في البحار [٢٦ : ٢٢٧ ح ٢] عن المحاسن ، بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام : ذكرنا أهل البيت شفاء من الوعك والأسقام ووسواس الريب ، وحبّنا رضا الربّ تبارك وتعالىٰ .

(٢) فاطر : ٣١ .

(٣) آل عمران : ٤٥ .

(٤) الزمر : ٣٢ .

المعصومون عليهم السلام صادقون ؛ لاتّحادهم مع الكتاب ، فهم مصاديق قوله سبحانه ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا اللّه وكونوا مع الصادقين ﴾[١] وإطلاق الكون مع الصادقين في جميع أفعالهم وأقوالهم يقتضي إمامتهم .

توضيح : قوله سبحانه ﴿ يا أيّها الذين ﴾ خطاب إلىٰ جميع المؤمنين في جميع الأزمنة . وقوله سبحانه ﴿ كونوا مع ﴾ ليس المراد من وجوب الكون معهم المعيّة في المكان أو الصقع ، بل مناسبة المقام تقتضي أن يكون المراد المعيّة معهم في الصدق في جميع مصاديقه ، من الصدق في النيّات والملكات والحالات والأقوال والأفعال .

قوله سبحانه ﴿ الصادقين ﴾ قال في المقاييس : الصدق يدلّ علىٰ قوّة في الشيء قولاً وغيره ، من ذلك الصدق خلاف الكذب ، سمّي لقوّته في نفسه ، ولأنّ الكذب لا قوّة له هو باطل ، وأصل هذا من قولهم « شيء صدق » أي : صلب ورمح صدق ، ويقال : صدقوهم القتال ، وفي خلاف ذلك كذبوهم[٢] إنتهىٰ .

وقال الراغب في المفردات : وقد يستعمل الصدق والكذب في كلّ ما يحقّ ويحصل في الإعتقاد ، نحو صدق ظنّي وكذب ، ويستعملان في أفعال الجوارح ، قال تعالىٰ : ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه ﴾[٣] أي : حقّقوا العهد بما أظهروه من أفعالهم . وقوله تعالىٰ ﴿ ليسأل

---

(١) التوبة : ١١٩ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ٣ : ٣٣٩ .

(٣) الأحزاب : ٢٣ .

الصادقين عن صدقهم ﴾[١] أي : يسأل من صدّق بلسانه عن صدق فعله، وقوله تعالىٰ ﴿ لقد صدق اللّه رسوله الرؤيا بالحقّ ﴾[٢] فهذا صدق بالفعل ، أي : حقّق رؤيته .

وعلىٰ ذلك قوله ﴿ والذي جاء بالصدق وصدّق به ﴾[٣] أي : حقّق ما أورده قولاً بما تحرّاه فعلاً ، ويعبّر عن كلّ فعل فاضل ظاهراً وباطناً بالصدق ، فيضاف إليه ذلك الفعل الذي يوصف به ، نحو قوله ﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[٤] وعلىٰ هذا أنّ لهم قدم صدق عند ربّهم ، وقوله ﴿ أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ﴾[٥] إلىٰ آخر ما ذكره[٦] .

ويمكن أن يقال : إنّ الكون مع الصادقين واقعاً لا يتحقّق إلاّ إذا علم كونه صادقاً ، والعلم بكونه صادقاً في أقواله وأعماله وأفعاله لا يحصل إلاّ إذا كان معصوماً ؛ لأنّ خبر غير المعصوم وفعله وعمله يحتمل فيه الخطأ ، وهو لا يكون صادقاً .

و لبعض العامّة مناقشات :

منها : أنّ المراد كونوا معهم في الصدق وتوابعه ، فاصدقوا كما يصدق الصادقون ولا تكونوا كاذبين .

---

(١) الأحزاب : ٨ .

(٢) الفتح : ٢٧ .

(٣) الزمر : ٣٣ .

(٤) القمر : ٥٥ .

(٥) الاسراء : ٨٠ .

(٦) مفردات الراغب ص ٢٨٥ .

الجواب : أنّه إن قال فاصدقوا مع الصادقين ، كما قال فاركعوا مع الراكعين ، لم يدلّ إلاّ علىٰ أن يصدق كما يصدق الصادقون . وأمّا إن قال كونوا مع الصادقين ، فمعناه الكون معهم مطلقاً بدون الإختصاص بالكون معهم في الصدق ، وهو يقتضي الكون معهم في جميع الأحوال بالمتابعة لهم ، وهذا معنى الإمامة .

ومنها : أنّ الأمر بالكون مع الصادقين نظير قوله سبحانه ﴿ واشهدوا ذوي عدل منكم ﴾[١] ولم يقل من علم أنّهم ذو عدل منكم ونحن علينا الإجتهاد بحسب الإمكان في معرفة الصدق والعدالة .

الجواب : أنّ الألفاظ موضوعة لمعانيها الواقعيّة ، والعادل من يكون عادلاً واقعاً ، والصادق من يكون صادقاً واقعاً ، ولو سلّم وجود دليل علىٰ كفاية الإجتهاد بحسب الإمكان في معرفة العادل ، فلا دليل عليها في معرفة الصادق الذي يجب الكون معه .

ثمّ إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام مصاديق للصدق المذكور في آيات :

الاُولىٰ : كونهم مصداق قوله تعالىٰ ﴿ ولكن البرّ من آمن باللّه واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين وآتى المال علىٰ حبّه ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس اُولئك الذين صدقوا واُولئك هم المتّقون ﴾[٢] .

---

(١) الطلاق : ٢ .

(٢) البقرة : ١٧٧ .

فإنّ النبيّ ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام أتمّ مصاديقه ، ولا يعلم في غير المعصوم ومن يتلوه أنّه موف بجميع عهوده .

الثانية : قوله سبحانه ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدو اللّه عليه ﴾[١] فإنّهم قد صدقوا وحقّقوا ما عاهدوا اللّه عليه .

الثالثة : قوله سبحانه ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أُولئك هم المتّقون لهم ما يشاؤون عند ربّهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفّر اللّه عنهم أسوء الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾[٢] .

بيان : قوله تعالىٰ ﴿ وصدق ﴾ لعلّ ظاهره أنّ المصدّق هو الذي جاء بالصدق ، فمن حقّق ما أورده قولاً بما تحرّاه فعلاً فهو مصداق للآية ، لكن مصاديقه التامّة هم النبيّ ﷺ والأئمّة المعصومون عليهم السلام فإنّهم جاؤوا بالصدق وحقّقوه عملاً ، ومن مصاديق الصدق القرآن ، فمن قرأ القرآن فقد جاء بالصدق ، فإن عمل بجميع ما فيه فقد صدّق به .

وفي بعض الأخبار أنّ الذي جاء بالصدق النبيّ ﷺ والذي صدّق به علي أمير المؤمنين عليه السلام .

ولعلّ المراد بالموصول الجنس الشامل للرسول ﷺ وأمير المؤمنين علي عليه السلام ، وإنّما خصّ الرسول بالجزء الأوّل من الصلة لكونه فيه أظهر وأقوىٰ ، وكذا خصّ الجزء الثاني بأمير المؤمنين عليه السلام لأنّه فيه أحوج إلى البيان .

---

(١) الأحزاب : ٢٣ .

(٢) الزمر : ٣٥ – ٣٦ .

قوله ﴿ ليكفّر اللّه ﴾ علىٰ ما ذكرنا من أنّه عامّ للجميع ، فالتكفير يكون عن الذين عملوا السوء ، وعلى الإختصاص بعلي عليه‌السلام فقد يقال : بأنّ المراد أسواؤه عند قومهم ، فإنّ اللّه سبحانه يكفّره ، أي : يغطّيه عنهم بنصرهم على الكافرين وإحسانهم إليهم ، وإظهار شرفهم وفضلهم ، ولذا قال في الآية التي بعدها ﴿ أليس اللّه بكاف عبده ﴾ إنتهىٰ .

ثمّ إذا صحّ كون النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله والإمام المعصوم عليه‌السلام كتاباً ، فالتصديق بهما هو اتّباعهما ، فمن لم يتّبعهما لم يصدّق بهما ، بل يكون مصدّقاً لقوله سبحانه ﴿ فمن أظلم ممّن كذب على اللّه وكذّب بالصدق إذ جاءه ﴾[١] .

الرابعة : قوله سبحانه ﴿ والذين آمنوا باللّه ورسله أُولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربّهم لهم أجرهم ونورهم ﴾[٢] .

بيان : قوله تعالىٰ ﴿ والذين آمنوا ﴾ عمومه شامل لجميع من آمن باللّه والرسول وإن خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً ، بل وإن لم يعمل الصالحات ، إذا كان مؤمناً باللّه وبرسوله وبما جاء من عند اللّه ، ومنه ولاية الأئمّة المعصومين عليهم‌السلام لكن توصيفهم بأنّهم الصدّيقون لعلّه يوجب التقييد ببعض المؤمنين .

قوله تعالىٰ ﴿ الصدّيقون ﴾ قال الراغب في المفردات : والصدّيق من كثر منه الصدق ، وقيل : بل يقال لمن لا يكذب قطّ ، وقيل : بل لمن لا يتأتّىٰ منه الكذب لتعوّده الصدق ، وقيل : بل لمن صدّق بقوله واعتقاده وحقّق صدقه بفعله ، وقال : ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنّه كان صدّيقاً

(١) الزمر : ٣٢ .
(٢) النساء : ٦٩ .

نبيّاً ﴾ وقال : ﴿ وأُمّه صدّيقة ﴾ وقال : ﴿ من النبيّين والصدّيقين والشهداء ﴾ فالصدّيقون هم قوم دوين الأنبياء في الفضيلة علىٰ ما بيّنت في الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة(١) إنتهىٰ .

أقول : الصدّيق مبالغة في الصدق ، ولا يحصل بمجرّد الإيمان باللّه والرسل ، بل يتوقّف حصوله علىٰ كونه كثير الصدق ، فهو مخصوص ببعض المؤمنين ، ولعلّ قوله سبحانه وتعالىٰ ﴿ ومن يطع اللّه والرسول فأُولئك مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين ﴾ .

الخامسة : قوله سبحانه حكاية عن إبراهيم عليه‌السلام ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾(٢) .

بيان : قوله سبحانه ﴿ لسان صدق ﴾ لعلّ المراد به شخص ذو لسان صدق من أوّل عمره إلىٰ وفاته في جميع حالاته بحيث لا يصدر عنه كذب ، وهو منحصر في المعصومين عليهم‌السلام من أوّل عمرهم إلىٰ آخره ، كالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله والأئمّة المعصومين عليهم‌السلام ؛ لأنّ إرادة لسان الصدق في بعض الأحوال لا يحتاج إلى المسألة من اللّه ، فإنّ كلّ شخص يكون له لسان صدق في بعض الأحوال ، ولا يوجد من يكذب من أوّل عمره إلىٰ آخره .

ثمّ إنّه قد تبيّن من هذه الآيات أنّ الصادقين هم المعصومون ، فإنّ الصدق في قراءة سورة الحمد في كلّ يوم عشر مرّات في قوله ﴿ إيّاك

---

(١) مفردات الراغب ص ٢٨٥ .

(٢) الشعراء : ٨٤ .

نعبد وإيّاك نستعين ﴾ لا يتيسّر إلاّ للمعصوم ومن يتلوه كما مرّ.

قال في البحار أقول: الصادق هو من لا يكذب في قوله ولا فعله، والصدق في قراءة سورة الحمد يوجب العصمة؛ لأنّه يقول كلّ يوم عشر مرّات أو أكثر ﴿ إيّاك نعبد ﴾ وقد سمى اللّه طاعة الشيطان عبادة في مواضع، وكلّ معصية طاعة للشيطان.

وقس علىٰ ذلك قوله ﴿ وإيّاك نستعين ﴾ وسائر ما يقول الإنسان ويدّعيه من الإيمان باللّه واليوم الآخر، وحبّ اللّه تعالىٰ والإخلاص له والتوكّل عليه وغير ذلك، وأخبار الخاصّة والعامّة مشحونة بذلك، فظهر أن الصادق حقيقة هو المعصوم[١] إنتهىٰ.

الصراط المستقيم:

السابع عشر: الصراط المستقيم، قال سبحانه: ﴿ وهذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه﴾[٢] لعلّ المراد به القرآن، ويؤيّده قوله تعالى ﴿ إنّما تنذر من اتّبع الذكر ﴾[٣] وقوله سبحانه ﴿ فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النور الذي أُنزل معه ﴾[٤] وقوله سبحانه ﴿ اتّبعوا ما أُنزل إليكم من ربّكم ﴾[٥] لاتّحاد الأمر باتّباع الصراط واتّباع الذكر، واتّباع النور الذي أُنزل مع النبيّ صلى الله عليه وآله واتّباع ما أُنزل إليه صلى الله عليه وآله.

بيان: قوله تعالىٰ ﴿ صراطى ﴾ الصراط كما قيل: الجادّة؛ لأنّه

---

(١) بحار الأنوار ٣٥: ٤٢٨.

(٢) الأنعام: ١٥٢.

(٣) يس: ١١.

(٤) الأعراف: ١٥٧.

(٥) الأعراف: ٣.

يسترط السابلة ، أي : يبتلع أبناء السبيل المختلفين ، وقيل : لأنّهم يسترطون الطريق .

ثمّ إنّ الصراط - أي : الطريق - يكون في كلّ شيء بحسبه ، فطريق تحصيل الغنىٰ التجارة ، وطريق تحصيل الصحّة للمريض شرب الدواء .

و الصراط إلى الله ، وإلىٰ رضوانه وكرامته ، وإلىٰ مقام أوليائه عنده ، وإلىٰ إفاضاته المعنويّة والبركات الباطنيّة ، وإلىٰ ثوابه ونعمته في البرزخ والقيامة الكبرىٰ والخلود في الجنان ، هو الدين أُصوله وفروعه ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قل إنّني هداني ربّي إلىٰ صراط مستقيم ديناً قيماً ﴾(١) .

والقرآن هو الدين ، والواجدون له أُصولاً وفروعاً وأخلاقاً وأعمالاً إجتماعيّة وفرديّة ، هم وجود الدين في الخارج ، وهم النبيّ صلّى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وأولاده المعصومون عليهم السلام (٢) .

لأنّهم في كلّ مقام منه قد استجمعوا جميع أنحائه ، ففي مقام معرفة

---

(١) الأنعام : ١٦١ .

(٢) روى الكليني قدس سره في الكافي [١ : ٤١٧ ح ٢٤] بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال : أوحى الله إلىٰ نبيّه صلّى الله عليه وآله ﴿ فاستمسك بالذي أُوحي إليك إنّك علىٰ صراط مستقيم ﴾ قال : إنّك علىٰ ولاية علي ، وعلي هو الصراط المستقيم .

وبإسناده أيضاً عن عبد الرحمٰن بن كثير ، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالىٰ ﴿ وهدوا إلى الطيّب من القول وهدوا إلىٰ صراط الحميد ﴾ قال : ذاك حمزة وجعفر وعبيدة وسلمان وأبوذرّ والمقداد بن الأسود وعمّار هدوا إلىٰ أمير المؤمنين عليه السلام الحديث (ح ٧١) .

وأورد العلاّمة المجلسي قدس سره في البحار [٢٤ : ٩] في باب أنّهم عليهم السلام السبيل والصراط وشيعتهم المستقيمون عليها ، أخباراً كثيرة في هذا المعنىٰ ، فراجع .

اللّه سبحانه وصفاته ومراتب الإيمان كلّ المعرفة والإيمان ، وفي مقام كلّ صفة حسنة من العقل وجنوده هم الكاملون فيه ، وفي مقام الأعمال عملهم هو العمل المطلوب في الدين ، بحيث لا يخرج عن صفاتهم وعملهم شيء من الدين ، بل كلّ ما كان زائداً علىٰ ما وجد فيهم ، فهو خارج عن الدين وليس جزءً من الدين .

وليس للدين شأن خارج عن شؤونهم ، فهم أرباب الدين بقول مطلق، ومعرفتهم كذلك معرفة الدين ، ومعرفة الدين معرفة الصراط المستقيم ، والإقتداء بهم هو العمل بالدين ، وهو عبادته تعالىٰ كما يستحقّه ، قال سبحانه : ﴿ إنّ اللّه ربّي وربّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾[1] وقال : ﴿ وإنّه لعلم للساعة فلا تمترنّ بها واتّبعون هذا صراط مستقيم ﴾[2] .

وحاصل الكلام : أنّ الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه إلى السعادات هو الدين ، والدين لو كان قالباً حسّيّاً وجسماً مرئيّاً ، لكان النبيّ ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم‌السلام ، فهم الصراط المستقيم وسبيل اللّه ، وصراط العزيز الحميد .

ويصحّ أن يقال : إنّهم علىٰ صراط مستقيم ؛ لأنّ أجسامهم تتحمّل الدين ، فهم على الدين القيم الذي لا عوج فيه ، كما مرّ نظيره في الذكر من أنّهم ذكر وأهل الذكر .

ومن عرفهم كذلك فقد عرف الدين ، فإن اقتدىٰ بهم وتبعهم ، فهو

---

(١) آل عمران : ٥١ .

(٢) الزخرف : ٦١ .

سالك الصراط المستقيم، ومن خالفهم وعاندهم، فهو ناكب عن الصراط المستقيم.

العزيز:

الثامن عشر: العزيز، قال اللّه سبحانه: ﴿ إنّ الذين كذّبوا بالذكر وإنّه لكتاب عزيز ﴾[١].

اللغة: قال في المقاييس: عزّ يدلّ علىٰ شدّة وقوّة وما ضاهاهما من غلبة وقهر. قال الخليل: العزّة للّه جلّ ثناؤه وهو العزيز، ويقال عزّ الشيء حتّىٰ يكاد لا يوجد، قال بعد حكايته عن الخليل: الأحسن أن يقال لا يكاد يقدر عليه[٢] إنتهىٰ.

يعني: لندرته لا يصل إليه الأيدي، فالعزّة للّه تعالىٰ، والقرآن عزيز لا يوجد مثله، وغالب قاهر في علومه ومعارفه وحججه، دافع للشكوك والأباطيل.

فالنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام الواجدون للكتاب أعزّاء لا عزيز أعزّ منهم، ومن اتّصل بالقرآن بجميع مراتبه، وانقطع إليه وتخلّق به، غلب ودفع كلّ آفة وسوء في الدارين، والعزّة للّه ولرسوله وللمؤمنين الذين آمنوا حقيقة وعملوا بمقتضىٰ إيمانهم.

العظيم:

التاسع عشر: العظيم، قال اللّه تعالىٰ: ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾[٣].

---

(١) فصّلت: ٤١.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤: ٣٨.

(٣) الحجر: ٨٧.

قال في المقاييس : العظم يدلّ علىٰ كبر وقوّة ، فالعظم مصدر الشيء العظيم[١] إنتهىٰ .

وقال الخليل في العين : يقال عظّمه تعظيماً أي كبّره ، وسمعت خبراً فأعظمته أي : عظم في عيني ، إلىٰ أن قال :.والعظمة من التعظيم والزهو والنحو[٢] إنتهىٰ .

والقرآن عظيم يكبر علىٰ ما سواه ، ومن كان صدره الكتاب فهو عظيم لا يكون أكبر منه يعني في المخلوقين ، ومن اتّصل به يجبر به هونه وذلّه في الدنيا والآخرة .

الفرقان :

العشرون : الفرقان ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ تبارك الذي نزّل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾[٣] .

بيان : القرآن فرقان يفرق للعالمين بين الحقّ والباطل في ظلمة هذه الدار التي هي مزرعة الآخرة ، ويلتبس فيها الحقّ بالباطل علىٰ كثير من الناس ؛ للجهل بمصالحهم ، وللتعصّبات الباطلة ، والتقليدات الغير الصحيحة ، والعادات والرسومات السيّئة .

قد بيّن ما يوجب سعادة الناس وما يوجب شقاوتهم ، وحذّرهم منه ، وبيّن الأُصول الإعتقاديّة والفروع العمليّة ، وبيّن من يستحقّ الإمامة ومن لا يستحقّ ، وذكر قصص الأنبياء وأُممهم وما جرىٰ عليهم في مخالفتهم لأنبيائهم .

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٤ : ٣٥٥ .

(٢) ترتيب العين ص ٥٥٧ .

(٣) **الفرقان** : ١ .

ولكونه فرقاناً كذلك أُمرنا بعرض الأخبار التي لا طريق إلىٰ إثبات حجّيّتها وصدورها عن المعصومين عليهم السلام عليه، والأخذ بما وافقه وترك ما خالفه، وفرقانيّته كذلك عامّة للعالمين.

ولعلّ له فرقان خاصّ يحصل للمتّقين عقيب اتّباعهم له، فيحصل لهم بالسير العملي والسلوك الخارجي حالة يفرقون بها بين الحقّ والباطل، ولعلّه المراد بقوله تعالىٰ ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إن تتّقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾[١].

والنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم اللذان في صدورهما القرآن فرقانان يفرّقان بين الحقّ والباطل بأقوالهما وأفعالهما وأحوالهما، وسيرهما العملي في العبادات والمعاملات والإجتماعيّات، بحيث يكون التعدّي عن ذلك موجباً للسقوط إلىٰ طرف التفريط أو الإفراط المذمومين، بل إنّ فرقانيّة القرآن محتاجة إلىٰ بيانهم.

ثمّ إنّ القرآن فرقان واقعيّ لجميع ما يحتاج إليه العباد معصوم عن الخطأ، فيكون النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام فرقانان[٢] لجميع ما يحتاج إليه العباد، معصومان عن الخطأ؛ لأنّ المخطىء يزعم أنّه فرّق بين الحقّ والباطل، مع أنّه لم يفرّق لأنّه جاهل.

وليس المراد بالفرقان تفرّق آياته في النزول كما هو ظاهر، وإن كان قد فرّق آياته ولم ينزل دفعة واحدة ليتهيّأ الناس لتلقّيه، كما قال تعالىٰ

---

(١) الأنفال: ٢٩.

(٢) روى الكليني قدس سره في الكافي [١: ١٩٦ ح ١] بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: وكان أمير المؤمنين عليه السلام كثيراً ما يقول: أنا قسيم الله بين الجنّة والنار، وأنا الفاروق الأعظم، وأنا صاحب العصا والميسم الحديث. ونحوه (ح ٢) و (٣).

﴿ وقرآناً فرقناه لتقرأه علىٰ مكث ونزّلناه تنزيلاً ﴾[١] .

القول الفصل :

الحادي والعشرون : القول الفصل ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ إنّه لقول فصل * و ما هو بالهزل ﴾[٢] .

الفصل لغة كما في المقاييس : تدلّ علىٰ تمييز الشيء وإبانته عنه ، يقال : فصلت الشيء فصلاً والفيصل الحاكم إلىٰ آخر كلامه[٣] .

والقول الفصل مضمون الكلام الذي ينتهى إليه في الصحّة والموافقة للواقع ، ويفصل به الحقّ عن الباطل من كلّ شيء ، والنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام يفصلون بين الحقّ والباطل ؛ لكونهم مرتبة الوجود العينيّ للكتاب .

والفاصل بين الحقّ والباطل لابدّ أن يكون عالماً بهما ، والعلم بهما يقتضي عدم الخطأ ، فإنّ المخطىء جاهل ، فلا يكون فاصلاً بينهما إلاّ إذا كان معصوماً .

القيّم :

الثاني والعشرون : القيّم ، قال اللّه سبحانه : ﴿ ولم يجعل له عوجاً قيّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾[٤] وقال سبحانه : ﴿ رسول من اللّه يتلو صحفاً مطهّرة * فيها كتب قيّمة ﴾[٥] .

---

(١) الاسراء : ١٠٦ .

(٢) الطارق : ١٣ - ١٤ .

(٣) معجم مقاييس اللغة ٤ : ٥٠٥ .

(٤) الكهف : ٢ .

(٥) البيّنة : ٢ - ٣ .

و الكتاب القيّم الذي لا عوج فيه يقام به ويعدل به جميع المطالب التي يرد على الإنسان من داخل وخارج ، لكن بشرط أن يعرف الإنسان كيفيّة العرض عليه ؛ لأنّها متوقّفة علىٰ فهمه ، ولذا ورد عرض الأخبار عليه والأخذ بما وافقه وطرح ما خالفه .

وإذا كان في صدر النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام الكتاب ، فهما قيّمان يقام بهما ويعدل بهما جميع المطالب ، فالحقّ ما رضياه ، والباطل ما أسخطاه ، فكلّ نيّة أو خاطرة أو حال أو عمل أو علم أو شيء من الأشياء وافق رضاهما فهو الحقّ ، وما خالفه فهو الباطل .

الكريم :

الثالث والعشرون : الكريم ، قال اللّه سبحانه : ﴿ إنّه لقرآن كريم ۞ في كتاب مكنون ﴾[١] .

اللغة : كرم ، قال في المقاييس : شرف في الشيء في نفسه ، أو شرف في خلق من الأخلاق ، إلىٰ أن قال : وكرم السحاب أتىٰ بالغيث ، وأرض مكرمة للنبات إذا كانت جيّدة النبات ، والكرم في الخلق يقال هو الصفح عن ذنب المذنب[٢] إنتهىٰ .

ولا يبعد أن يكون مقتضى شرافة الشيء ونفاسته في كلّ شيء بحسبه، فمن يعطي إن كان كريماً يكون عطاؤه نفيساً جيّداً ، والعطاء الجيّد أن يكون مالاً حسناً أو كثيراً .

وهكذا القرآن كريم يكرم عليك ما تحتاج إليه ، ويدر عليك الأرزاق

---

(١) الواقعة : ٧٧ – ٧٨ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ٥ : ١٧٢ .

المادّيّة والمعنويّة ، ويعطيك المواهب الجسمانيّة والروحانيّة ، وهو كريم على الله سبحانه .

وإذا كان القرآن في صدر النبيّ ﷺ والإمام المعصوم عليه السلام فهما كريمان يكرمان علىٰ من سواهم ، فبوجودهم أثبت اللّه الأرض والسماء ، وهما كريمان على اللّه تعالىٰ .

الكلمة :

الرابع والعشرون : الكلمة ، قال اللّه سبحانه : ﴿ واتل ما أُوحي إليك من كتاب ربّك لا مبدّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ (١) .

لعلّ معنى الكلمة ما يدلّ علىٰ معنىٰ ، سواء كان صوتاً أو إخطاراً في النفس ، كما يخطر المريض الذي لا يقدر على التكلّم في ذهنه قراءة الحمد مثلاً ، فإنّ هذا الإخطار كلام له معنىٰ ، أو فعلاً قائماً مقام اللفظ كالإشارة ، فإنّه يتحقّق التكلّم بها ، أو كتابة ، فإنّهم إذا حكوا في كتبهم كلاماً عن غيرهم يقولون بعد إنتهائه : إنّه كلمته أو كلامه .

ولعلّه يكون للكلمة وجودات أُخرىٰ بحسب العوالم . ولا يعتبر كون الكلام صادراً من مقطع الفم ، كما قال سبحانه : ﴿ اليوم نختم علىٰ أفواههم وتكلّمنا أيديهم ﴾ (٢) .

وليس مطلق الدلالة على الشيء كلاماً أو كلمة ، مثلاً الدخان يدلّ علىٰ وجود النار ولا يقال له كلمة . وكتاب الله كلماته التي لا مبدّل لها ، ووجوده العينيّ قلب النبيّ ﷺ والإمام المعصوم عليه السلام .

---

(١) الكهف : ٢٧ .

(٢) يس : ٦٥ .

ومعنىٰ كونهم كلمات الله أنّهم مشتملون علىٰ أوصاف تحكي عن الله تعالىٰ وصفاته، وكلّ وصف موجود بكلمة «كـن» الصـادرة مـن الله تعالىٰ، كما قال الله تعالىٰ في عيسىٰ عليه السلام: ﴿إنّ مثل عيسىٰ عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون﴾[(١)] أي: كما أنّ آدم عليه السلام بعد أن خلق الله صورته من تراب قال له «كن» بمعناه الذي لا نفهم كنهه، كذلك وجد وجود عيسىٰ عليه السلام بكلمة «كن».

ثمّ إنّ كثرة الكلمات تابعة لكثرة المعاني، ولمّا كانت صـفاتهم مـن العلم والكرم والزهد والتقوىٰ كثيرة، فالكلمات الدالّة عليها كثيرة، كما أنّه لا نهاية لصفات الله تعالىٰ الجماليّة والجلاليّة، ولا يحيط بها إلاّ هو، ولذا كانت الكلمات الدالّة عليها لا نهاية لها، كما قال تبارك وتـعالىٰ: ﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بـعده سـبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾[(٢)] وليس ذلك مبالغة، بل هو إخبار من الله تعالىٰ عن حقيقة.

ولا بأس في التعرّض لبعض الآيات المشتملة على الكلمة:

فمنها: قوله تعالىٰ ﴿إنّ اللهّ يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم﴾[(٣)].

بيان: قوله سبحانه ﴿بكلمة منه﴾ أي: من اللّه تعالىٰ، كما في قوله تعالىٰ ﴿إنّما المسيح عيسى بن مـريم رسـول الله وكـلمته ألقـاها إلىٰ

---

(١) آل عمران: ٥٩.

(٢) لقمان: ٢٧.

(٣) آل عمران: ٤٥.

مريم ﴾[١] وكون عيسىٰ عليه السلام كلمة يحتمل وجوهاً :

أحدها : أنّه كلمة من حيث دلالته علىٰ معنىٰ ، وهو قدرة اللّه تعالىٰ علىٰ إيجاد بشر من اُمّ بلا أب . وإنّما اُطلق عليه الكلمة مع أنّ كلّ مخلوق كلمة يدلّ علىٰ صانعه تبارك وتعالىٰ ؛ لأنّ دلالتها أقوىٰ من غيرها ، لكن علىٰ هذا يكون إطلاق الكلمة عليه مجازيّاً علىٰ حسب ما نفهم من معنى الكلمة أنّها لفظ أو نحوه تدلّ علىٰ معنىٰ ، وعلى المعنى الذي ذكرناه يمكن أن يكون حقيقة .

ويمكن أن يقال : بأنّ الصورة الإنسانيّة يدلّ على الإنسانيّة ، وهي أشرف مخلوقات الله تعالىٰ ؛ لأنّ الأنبياء علىٰ هذه الصورة ، وهي صورة آدم عليه السلام ، فهو كلمة الله تعالىٰ .

وهذه الصورة قد انسلخت عن حقيقتها في غير المؤمنين ، من الكفّار والمنافقين وأعداء محمّد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن يرىٰ باطنهم يراهم ذئاباً وخنازير ، ولعلّه المراد بقوله تعالىٰ ﴿ إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً ﴾[٢] .

ثانيها : أنّه ليس كلمة حقيقة ، بل هو موجَد بكلمة « كن » المذكورة في قوله تعالىٰ ﴿ إنّ مثل عيسىٰ عند اللّه كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون ﴾[٣] فاُطلق عليه الكلمة مجازاً .

ثالثها : أنّه مثل كلمة اللّه تعالىٰ يترتّب عليه ما يترتّب علىٰ كلام اللّه تعالىٰ ، فكما أنّ الناس يهتدون بكلام اللّه كذلك يهتدون به .

---

(١) النساء : ١٧١ .

(٢) الفرقان : ٤٤ .

(٣) آل عمران : ٥٩ .

ومنها : قوله تعالىٰ ﴿ وأيّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلىٰ وكلمة اللّه هي العليا ﴾[١] . يحتمل أن يكون المراد من الكلمة دعوتهم ، أي : دعوة الكفّار إلى الكفر ، ودعوة اللّه إلى الإسلام وكلمة التوحيد .

ومنها : قوله سبحانه ﴿ وتمّت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً ﴾[٢] . قوله تعالىٰ ﴿ كلمة ربّك ﴾ يحتمل وجوهاً :

أحدها : أنّ معنىٰ تماميّة الكلمة أنّها بلغت الغاية التي أرسل رسوله لها ، من أخباره وأحكامه ومواعيده صدقاً وعدلاً ، فيكون إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾[٣] ونبّه بذلك علىٰ أنّ الشريعة لا تنسخ .

ثانيها : أن يكون المراد كلمة العذاب علىٰ من لا يهتدي ، وكلمة دخول المؤمنين الجنّة .

ثالثها : أنّه القرآن ، فهو يحفظ بحفظ اللّه تعالىٰ .

أقول : يحتمل أن يكون الكلمة هي كلمة « كن » أي : إيجاده تعالىٰ لشيء يعبّر عنه بكلمة « كن » وأمّا واقعه فاللّه تعالىٰ عالم به ، ومعنىٰ تمامها أنّ الموجود بها تامّ ، والموجود التامّ هو الموجود الذي لا يشذّ عنه فضيلة ، المشتمل علىٰ جميع صفات الكمال في جسده وروحه وعقله وديانته وعلمه وفضله وتقواه ، العادل في جميع أطواره وأعماله و شؤونه ، والموجود التامّ في جميع الفضائل هو التامّ في الصدق

---

(١) التوبة : ٤٠ .

(٢) الأنعام : ١١٥ .

(٣) المائدة : ٣ .

والعدل ، ومصداقه النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام .

وفي أخبارنا أنّ الإمام إذا يولد يكتب علىٰ عضده هذه الآية [١]؛ لأنّ صورة الإنسان تدلّ علىٰ إنسانيّة حامل الصورة ، فإن كانت الدلالة تامّة ومطابقة للواقع ، فصورته كلمة دالّة على الإنسانيّة ، والكلمات التامّات هم النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام .

وأمّا دلالة صورة غيرهم على الإنسانيّة الكاملة ، فليست تامّة : لعدم وجود الإنسان الكامل غير المعصومين ، ولكن يختلف علىٰ حسب مراتبهم . وأمّا إذا لم يكن الصورة الإنسانيّة مطابقة لواقعها كالكفّار والمنافقين ، فليست كلمة تامّة .

ومنها : قوله سبحانه ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلّهم يرجعون ﴾[٢] قوله سبحانه ﴿ وجعلها ﴾ أي : جعل اللّه سبحانه أو ابراهيم .

والضمير : إمّا راجع إلى البراءة المستفادة من قوله سبحانه قبل ذلك ﴿ إذ قال ابراهيم لأبيه وقومه إنّني براء ممّا تعبدون ﴾ والبراءة من عبادة غير اللّه تعالىٰ هي توحيد الله والعبادة له خالصاً .

---

(١) روى الكليني قدس سره في الكافي [١ : ٣٨٧ ح ٢] بإسناده عن الحسن بن راشد ، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إنّ الله تبارك وتعالىٰ إذا أحبّ أن يخلق الإمام أمر ملكاً فأخذ شربة من ماء تحت العرش ، فيسقيها أباه ، فمن ذلك يخلق الإمام ، فيمكث أربعين يوماً وليلة في بطن اُمّه لا يسمع الصوت ، ثمّ يسمع بعد ذلك الكلام ، فإذا ولد بعث ذلك الملك ، فيكتب بين عينيه ﴿ وتمّت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ فإذا مضى الإمام الذي كان قبله رفع لهذا منار من نور ينظر به أعمال الخلائق ، فبهذا يحتجّ الله علىٰ خلقه . ونحوه (ح٣) و (٤) و (ح٦) .

(٢) الزخرف : ٢٨ .

فإذا جعل اللّه هذه البراءة في عقبه أي في ذرّيّته ، يكون إشارة إلى الإمامة ؛ لأنّها قد جعلت ملازمة لمن لم يعبد صنماً ، كما مرّ بيانه في قوله سبحانه ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ فيختصّ بالمعصومين عليهم السلام فهذه الكلمة - أي : البراءة من المشركين - قولاً وعملاً في عقبه إلىٰ يوم القيامة .

ومنها : قوله سبحانه ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة فأنزل اللّه سكينته علىٰ رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوىٰ وكانوا أحقّ بها وأهلها ﴾[١] .

قوله تعالىٰ ﴿ كلمة التقوىٰ ﴾ يحتمل وجوهاً :

أحدها : الإيمان ، وهو الشهادتان .

ثانيها : بسم اللّه الرحمن الرحيم ، وإضافتها إلى التقوىٰ لأنّها سبب لها وأساسها .

ثالثها : أن تكون الإضافة بيانيّة ، أي : وألزمهم التقوىٰ ، فالنبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنون هم المتّقون .

المهيمن :

الخامس والعشرون : المهيمن ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾[٢] .

قيل : المهيمن هو المشتمل على الشيء الحافظ عليه .

والكتاب مصدّق صحّة ما في الكتب السابقة النازلة على الأنبياء ،

---

(١) الفتح : ٢٦ .

(٢) المائدة : ٤٨ .

وحافظ لما فيها باشتماله علىٰ ما فيها حتّىٰ يكتفي به عنها ، ويعرف به التحريف في الموجود منها في أيدي اليهود والنصارىٰ ، فإنّه ليس هو النازل على الأنبياء ، ولو لا ما في القرآن ممّا قاله موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام لظنّ أنّهما قالا ما هو المحرّف الموجود بين أيديهم .

والنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام مهيمنان على الكتب النازلة ، عالمان بما فيها ، معصومان عن الخطأ والنسيان ، وهذا المقام ليس لأحد إلاّ للنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام .

المجيد :

السادس والعشرون : المجيد ، قال اللّه تعالىٰ : « ق * والقرآن المجيد » .

قال في المقاييس : مجد يدلّ علىٰ بلوغ النهاية ، ولا يكون إلاّ في محمود منه ، المجد بلوغ النهاية في الكرم ، واللّه الماجد والمجيد لا كرم فوق كرمه ، وتقول العرب : ماجد فلان فلاناً فاخره ، ويقولون : في كلّ شجر نار ، واستجمد المرخ والعقار ، أي : إستكثرا من النار وأخذا منها ما هو حسبهما ، فهما قد تناهيا في ذلك حتّىٰ أنّه يقتبس منهما[١] إنتهىٰ .

فإذا كان صدر النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام كتاباً مجيداً ، فقد تناهيا فيما يحمد وفي الكرم .

النعمة :

السابع والعشرون : النعمة ، قال سبحانه : ﴿ واذكروا نعمة اللّه

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٥ : ٢٩٧ .

عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾[١] بناءً علىٰ أن يكون الواو في قوله ﴿ وما أنزل ﴾ للتفسير ونحوه ، أي : أُذكروا نعمة الله التي هي الكتاب ، ويحتمل إرادة الأعمّ من الكتاب وغيره ، ويستفاد كونه نعمة من المقابلة للباطل في قوله سبحانه ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة اللّه هم يكفرون ﴾[٢] فالإيمان بالباطل المستلزم لترك الإيمان بالكتاب كفران لنعمة الله تعالىٰ .

وأيضاً الكتاب دين ، وقد جعل اللّه سبحانه إتمام النعمة مع إكمال الدين في قوله سبحانه ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾[٣] وإكمال الدين ملازم لإتمام النعمة .

وأيضاً الكتاب صراط مستقيم ، وانّ اللّه سبحانه قد أنعم على النبيّين بأن جعلهم على الصراط المستقيم ، فقال سبحانه : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ۞ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ .

والنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام الواجدون للكتاب من أعظم نعم اللّه سبحانه[٤] ، بحيث منّ اللّه على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم .

---

(١) البقرة : ٢١١ .

(٢) النحل : ٧٢ .

(٣) المائدة : ٣ .

(٤) روى الصدوق قدس سره في كمال الدين [ص ٣٦٨ ح ٦] بإسناده عن موسى بن جعفر عليهما السلام في قول الله عزّوجلّ ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ فقال : النعمة الظاهرة الإمام الظاهر ، والباطنة الامام الغائب الحديث .

ولعظم هذه النعم قال سبحانه : ﴿ ثمّ لتسألنّ يومئذ عن النـعيم ﴾[١] فإنّ مقتضىٰ إطلاقه أنّهم يسألون عن كلّ نعمة من أكل وشرب وغيرها ، لكن فسّر في بعض أخبارنا بأنّه يسألهم عـن نـعمة واحـدة مـن أدّىٰ شكرها لم يسأل عن غيرها وهي نعمة الدين ، الذي منه ولاية الأئـمّة المعصومين عليهم السلام ، فإن لم يتولّهم سئل عن كلّ نعمة ، ولو منعنا وجود آية أُطلقت النعمة على الكتاب ، فلا ريب في كونه من أعظم النعم .

وبهذا البيان يظهر إنطباق الآيات الذامّة لكفران النعمة علىٰ مخالفيهم و معانديهم ، كقوله سبحانه ﴿ ألم تر إلى الذين بـدّلوا نـعمة اللّـه كـفراً وأحلّوا قومهم دار البوار ﴾[٢] وقوله سبحانه ﴿ يعرفون نعمة اللّـه ثـمّ ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾[٣] وقوله تـعالىٰ ﴿ فـبأيّ آلاء ربّكـما تكذّبان ﴾ .

---

(١) التكاثر : ٨.

(٢) ابراهيم : ٢٨ . روى الكليني قدس سره في الكافي [١ : ٢١٧ ح ١] بإسناده عن الأصبغ بن نباتة ، قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : ما بال أقوام غيّروا سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وعدلوا عن وصيّه ؟ لا يتخوّفون أن ينزل بهم العذاب ، ثمّ تلا هذه الآية ﴿ ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار ﴾ ثمّ قال : نحن النعمة التي أنعم الله بها علىٰ عباده ، وبنا يفوز من فاز يوم القيامة .

وروىٰ في البحار [٢٤ : ٤٨] أخباراً كثيرة دالّة علىٰ هذا المعنىٰ ، منها : عن تفسير القمّي، قال : نعمة الله هم الأئمّة عليهم السلام والدليل علىٰ أنّ الأئمّة نعمة الله قول الله ﴿ ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال الصادق عليه السلام : نحن والله نعمة الله التي أنعم الله بها علىٰ عباده ، وبنا فاز من فاز . وغيرها .

(٣) النحل : ٨٣.

النور:

الثامن والعشرون: النور، قوله تعالىٰ ﴿ فالذين آمنوا بـه وعـزّروه ونصروه واتّبعوا النور الذي أُنزل معه أُولئك هم المفلحون ﴾[١] وقـولـه تعالىٰ ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنـور الذي أنـزلنا ﴾[٢] النـور خـلاف الظلمة، والفرق بينه وبين الهداية أنّ الهدايـة هـي الدلالة والإرشـاد، فيمكن فرض تحقّق الهداية وإن لم يكن نور، كما في هداية الحيوانات إلىٰ ما يلائمها.

والفرق بينه وبين العلم أنّ العلم ربّـما يـنفكّ عـن النـورانـيّة كـعلم الشيطان، لكن لا يتحقّق النور إلاّ مع الإيـمان، وكـلّما كـمل الإيـمان والتقوىٰ كان النور أكثر.

وكما أنّ الظلمة حسّيّة مرئيّة وباطنيّة يراها في هذا العـالم الأنـبياء والأوصياء وتنكشف بعد الموت لنفس الإنسان ولأهل ذلك العالم تمام الإنكشاف، وتبقىٰ أبداً إلىٰ أن تنتهي إلىٰ ظلمة جهنّم.

كذلك النور حسّيّ مرئيّ بواسطة الشمس والقمر والنجوم وغيرها، له مراتب في الشدّة والضعف، وباطنيّ له مراتب فـي الشـدّة والضـعف، وينكشف تمام الإنكشاف بعد الموت.

وإطلاق النور على الحسّيّ والباطنيّ على الحـقيقة؛ إذ كـان مـعناه خلاف الظلمة، والقرآن نور من الظلمة، يظهر مـنه العـلوم والمـعارف وسائر الأُمور المتعلّقة بالنشأتين، ويوجب بصيرة الباطن، فهو نور في

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) التغابن: ٨.

أعلىٰ مراتبه .

والنبيّ ﷺ والإمام المعصوم عليه السلام الواجدان للكتاب نوران لا ظلمة فيهما أصلاً ، معصومان عن الذنب والخطأ ، فإنّ الخطأ هو الجهل وهو ظلمة ، وهما أكمل وأتمّ مظهر للّه سبحانه بما أودع فيهما من المقامات ، فهما نورا اللّه تعالىٰ ، ونور اللّه لا يطفىء واللّه متمّ نوره .

والمؤمن المقتدي بالقرآن - أي : التابع للنبيّ ﷺ والإمام المعصوم عليه السلام - يحصل له النور بمقدار القرب إليهما ، وبمقدار بعد الشخص عنهما يكون في الظلمة إلىٰ أن يبلغ إلىٰ آخر درجاتها ، كالمعاند لهم والغاصب لحقوقهم ، وبذلك يظهر صحّة الأخبار المفسّرة للنور بالإمام ، والظلمة بعدوّه[1] .

الهادي :

التاسع والعشرون : الهادي ، قال اللّه عزّوجلّ : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتّقين ﴾[2] وقال تعالىٰ شأنه : ﴿ مصدّقاً لما بين يديه وهدىً وبشرىٰ للمؤمنين ﴾[3] وقال سبحانه : ﴿ هذا بيان للناس وهدىً

(١) روى الكليني في الكافي [١ : ١٨٥ ح ١٣] بإسناده عن بريد ، قال : سمعت أباجعفر عليه السلام يقول في قول الله تبارك وتعالىٰ ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ فقال : ميّت لا يعرف شيئاً و ﴿ نوراً يمشي به في الناس ﴾ إماماً يؤتمّ به ﴿ كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ قال : الذي لا يعرف الإمام .

ورویٰ أيضاً روايات كثيرة في باب أنّ الأئمّة عليهم السلام نور الله عزّوجلّ .

ورویٰ أيضاً في البحار [٢٣ : ٣٠٤] في باب أنّهم أنوار الله ، وتأويل آيات النور فيهم عليهم السلام فراجع .

(٢) البقرة : ٢ .

(٣) البقرة : ٩٧ .

وموعظة للمتّقين ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم هدىً ورحمة للمحسنين ﴾[٢] وقال سبحانه: ﴿ يهدي به اللّه من اتّبع رضوانه سبل السلام ﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿ إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾[٤].

وقال سبحانه: ﴿ ويرى الذين اُوتوا العلم الذى اُنزل إليك من ربّك هو الحقّ ويهدي إلىٰ صراط العزيز الحميد ﴾[٥] وقال سبحانه: ﴿ إنّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به ﴾[٦] وقال سبحانه: ﴿ قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً اُنزل من بعد موسىٰ مصدّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحقّ وإلىٰ طريق مستقيم ﴾[٧].

دلّت الآيات الشريفة علىٰ اُمور:

منها: أنّ الكتاب هادٍ إلىٰ صراط العزيز الحميد في ظلمة هذه الدنيا وفتنها التي هي الجهالات والشبهات الباطلة والإعتقادات الفاسدة وما شاكلها، كالأخبار الكاذبة، وبدع المبتدعين، وتسويلات الشياطين، وتعصّب متابعة الآباء، ورؤية كلّ شيء بخلاف ما هو عليه.

والهداية إلىٰ صراط العزيز الحميد تكون بالهداية إلى اللّه وما وصف

---

(١) آل عمران: ١٣٨.

(٢) لقمان: ٣.

(٣) المائدة: ١٦

(٤) الاسراء: ٩.

(٥) سبأ: ٦.

(٦) الجن: ١- ٢.

(٧) الأحقاف: ٣٠.

به نفسه من صفاته الجماليّة والجلاليّة ، وإلىٰ معرفة أنبيائه وأوصيائهم المعصومين ، وإلىٰ ما يقرّب إلىٰ رضوانه ويبعّد عن غضبه .

والنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام أيضاً يكونان كذلك يهديان إلىٰ جميع أنواع الهداية(١) .

ومنها : أنّ هداية الكتاب إلىٰ جميع ذلك هداية واقعيّة لا خطأ فيها ، وإلاّ لم يكن هادياً بجميع مراتب الهداية ، والنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام هاديان كذلك ، فيكونان معصومين عن الخطأ والسهو .

ومنها : أنّ الكتاب لمّا كان هادياً إلىٰ جميع ما يحتاج إليه المتّقون والمؤمنون ، فمن أهمّ الهدايات وأعظمها حاجةً هي الهداية إلىٰ خليفة النبيّ ، فإن لم يهد إليه لم يكن هدىً للمتّقين ، فهدايته إليه ما بيّنه في الآيات التي تعرّضنا لها من أنّ الإمام هادٍ ، وأنّه يعلم الكتاب الذي هو تبيان كلّ شيء ، وغير ذلك ممّا نتعرّض له ، ولم يجتمع هذه الصفات إلاّ في أمير المؤمنين علي عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام .

ومنها : أنّ الإهتداء هو قبول الهداية ، فمن قبل هداية القرآن المتّحدة مع هداية النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام يكون مهتدياً ، فهو مصداق

---

(١) روى الكليني قدس سره في الكافي [١ : ٤١٤] بإسناده عن علي بن عبد الله ، قال : سأله رجل عن قوله تعالىٰ ﴿ فمن اتّبع هداي فلا يضلّ ولا يشقىٰ ﴾ قال : من قال بالأئمّة واتّبع أمرهم ولم يجز طاعتهم . (ح ١٠) .

وأيضاً بإسناده عن عبد الله بن سنان ، قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ ﴿ وممّن خلقنا أُمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون ﴾ قال : هم الائمّة (ح ١٣) وغيرها .

قوله سبحانه ﴿ وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدىٰ ﴾[(١)] أي: أطاع الإمام المعصوم واعتقد إمامته وولايته.

ومنه يظهر أنّه يمكن الإستدلال به علىٰ اشتراط صحّة الأعمال بالإعتقاد بولاية الإمام، فإنّه الإهتداء المذكور في الآية الشريفة [(٢)].

و بهذا البيان ظهر صحّة الأخبار التي تدلّ علىٰ تطبيق آيات الهداية في القرآن على الأئمّة المعصومين عليهم السلام، وذلك لاتّحادهم مع القرآن، فهم الهداة.

وكذا الأخبار الدالّة علىٰ ذمّ من أعرض عن الهداة مطابقة للآيات الذامّة لمن أعرض عن الهداة، كقوله تعالىٰ ﴿ ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدىً من اللّه ﴾[(٣)] فإنّ كتاب اللّه هدىً من اللّه بجميع مراتبه، فمن اتّبع غير النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام فقد اتّبع هواه بغير هدىً من اللّه.

وقوله تعالىٰ ﴿ إنّ الذين ارتدّوا علىٰ أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدىٰ ﴾[(٤)] فالهدىٰ هو الكتاب بمراتبه، ومنها النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة

---

(١) طه: ٨٢.

(٢) روىٰ في الكافي [١: ٣٩٢ ح ٣] بإسناده عن سدير، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام وهو داخل وأنا خارج وأخذ بيدي، ثمّ استقبل البيت، فقال: يا سدير إنّما أُمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها ثمّ يأتونا فيعلمونا ولايتهم لنا، وهو قول الله ﴿ وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدىٰ ﴾ ثمّ أومأ بيده إلى الصدر إلىٰ ولايتنا الحديث.

وأورد في البحار [٢٧: ١٦٦] في باب أنّه لا تقبل الأعمال إلاّ بالولاية، أخباراً كثيرة في هذا المعنىٰ، فراجع.

(٣) القصص: ٥٠.

(٤) محمّد «ص»: ٢٥.

المعصومون عليهم السلام .

ومنها : أنّ الكتاب حيث أنّه هاد إلىٰ جميع الهدايات المعنويّة ، فهو مظهر لاسم اللّه الهادي ، فقد تجلّىٰ اللّه جلّ وعلا في كتابه باسم الهادي، فالنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام مظهران لاسم الهادي ، وبذلك يظهر معنى الخبر : نحن الأسماء الحسنىٰ .

وهم مصداق الأُمّة المذكورة في قوله تعالىٰ ﴿ وممّن خلقنا أُمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون ﴾[(١)] قوله تعالىٰ ﴿ يهدون ﴾ الهداية إلىٰ جميع موارد الحقّ موقوفة على العلم والعصمة ، ومصداقه الواضح هم النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام .

تتميم :

للقرآن أوصاف أُخر :

الأوّل : أنّ من أوصاف القرآن أنّه لا يتمكّن أحد من إيجاد مثله ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾[(٢)] فلا مطمع لأحد في البلوغ إليه ، وإذا كان صدر النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام قرآناً ، فلا يقدر أحد أن يبلغ إلىٰ معرفة حقيقتهم .

الثاني : لا يفهم حقيقة القرآن إلاّ المطهّرون ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ إنّه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسّه إلاّ المطهّرون ﴾[(٣)] .

لعلّ المعنىٰ أنّ القرآن الذي في كتاب مكنون - أي : مستور - لا

---

(١) الأعراف : ١٨١ .

(٢) الاسراء : ٨٨.

(٣) الواقعة : ٧٧ - ٧٩.

يمسّه إلاّ المطهّرون ، وهو غير ما يقرؤه الناس ، وغير المنقوش على القرطاس ، فإنّهما ليسا في كتاب مكنون .

ومعنىٰ عدم مسّه عدم إدراكه ، ويمكن جعله للأعمّ من المسّ الباطني والمسّ بالجسد ، ولذا لا يمسّه المحدث ، ولعلّه لذلك تمسّك بقوله ﴿ لا يمسّه إلاّ المطهّرون ﴾ علىٰ عدم جواز مسّ المحدث لكتابة القرآن على القراطيس والألواح وغيرهما ، أو من باب الإستعمال في أكثر من معنىٰ ، ومسّ المطهّرين القرآن الذي في كتاب مكنون هو وجوده العلمي في صدورهم المقدّسة .

ولا ريب باتّفاق المسلمين والآيات والأخبار أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله من المطهّرين ، وكذا علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا ، وكذا أولادهم المعصومون عليهم السلام ، وسيأتي بيان مفاد الآية .

ومن ذلك يظهر أنّ في صدر فاطمة الزهراء سلام اللّه عليها حقيقة القرآن الذي ذكرنا أوصافه ، فهي المعصومة المطهّرة .

الثالث : قال اللّه تعالىٰ : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن علىٰ جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية اللّه ﴾[1] .

قال في التبيان : يقول اللّه تعالىٰ معظّماً لشأن القرآن الذي أنزله مكبّراً لحاله في جلالة موقعه ، بأنّه لو أُنزل القرآن علىٰ جبل لرئي الجبل خاشعاً ، والمراد به المثل ، وتقديره : لو كان الجبل ممّا ينزل عليه القرآن ولو شعر به مع غلظه وجفاء طبعه وكبر جسمه لخشع لمنزلته تعظيماً

---

(١) الحشر : ٢١ .

لشأنه ، ولتصدّع من خشيته ، فالإنسان أحقّ بهذا لو عقل الأحكام التي فيه [١] إنتهىٰ .

قلت : إذا كان صدر النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام قرآناً ، فله هذه الجلالة والعظمة ، ولذا ينبغي الخشوع والخضوع لهما لهذا المقام الذي أعطاهما اللّه تعالىٰ ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول ﴾[٢] وقال تعالىٰ : ﴿إنّ الذين يغضّون أصواتهم عند رسول اللّه أُولئك الذين امتحن اللّه قلوبهم للتقوىٰ ﴾[٣] ولعلّه لأنّ المتّقي لما عرف جلالتهما ، فيكون خاضعاً بقلبه لهما .

الرابع : قال اللّه تعالىٰ : ﴿ ولو أنّ قرآناً سيّرت به الجبال أو قطّعت به الأرض أو كلّم به الموتىٰ ﴾[٤] .

قيل : جواب « لو » محذوف ، أي : كان هذا القرآن . فإذا كان صدر النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام قرآناً ، فهم قادرون علىٰ تسيير الجبال وتكلّم الموتىٰ وتقطيع الأرض . ويحتمل أن يكون القدرة علىٰ المذكورات بعض ما يكون من الآثار للقرآن ، ويكون المراد القدرة علىٰ كلّ تصرّف في الكون ، فإذا كان صدر النبي صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام قرآناً كذلك ، فلهم التصرّف كذلك [٥]، ويسمّىٰ ذلك بالولاية التكوينيّة ،

---

(١) التبيان ٢ : ٥٧٢ .

(٢) الحجرات : ٢ .

(٣) الحجرات : ٣ .

(٤) الرعد : ٣١ .

(٥) روىٰ في الكافي [١ : ٢٢٦ ح ٧] بإسناده عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام قال : قلت له :

والنبيّ ﷺ يقدر على الإتيان بالمعجزات ، من ردّ الشمس وشقّ القمر علىٰ ما روي ، وغيرهما.

وفي القرآن ذكر بعض من له بعض الولاية التكوينيّة ، فقال عزّ من قائل : ﴿ وقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك فلمّا رآه مستقرّاً عنده ﴾ الآيات ، فأحضر عرش المرأة التي حكى الله تعالىٰ عنها في كتابه ، وكان عنده علم بعض الكتاب علىٰ ما يقتضيه كلمة « من » فكيف بمن كان عنده علم الكتاب كلّه ، وقال عيسىٰ عليه السلام : ﴿ وأبرأ الأكمه والأبرص ﴾ .

جعلت فداك أخبرني عن النبيّ ﷺ ورث النبيّين كلّهم ؟ قال : نعم ، قلت : من لدن آدم حتّى انتهىٰ إلىٰ نفسه ؟ قال : ما بعث الله نبيّاً إلاّ ومحمّد ﷺ أعلم منه ، قال : قلت : إنّ عيسى بن مريم كان يحيي الموتىٰ باذن الله ، قال : صدقت وسليمان بن داود كان يفهم منطق الطير ، وكان رسول الله ﷺ يقدر علىٰ هذه المنازل .

قال : فقال : إنّ سليمان بن داود قال للهدهد حين فقده وشكّ في أمره ﴿ فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ حين فقده ، فغضب عليه ، فقال : ﴿ لأُعذّبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتينّي بسلطان مبين ﴾ .

وإنّما غضب لأنّه كان يدلّه على الماء ، فهذا وهو طائر فد أُعطي مالم يعط سليمان ، وقد كانت الريح والنمل والإنس والجنّ والشياطين والمردة له طائعين ، ولم يكن يعرف الماء تحت الهواء ، وكان الطير يعرفه ، وإنّ الله يقول في كتابه ﴿ ولو أنّ قرآناً سيّرت به الجبال أو قطّعت به الأرض أو كلّم به الموتىٰ ﴾ .

وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تيسّر به الجبال وتقطّع به البلدان ، وتحيي به الموتىٰ ، ونحن نعرف الماء تحت الهواء ، وإنّ في كتاب الله لآيات ما يراد بها أمر إلاّ أن يأذن الله به مع ما قد يأذن الله ممّا كتبه الماضون ، جعله الله لنا في أُمّ الكتاب ، إنّ الله يقول ﴿ وما من غائبة في السماء والأرض إلاّ في كتاب مبين ﴾ ثمّ قال : ﴿ ثمّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ فنحن الذين اصطفانا الله عزّوجلّ وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كلّ شيء .

الفصل الثامن

في بعض الآيات الدالّة بمعونة التدبّر فيها علىٰ مدح أهل البيت عليهم السلام وبعض الآيات الدالّة علىٰ ذمّ مخالفيهم وأعدائهم

لا يخفىٰ أنّ الآيات القرآنيّة مدحت أشخاصاً بعينهم كالأنبياء عليهم السلام، وذمّت أشخاصاً بعينهم، كالكفّار والمنافقين الذين ظهر نفاقهم.

والمسلمون يعرفون الفريقين، يتولّون ويحبّون الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون حقّاً، ويجتنبون المعروفين بالكفر والنفاق، ويبتعدون عنهم.

ومدح طائفة، وذمّ طائفة أُخرىٰ، لم يصرّح بالمراد منهم، فكان بنا إلىٰ تمييز الممدوحين عن المذمومين أعظم الحاجة لنعرف من مدحهم وأمر باتّباعهم ومحبّتهم وبالتأسّي بهم، ومن ذمّهم وأمرنا بمخالفتهم واجتناب سيرتهم.

قال الله سبحانه في الطائفة الأُولىٰ: ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أُولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاًّ وعد الله الحسنىٰ وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ❊

درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[١] .

وقال تعالىٰ شأنه : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير ﴾[٢] وقال سبحانه : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يتذكّر أُولوا الألباب ﴾[٣] وقال سبحانه : ﴿ أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لا يهدي إلاّ أن يهدىٰ فما لكم كيف تحكمون ﴾[٤] إلىٰ غير ذلك من الآيات .

وقال في الطائفة الثانية : ﴿ ومن الناس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ ﴿ صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾[٥] وقال سبحانه : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتّبع كلّ شيطان مريد ﴾[٦] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ومن الناس من يتّخذ من دون الله أنداداً ﴾[٧] وقال تعالىٰ: ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ﴾[٨] وقال تعالىٰ : ﴿ وممّن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾[٩] .

---

(١) النساء : ٩٥ – ٩٦ .

(٢) المجادلة : ١١ .

(٣) الزمر : ٩ .

(٤) يونس : ٣٥ .

(٥) البقرة : ٨ – ١٨ .

(٦) الحجّ : ٣ .

(٧) البقرة : ١٦٥ .

(٨) البقرة : ٢٠٤ .

(٩) التوبة : ١٠١ .

إلىٰ غير ذلك من الآيات الذامّة لعنوان كلّيّ لابدّ لنا من تمييزهم حتّىٰ لا تكون مصداق قوله تعالىٰ ﴿ إذ تبرّأ الذين اتّبعوا من الذين اتّبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب ۞ وقال الذين اتّبعوا لو أنّ لنا كرّة فنتبرّأ منهم كما تبرّأوا منّا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾[١].

فلابدّ لنا من استعلام الطائفتين بحيث لا يشوبه شكّ ونكون علىٰ علم، أي: الإعتقاد بالشيء علىٰ ما هو عليه.

والآيات القرآنيّة تدلّنا علىٰ مدح أهل البيت علي بن أبي طالب وفاطمة وأولادهما المعصومين عليهم السلام، وذمّ مخالفيهم وغاصبي حقوقهم ومناصبهم.

وقد تقدّم في الفصول السابقة صفات الخليفة، ونبيّن في هذا الفصل الآيات الدالّة علىٰ أنّ الخليفة في أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله لا في مخالفيهم، فهذا الفصل يدلّنا علىٰ تعيين ما اختلفوا فيه، وهو خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله بلا فصل، هل هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أو غيره؟ مع قطع النظر عن التواريخ المسلّمة الموثوقة من الفريقين علىٰ أنّ عليّاً عليه السلام واجد للصفات المعتبرة في الخليفة التي دلّت آيات القرآن علىٰ اعتبارها فيه.

أقول: قد وردت آيات في مدح أهل البيت باتّفاق المفسّرين، كآية التطهير ونحوها، ووردت آيات تنطبق عليهم من باب أحد المصاديق إنطباقاً ظاهراً، ووردت آيات يمكن إنطباقها عليهم بعد تجريد معاني

---

(١) البقرة: ١٦٦ - ١٦٧.

الألفاظ عن الخصوصيّات التي ليست دخيلة في الحكم علىٰ موضوعه ، فهنا أبواب ثلاثة :

الأوّل : في الآيات المادحة لهم باتّفاق المفسّرين .

الثاني : الآيات التي تنطبق عليهم أو علىٰ مخالفيهم من حيث أنّهم أظهر مصاديقها .

الثالث : الآيات التي تنطبق عليهم أو علىٰ مخالفيهم بعد تجريد معنى الآية عن الملازمات التي لا خصوصيّة لها في ترتّب الأثر على المعنىٰ بعد التأمّل وضمّ الآيات بعضها إلىٰ بعض لتبيين المراد منها ، والإستعانة في فهم بعضها من البعض الآخر .

و قبل ذلك نذكر مقدّمة ، وهي : أنّ القرآن كما في الخبر : يجري كما تجري الشمس والقمر[١] . وقد ضرب اللّه سبحانه فيه الأمثال ، قال اللّه سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل ﴾[٢] وقال سبحانه : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل ﴾[٣] وقال سبحانه : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتّقين ﴾[٤] وقال سبحانه : ﴿لقد كان في قصصهم عبرة ﴾[٥] .

والمثل ينتقل منه إلىٰ مثله ، فينتقل من قضيّة جزئيّة إلىٰ قضيّة كلّيّة ؛

---

(١) بحار الأنوار ٢٣ : ١٩٧ ح ٢٧ .

(٢) الاسراء : ٨٩ .

(٣) الروم : ٥٨ .

(٤) النور : ٣٤ .

(٥) يوسف : ١١١ .

لأنّ الإنتقال من اللفظ إلى المعنىٰ واستفادة المطلب من الكلام ، ليس منحصراً في ما استعمل فيه اللفظ ابتداءً ، بل تكون من وجوه أُخر :

أحدها : ما جرت طريقة العقلاء عليه من بيان الأُمور الكلّيّة في ضمن الأمثلة الجزئيّة للإنتقال إلىٰ علّة الحكم التي توجب كلّيّة الحكم .

توضيحه : أنّ لكلّ من المطالب المذكورة في القرآن معان محدودة جزئيّة هي تلك القصّة الخاصّة ، وحقائق كلّيّة لا تختصّ بمورد الآية ، وهي تحصل من تجريد الجزئيّات عن الخصوصيّات التي لا دخل لها في نفس تلك الحقيقة ، فإنّ الذين نزلت فيهم الآية لهم خصوصيّات ليست دخيلة في الحكم المذكور في الآية ، وإنّما مناط الحكم القدر المشترك الحاصل فيهم وفي من كان له مثل أعمالهم .

فالجزئيّات ومنها مورد الآية مثلاً داخلة تحت كلّيّ يعمّ الأفراد الماضية والآتية ، فكلّ خبر أو إنشاء تعلّق بموضوع جزئيّ حقيقيّ ، فإنّما يتعلّق به من حيث العنوان الكلّي الذي هو المناط في تعلّقه .

قال بعض المحقّقين : إنّ المؤمن الذي ذكر في قوله تعالىٰ في سورة يس ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل ﴾[1] شخص خاصّ قيل له أُدخل الجنّة ، قال : يا ليت قومي يعلمون .

لكن الذي يرتبط بوقوع هذا الخطاب عليه من خصوصيّاته هو إيمانه ، وأعماله الصالحة من دعوة قومه ، وتحمّل الأذىٰ في جنب اللّه سبحانه مثلاً ، دون شكله ولونه ونسبه وإسمه .

فتنزيل الآية هو ذلك الشخص بعينه ، ويجري في من كان عمله مثل

---

(١) يس : ٢٠ .

عمله ، فمفاده قضيّة كلّيّة ، هو أنّ كلّ من آمن وعمل كذا مثلاً يقال له أُدخل الجنّة ممّن مضىٰ وممّن يأتي كلّما كان شخص بصفة كذا وقع عليه الحكم المذكور إنتهىٰ .

أقول : وهي طريقة العقلاء في بيان الأُمور الكلّيّة في ضمن الأمثلة الجزئيّة للإنتقال إلىٰ علّة الحكم ؛ لأنّ كلّ ما يقع علىٰ شيء لابدّ من علّة يختصّ بها ذلك الشيء من حيث أنّها موجبة للأثر الخاصّ ، وإلاّ كان كلّ شيء علّة لكلّ شيء ، وكان كلّ شيء يترتّب علىٰ كلّ شيء ، فعلّة الحكم هي التي توجب كلّيّة الحكم وجزئيّته .

ثانيها : أن يكون من قبيل الكناية ، فتارة يكون المعنى المقصود بالإفادة من الكلام خارجاً عن مفاد الكلام ، وأُخرىٰ يكون المقصود إفادة مضمون الكلام والمعنى الخارج عنه معاً ، كقولهم فلان مهزول الفصيل إذا كان لبيان هزال فصيله ، وإفادته منضمّاً إلىٰ بيان أنّه جواد .

ولعلّ من ذلك كثير من القصص والحكايات التي وضعها الحكماء والعقلاء لإفادة معان مغايرة لها لينتقل منها إليها من كان ذا لبّ وبصيرة ، كما يؤميء إليه مطابقة جملة منها لمواعظ شافية ، أو مطالب عالية ، فلا مانع من أن يكون لآيات القرآن العزيز مداليل كنائيّة ومثاليّة .

ويكون الحكمة في القصص المذكورة في القرآن ممّا جرىٰ على الأنبياء وأُممهم وغيرهم لبيان إفادتها والإنتقال منها إلىٰ ما يشابهها في هذه الأُمّة ، ونحوه ممّا يوجب تقوية العقول ، والتنبّه بإرشادهم إلىٰ نتائج أعمالهم ، وغير ذلك من الفوائد .

ثالثها : أن يذكر ما جرىٰ علىٰ موضوع شخصيّ بعنوان كلّيّ للإشارة إلىٰ جريان الحكم المذكور في نظائره ، مثل قوله تعالىٰ ﴿ إن جاءكم

فاسق بنبأ فتبيّنوا ﴾[١] فإنّه حكم كليّ وان كان مورده موضوع شخصيّ.

رابعها: أن يحكي المتكلّم شيئاً ويسكت عن ردّه في مقام لو كان كذباً لكان عليه ردّه، فيستفاد من الكلام صحّته.

خامسها: أن يكون اللفظ له معاني ومصاديق بحسب العوالم المختلفة، يعرفها من نزل الوحي عليهم وفي بيتهم، كالرزق فإنّ العلم مصداقه، وهو رزق الأرواح، كما أنّ المأكول والمشروب رزق الأبدان.

فبهذه الوجوه وغيرها[٢] ممّا ذكره بعض المحقّقين يمكن أن يكون للآيات القرآنيّة مداليل قد عرفها أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وبذلك يمكن تصحيح أكثر الروايات المشتملة علىٰ فضائل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة المعصومين عليهم السلام المذكورة في الكافي وبصائر الدرجات، وغيرهما المجموعة أكثرها في بحار الانوار بالوجوه المذكورة، فإنّها موافقة

(١) الحجرات: ٦.

(٢) مثل ما عن البصائر عن نصر بن قابوس، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ ﴿ وظلّ ممدود ❁ وماء مسكوب ❁ وفاكهة كثيرة ❁ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ قال: يا نصر إنّه ليس حيث يذهب الناس، إنّما هو العالم وما يخرج منه.

قال العلاّمة المجلسي رحمه الله: لعلّ المعنىٰ ليس حيث يذهب الناس من إنحصار جنّة المؤمنين في الجنّة الصوريّة الأُخرويّة، بل لهم في الدنيا أيضاً ببركة أئمّتهم عليهم السلام جنّات روحانيّة من ظلّ حمايتهم ولطفهم الممدود في الدنيا والآخرة، وماء مسكوب من علومهم الحقّة التي بها تحيي النفوس والأرواح، وفواكه كثيرة من أنواع معارفهم التي لا تنقطع عن شيعتهم، ولا يمنعون منها، وفرش مرفوعة ممّا يتلذّذون بها من حكمهم وآدابهم، بل لا يلتذّ المقرّبون في الآخرة أيضاً في الجنان الصوريّة إلاّ بتلك الملاذ المعنويّة التي كانوا يتنعّمون بها في الدنيا، كما يشهد به الأخبار إنتهىٰ.

قال في مرآة الأنوار (ص ١١): ولا تغفل عن جريان مثله في سائر نعم الجنّة، مثل أنهار الخمر وأمثالها.

للقرآن، بل للأخبار الصحيحة.

وبذلك يظهر مكانة الرواة، وإنّ رميهم بالضعف أو الغلوّ ربّما يكون ناشئاً عن عدم التوجّه إلىٰ ما ذكرنا من موافقة مضمون رواياتهم للآيات القرآنيّة.

وبهذا البيان يتّضح إمكان تصحيح الأخبار المفسّرة للآيات الواردة في مدائح المؤمنين عامّة أو خاصّة بالنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام فإنّ الملاك إن كان هو الإيمان الكامل، فهم أجلىٰ مصاديقه.

وكذا صحّة الروايات المفسّرة للآيات الواردة في ذمّ الكفّار والمنافقين عامّة أو خاصّة كفرعون وأضرابه بأعدائهم، فإنّ فرعون إنّما كان مذموماً لتكبّره على اللّٰه وادّعائه مالم يكن له من الربوبيّة، لا للونه وشكله ونسبه، فكلّ من كان علىٰ صفته، فهو مستحقّ للمذمّة التي استحقّها فرعون[1].

تتميم:

يذكر فيه أمران:

الأمر الأوّل: قد يكون إرادة المعاني المختلفة من باب إستعمال اللفظ وإرادة أكثر من معنىٰ واحد، وجوازه محلّ الخلاف، فبعضهم أحاله زاعماً أنّ اللفظ فانٍ في المعنىٰ، ولا يمكن إفناء شيء واحد في شيئين في زمان واحد، وبعضهم منع عن وقوعه.

---

(١) روى الكليني رحمه الله في الكافي [٨: ٣٦ ح ٨] بسنده عن أبي بصير، قال: قال الصادق عليه السلام: يا أبا محمّد ما من آية تقود إلى الجنّة ولا يذكر أهلها بخير إلاّ وهي فينا، وما من آية نزلت يذكر أهلها بشرّ وتسوق إلى النار إلاّ وهي في عدوّنا ومن خالفنا.

ولكن لا يبعد جوازه عقلاً ووقوعه ، نعم لابدّ من قرينة على الإستعمال . أمّا جوازه عقلاً ، فلأنّ المحال إفناء جسم واحد في جسمين ، وباب الإستعمال ليس من ذلك ؛ لأنّ المعنىٰ أمر اعتباريّ يمكن أن يلحظ إفناء اللفظ في المعنيين .

ويدّل عليه أنّه لو كان اللفظ مشتركاً بين معنيين في لغتين ، بأن كان لفظ واحد له معنىٰ بالفارسيّة وله معنىٰ بالعربيّة ، وكان للمولىٰ عبدين فارسيّ وعربيّ ، ثمّ خاطبهما بإحضار مايريد بهذا اللفظ ، فكلّ منهما يحضر عنده ما يفهمه ، هذا بناءً علىٰ أنّ اللفظ فانٍ في المعنىٰ ، ولكن لا يبعد أن يكون اللفظ علامة للمعنىٰ ، كما ورد في الخبر . وأمّا الوقوع ، فربّما يدلّ عليه بعض الأبيات .

الأمر الثاني : التنزيل للقرآن هو متن القرآن الذي أنزله جبرئيل عليه‌السلام ويمكن إطلاق التنزيل علىٰ ما ينزله جبرئيل عليه‌السلام مع القرآن بياناً للمراد من الآية قد فهمه جبرئيل عليه‌السلام بقرينة لفظيّة أو حاليّة ونحو ذلك .

ويمكن إستفادة هذا المعنىٰ من الأخبار ، ففي خبر أبي الجارود ، عن أبي جعفر عليه‌السلام إلىٰ أن قال : فنزلت ﴿ يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل ﴾ الحديث(١) .

وفي الخبر المرويّ في روضة الواعظين والإحتجاج عن أبي جعفر عليه‌السلام إلىٰ أن قال : فقال : ﴿ يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل اليك من ربّك – في علي – وإن لم تفعل ﴾ الحديث(٢) . بأن يكون « في علي »

---

(١) البرهان ١ : ٤٨٨ ح ١ .

(٢) البرهان ١ : ٤٣٨ .

نزل مع الآية أنزله جبرئيل عليه السلام لدلالة قرينة مقاليّة أو حاليّة دلّت علىٰ أنّ المراد ممّا أُنزل ما أنزل في حقّ علي عليه السلام .

وأمّا التأويل ، فهو ما يؤول إليه الآية ، ويكون من مصاديقها ، أو ما يكون الملاك التامّ في مورد الآية يتعدّىٰ إلىٰ نظيره ، مثلاً لفرعون وهامان نظيران من جميع الجهات في ما به الفرعونيّة ، وهو العتوّ على الله تعالىٰ ، بإلغاء خصوصيّة لون فرعون وجسده ونسبه .

وبهذا البيان يظهر أنّ الأخبار المذكورة في الكافي المشتمل علىٰ بعض الخصوصيّات التي غير موجودة في القرآن ذكر فيها أنّه تنزيل محمولة علىٰ ذلك(١) .

الباب الأوّل
في بعض الآيات المادحة لأهل البيت والأئمّة المعصومين عليهم السلام باتّفاق المفسّرين و غيرهم

و هي آيات :

آية التطهير :

الآية الأُولىٰ : قال اللّه تعالىٰ : ﴿ إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا ﴾(٢) نزلت الآية على الرسول صلى الله عليه وآله وهو معصوم مطهّر من كلّ رجس ، فهو خارج عن المخاطبين .

---

(١) منها : خبر أبي بصير ، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ ﴿ ومن يطع الله ورسوله - في ولاية علي وولاية الأئمّة من بعده - فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ هكذا نزلت . أُصول الكافي ١ : ٤١٤ ح ٨.

(٢) الأحزاب : ٣٣.

والإحتمالات فيها ثلاثه :

الأوّل : أن يكون المخاطبون خصوص أزواج النبيّ ﷺ ؛ لوقوع الآية في سياق الآيات الواردة فيهنّ.

ويدفع هذا الإحتمال أنّ الآية متوسّطة بين آيتين هما خطابان إلىٰ خصوص أزواج النبيّ ﷺ ، فلوكان المراد بها خصوصهنّ لكان اللازم تأنيث الضمير كالآيتين المكتنفتين بها .

الثاني : أن يكون المخاطبون أزواج النبيّ ﷺ وعلي بن أبى طالب عليه السلام وفاطمة و الحسن والحسين عليهم السلام .

و يدفعه أوّلاً : أنّه لو أُريد منها الإرادة التكوينيّة لاقتضت العصمة، ولاريب أنّ أزواج النبيّ ﷺ وسائر أقربائه غير علي وفاطمة والحسن الحسين عليهم السلام لم يكونوا معصومين .

وثانياً : كان ينبغي تأنيث الضمير ؛ لأنّ النساء أكثر ، إلاّ أن يضمّ إليهم أعمام النبيّ ﷺ وسائر أقربائه ، لكن لا ارتباط له حينئذ بما قبل الآية وما بعدها . ولا يخفىٰ أنّه على هذا الإحتمال وإن لم يكن صحيحاً ، تكون الآية شاملة لعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام قطعاً .

الثالث : أنّ يكون المخاطب خصوص علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام و هو الذي يناسبه تذكير الضمير ، وهناك قرائن أُخر تقتضي الإختصاص بهم . ولا يخفىٰ أنّ هذا التشقيق للإستفادة من نفس الآية . وأمّا مع ملاحظة الأخبار الواردة من الفريقين في تفسير الآية ونزولها ، فلا شكّ في اختصاصها بهم .

وينبغي توضيح الآية ، فنقول :

قوله تعالىٰ ﴿ إنّما ﴾ كلمة حصر تقتضي حصر إرادة اللّه تعالىٰ في

إذهاب الرجس عن أهل البيت عليهم السلام ، وهو متحقّق حين نزول الآيـة ، وإذهاب جنس الرجس بحيث لا يكـون فـيهم رجس أصـلاً يـقتضي العصمة عن كلّ ذنب وخطأ ، فيكون « إنّما » إبتداء الكلام غير مربوطة بسابقها .

وزعم الزمخشري أنّ كلمة « إنّما » تعليل لصدر الآية وسابقتها ، قال : ثمّ بيّن أنّه إنّما نهاهنّ وأمرهنّ ووعظهنّ لئلاّ يقارف أهل بـيت رسـول اللّه صلى الله عليه وآله المآثم ، وليتصونوا عنها بالتقوىٰ ، واستعار للـذنوب الرجس وللتقوىٰ الطهر ؛ لأنّ عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويـتدنّس ، كما يتلوّث بدنه بالأرجاس . وأمّا المـحسنات ، فـالعرض مـعها نـقيّ مصون كالثوب الطاهر ، وفي هذه الإستعارة ما ينفر أُولي الألباب عمّا كرهه اللّه لعباده ونهاهم عنه ، ويرغّبهم فيما رضيه لهم وأمرهم بـه[(١)] إنتهىٰ .

وفيه أنّ تذكير ضمير « عنكم » ينافي ذلك ، والعجب أنّه مـن أهـل الأدب كيف غفل عن ذلك ؟!.

إن قلت : هب أنّه غفل عن ذلك ، لكن يقال : إنّ المراد الأعـمّ مـن أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله وسائر أقربائه ، فغلب جانب الذكور .

قلت : إنّ الأحكام السابقة التي جعل كلمة « إنّما » تـعليلاً لهـا قـد خوطب في بعضها بنساء النبيّ خاصّة ، وهي قوله ﴿ يا نساء النبيّ لستنّ كأحد من النساء إن اتّقيتنّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي فـي قـلبه مرض وقلن قولاً مـعروفاً ❊ وقـرن فـي بـيوتكنّ ولا تـبرّجن تـبرّج

---

(١) الكشّاف ٣ : ٥٣٨ .

الجاهليّة الأُولىٰ وأقمن الصلاة وآتين الزكـاة وأطـعن الله ورسـوله ﴾ وليس لسائر أقرباء النبيّ ﷺ أحكام خاصّة مذكورة في الآيات حتّىٰ يعلّل بكلمة « إنّما » .

فلابدّ أن يكون علىٰ فرض إرادة العموم أن يكون كلمة « إنّما » تعليلاً لقوله « وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن اللّه ورسـوله » وهـو غـير مستقيم ؛ لأنّ هذه الأُمور لا تختصّ بأهل البيت وأقرباء النبيّ ﷺ ، بل هي واجبة علىٰ جميع المسلمين ، فلا وجه لذكر أهل البيت حينئذ .

قوله تعالىٰ ﴿ يريد ﴾ يحتمل أمرين :

الأوّل : الإرادة التكوينيّة التي يتعقّبها المـراد لا مـحالة ، فـإن كـان إخباراً عن تحقّقها ووقوعها ، فقد ثبت عصمتهم . وإن كان إخباراً عـن أنّها ستحقّق ، فلا محالة قد تحقّقت ؛ لأنّ اللّه لا يخلف الميعاد .

ولعلّ إتيان الفعل المضارع للـدلالة عـلىٰ أنّ المـمكن يـحتاج إلى الواجب في كلّ آن ، فلابدّ في وجوده من إعطاء الوجود له ، فإذهاب الرجس لابدّ أن يستمرّ ، ولا يكفي الإذهاب في زمان ، والفعل المضارع يدلّ علىٰ ذلك .

الثاني : أن تكون الإرادة تشريعيّة ، بمعنىٰ أنّه تعالىٰ أمركم بأشـياء ونهاكم عن أشياء ، كي تمتثلوا أوامره وتجتنبوا نواهيه ، ليذهب عنكم الرجس ويطهّركم تطهيرا ، نظير قوله تعالىٰ ﴿ ما يريد اللّه ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهّركم ﴾[1] .

لكن علىٰ هذا الإحتمال لا دلالة علىٰ وقوع إذهاب الرجس عنهم ،

---

(١) المائدة : ٦ .

لأنّ الإرادة التشريعيّة لا تقتضي وقوع المراد ؛ لتخلّفها عنه في من لم يمتثل أوامره ولم يجتنب نواهيه ، وتقدّم نقل كلام الزمخشري آنفاً أنّ المراد بالإرادة هي التشريعيّة .

أقول فيه أوّلاً : أنّ الإرادة التشريعيّة لا تناسب كلمة الحصر ؛ لأنّها ثابتة في حقّ غير أهل البيت ، فإنّ الله قد أراد وكلّف جميع الناس بالصلاة وغيرها . نعم يحتمل أن يكون ما توجّه إلى المعصومين من التكاليف بالإرادة التشريعيّة منحصراً فيهم لعدم قابليّة غيرهم .

وثانياً : أنّه لو لم يمتثل أوامر اللّه سبحانه ولم يجتنب نواهيه أحد ، فلا شكّ في أنّ علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام يمتثلون أوامر اللّه سبحانه ويجتنبون نواهيه ، فقد ترتّب عليهم الغاية من الإرادة التشريعيّة، وهو إذهاب الرجس وتطهيرهم تطهيرا . وعلىٰ كلّ تقدير فالآية تدلّ علىٰ إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم تطهيرا .

قوله تعالىٰ ﴿ ليذهب عنكم الرجس ﴾ الإذهاب أعمّ من أن يكون موجوداً ، أو كان له قابليّة الوجود ، وإذا خلق اللّه أرواحهم أنواراً لا ظلمة فيها ، فقد أذهب عنهم الظلمة بأن جعلهم أنواراً ، ولا يعتبر في صدق الإذهاب وجود الشيء حتّىٰ يقال : أذهبه عنهم ، بل يكفي في الصدق إمكان الوجود ، فلا يقال أذهب الرجس عن الجدار ؛ لعدم الشأنيّة فيه .

و ينبغي ذكر كلام اللغويّين في معنى الرجس :

قال الراغب : الرجس الشيء القذر ، والرجس يكون علىٰ أربعة أوجه : إمّا من حيث الطبع ، وإمّا من جهة العقل ، وإمّا من جهة الشرع ،

وإمّا من كلّ ذلك [١].

أقول : هذا تطبيق منه علىٰ موارد الإستعمال .

قال في تهذيب اللغة : قال الزجّاج : الرجس في اللّغة إسم لكلّ ما استقذر من عمل ... وقال إبن السكّيت : ... والرجس الشيء القذر ... وقال الليث : والرجس في القرآن العذاب كالرجز وكلّ قذر رجس [٢].

و قال في المقاييس : الرجس أصل يدلّ على اختلاط ، يقال : هم في مرجوسة من أمرهم أي اختلاط .... ومن الباب الرجس القذر لأنّه لطخ وخلط [٣].

أقول : لعلّ معنى الرجس هو المستقذر الذي ينبغي التنزّه عنه ، ففي بعض الأشياء يكون مساوقاً لنجاسته ، وفي بعضها لبعده عن النورانيّة ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ فمن يرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً كأنّما يصّعد في السماء كذلك يجعل اللّه الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ [٤].

ثمّ إنّ الايمان له مراتب ، فمقابله أيضاً ذات مراتب ، فإذا ذهب الرجس بتمامه ، فمقتضاه تحقّق الإيمان الكامل ، وإلاّ فبمقدار الإيمان ، وكذا في مقابل الإيمان وهو الكفر يزداد الرجس بمراتبه . قال تعالىٰ : ﴿ وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه إيماناً فأمّا الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأمّا الذين في قلوبهم مرض

(١) مفردات الراغب ص ١٨٨ .

(٢) تهذيب اللغة ١٠ : ٥٨٠ .

(٣) معجم مقاييس اللغة ٢ : ٤٠٩ .

(٤) الأنعام : ١٢٥ .

فزادتهم رجساً إلىٰ رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾[١] .

يستفاد من الآية أنّ الرجس ضدّ الإيمان ، وأنّه يـزداد كـما يـزداد الإيمان ، فإذا بلغ الايمان المبثوث على الجوارح والجوانح إلىٰ كماله ، فقد ذهب الرجس بتمامه .

تنبيه :

إنّ الكذب على اللّه وعلىٰ رسوله بل مطلقا ، والغضب على المؤمنين علىٰ إطاعتهم لربّ العالمين ، من الرجس وقد أذهب اللّه عنهم ، وانّـا نعلم قطعاً أنّ علياً عليه‌السلام قال : إنّي خليفة رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله بالنصّ عليّ من اللّه ومن رسـوله ، وهـو لا يكـذب ؛ لأنّ الكـذب مـن الرجس ، وإنّ فاطمة عليها‌السلام قد اعترفت بإمامة على عليه‌السلام لأنّ من مات ولم يعرف إمـام زمانه مات ميتة جاهليّة ، وفاطمة المعصومة سلام اللّه عليها لم تمت إلاّ كان إمامها علي عليه‌السلام ، وغضبت على الغاصبين منصبه ، ولا تغضب لغير رضا اللّه سبحانه ؛ لأنّ الغضب كذلك من الرجس .

واذا ثبت بهذه الآية الشريفة أنّ فاطمة عليها‌السلام معصومة لا تكـذب ولا تخطىء ، فاعتقادها بإمامة بعلها يدلّ علىٰ أنّه خليفة رسـول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وغضبها على الغاصبين يدلّ علىٰ بعدهم عن رحمة الله ، وأيضاً قـولها يفيد العلم لجـميع المسـلمين ، واذا حـصل مـن قـولها العـلم لجـميع المسلمين، فلا مجال لمطالبتها بالبيّنة .

فاذا طلبت إرثها من المتسلّطين علىٰ إرث أبيها عـدوانـاً ، فـإنّها لا

---

(١) البقرة : ١٢٤ .

تكذب ، بل هي تعلم أنّها ترث ، فيكون الخبر الذي اختلقه ووضعه الغاصب من أنّ النبيّ ﷺ قال : « ما تركناه صدقة » كذباً وموضوعاً ، ولذا جادلتهم بالقرآن الكريم ، وأظهرت أنّ زوجها أعلم منهم بعموم القرآن وخصوصه ، فإنّ من طهّره الله ، فهو من المطهّرين المذكورين في قوله تعالىٰ ﴿ لا يمسّه إلاّ المطهّرون ﴾ وتقدّم أنّ المراد من المسّ درك حقيقة القرآن واتّحاد أنفسهم المقدّسة به ، فهو أعرف بالقرآن من غيرهم .

أضف إلىٰ ذلك أنّ النبيّ ﷺ لو كان لا يورث أمواله ، وجب عليه أن يبلّغ هذا الحكم إلىٰ ابنته وبعلها ، وإلاّ لم يبلّغ أحكام اللّه ، ولم يكن للنبيّ ﷺ عذر في عدم إبلاغ هذا الحكم إلىٰ ابنته ، فمن ذلك يعلم ضرورة أنّ هذا الحكم لم يكن ، وأنّ الأنبياء كغيرهم يورث أموالهم علىٰ كتاب اللّه .

آية المباهلة :

الآية الثانية : قال اللّه تبارك وتعالىٰ : ﴿ فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا و أنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة اللّه على الكاذبين ﴾[١] .

اللغة : البهل ، قال في المصباح المنير : باهله مباهلة من باب قاتل لعن كلّ منهما الآخر ، وابتهل إلى اللّه تعالىٰ ضرع إليه [٢] إنتهىٰ .

---

(١) آل عمران : ٦١ .

(٢) مصباح المنير ص ٦٤ .

وعدّ في المقاييس من معانيه التضرّع في الدعاء ، فإنّ المتباهلين يدعو كلّ واحد منهما علىٰ صاحبه [١] إنتهىٰ .

قال في التبيان : من معانيه الدعاء بهلاك الكاذب ، قال : كاللعن وهو المباعدة من رحمة اللّه عقاباً علىٰ معصيته ، فلذلك لا يجوز أن يلعن من ليس بعاص من طفل أو بهيمة أو نحو ذلك [٢] إنتهىٰ .

أقول : إنّ موضوع المباهلة لتمييز المحقّ من المبطل ، وذلك لا يصحّ أن يفعل إلاّ بمن هو مأمون الباطن ، مقطوعاً علىٰ صحة عقيدته ، فلذا كان ينبغي علىٰ كلّ واحد منهما أن يأتي بأعزّ الأنفس عليه ، ليظهر أنّه علىٰ علم بأنّه على الحقّ ؛ لأنّ كلّ إنسان لا يريد هلاك أعزّ الأنفس الذي هو نفسه ونفس من كان يحبّه ، وإنّما يأتي بهم لعلمه بأنّه لا يصيبهم عذاب ، وقد عرف النصارىٰ ذلك ، فلذا صرفوا عن المباهلة .

ويفهم من قوله ﴿ فنجعل لعنة اللّه على الكاذبين ﴾ أنّ الذين أتىٰ بهم النبيّ صلى الله عليه وآله ليسوا كاذبين ولو بكذبة واحدة ، وهذا مدح بليغ لهم .

قوله تعالىٰ ﴿ أنفسنا ﴾ النفس هو الشخص بعينه في آيات كثيرة يراد به منها الشخص بعينه ، ولا يراد بالأنفس الجماعة ، ولذا صار المفسّرون في بيان معنىٰ قوله تعالىٰ ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ [٣] أنّه كيف يقتل كلّ شخص نفسه ؟ ولو سلّم أنّ الأنفس تشمل الجماعة المتّحدة في جهة واحدة ، فلابدّ من عناية ، وذلك واضح لمن لاحظ الآيات الشريفة .

وحينئذ نقول : ليس المراد من قوله تعالىٰ ﴿ وأنفسنا ﴾ نفس النبيّ :

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١ : ٣١١ .

(٢) التبيان ٢ : ٤٨٤ .

(٣) البقرة : ٥٤ .

لأنّه ذكر قبله قوله ﴿ ندع ﴾ فيلزم التكرار ، ولو كان المراد من أنـفسنا نفس النبيّ صلى الله عليه وآله للزم عدم ذكر عنوان ينطبق علىٰ علي بن أبي طالب عليه السلام ولو سلّم أنّ المراد بها جماعتنا الشـاملة للـنبيّ صلى الله عليه وآله وعـلي بـن أبـي طالب عليه السلام فلا وجه لذكر أبنائنا ، فإنّهم أيضاً من جملة أنفسنا ، بل أقرب من علي بن أبي طالب عليه السلام .

فهذا كلّه يصير قرينة علىٰ أنّ المراد من أنفسنا خصوص علي بن أبي طالب عليه السلام ، فيكون إطلاق نفس النبيّ صلى الله عليه وآله عليه دالاًّ علىٰ أنّه كنفسه في خصاله ، فهو أفضل ممّن يكون النبيّ صلى الله عليه وآله أفضل منه ، والنبيّ يحبّ نفسه لأنّها محبوبة لله ، وعلي عليه السلام محبوب عنده كـنفسه ، وحبّ النـبيّ صلى الله عليه وآله وبغضه لا يكونان إلاّ في اللّه فيكون ذلك من أجل أنّه أفضل العباد بعده.

الباب الثاني
في بعض الآيات المادحة للنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام بالإنطباق عليهم لكونهم أظهر الأفراد

منها : قوله تعالى ﴿ إنّ الأبـرار يشـربون مـن كأس كـان مـزاجـها كافورا ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ إنّ الأبرار لفي نعيم ﴾[٢] .

---

(١) الانسان : ٥ .

(٢) الإنفطار : ١٣ . رویٰ في البحار [٢٤ : ٢ ح ٥] عن كنز الفوائد بـإسناده عـن أبـي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّوجلّ ﴿ إنّ الأبرار لفي نعيم * وإنّ الفجّار لفـي جحيم ﴾ قال : الأبرار نحن هم ، والفجّار هم عدوّنا .

ورویٰ أيضاً عن المناقب بإسناده عن محمّد بن الحنفيّة ، عن الحسن بن علي عليهما السلام قال : كلّ ما في كتاب الله عزّوجلّ ﴿ إنّ الأبرار ﴾ فوالله ما أراد إلاّ علي بن أبي طـالب

الأبرار جمع برّ صفة مشبّهة ، برّ يبرّ بكسر الباء وفتحها برّاً بكسر الباء ومبرّة ، فهو برّ بفتح الباء .

وبيّن الله سبحانه البرّ في قوله ﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين وآتى المال علىٰ حبّه ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس أُولئك الذين صدقوا وأُولئك هم المتّقون ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ ليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكنّ البرّ من اتّقىٰ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾(٢) وقال تعالىٰ : ﴿ لن تنالوا البرّ حتّىٰ تنفقوا ممّا تحبّون ﴾(٣) .

وهذه الأوصاف المذكورة موجودة في النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام ، فهم أبرار من جميع الجهات ، فإنّهم مؤمنون حقيقة ، قد أعطوا أموالهم علىٰ حبّه في سبيل الله ، كما بيّن حالهم في سورة هل أتىٰ ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ووفوا بعهودهم ، وصبروا في البأساء والضرّاء وهم من الصادقين ، فهم من أظهر مصاديق الأبرار .

وفاطمة وأنا والحسين ؛ لأنّا نحن أبرار بآبائنا وأُمّهاتنا ، وقلوبنا علت بالطاعات والبرّ ، وتبرّأت من الدنيا وحبّها ، وأطعنا الله في جميع فرائضه ، وآمنّا بوحدانيّته ، وصدّقنا برسوله . (ح ٩) .

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) البقرة : ١٨٩ .

(٣) آل عمران : ٩٢ .

ومنها : قوله تعالىٰ ﴿ والسابقون السابقون * أُولئك المقرّبون ﴾[(١)] أي: السابقون إلى الإيمان في كلّ زمان ، فإنّ المؤمنين سبقوا أهل عصرهم إلى الايمان ، فإنّ السباق هو تقدّم البعض على البعض ، كما في قوله تعالىٰ ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾[(٢)] .

فإن قيل : إنّ المراد أن يتسابق إثنان ويسبق أحدهما الآخر ، فيمكن أن يقال : إنّ المؤمنين في كلّ زمان إن جاهد أحدهم حتّىٰ حصل على الإيمان الكامل ، وعلىٰ درجاته المبثوثة على الجوارح ، فقد سبق سائر المؤمنين ويكون من السابقين .

لكن يحتمل أن يكون المراد السابق من السابقين ، فيختصّ بالمؤمنين السابقين المذكور في قوله تعالىٰ ﴿ والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار ﴾[(٣)] لكن ظاهر التقييد بكونهم الأوّلين من

---

(١) الواقعة : ١٠ - ١١ . روىٰ في البحار [٢٤ : ٣ ح ٧] عن كنز الفوائد بإسناده عن أبي حمزة ، عن أبي جعفر عليه‌السلام عن أبيه علي بن الحسين عليهما‌السلام عن جابر بن عبد الله رضي‌الله‌عنه عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله قال : قوله عزّوجلّ ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ قال : هو أشرف شراب في الجنّة يشربه محمّد وآل محمّد ، وهم المقرّبون السابقون : رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وعلي بن أبي طالب والأئمّة وفاطمة وخديجة صلوات الله عليهم وذرّيّتهم الذين اتّبعوهم بايمان ، يتسنّم عليهم من أعالي دورهم .

وروىٰ عن المناقب ، عن الصادق عليه‌السلام في قوله تعالىٰ ﴿ والسابقون السابقون * أُولئك المقرّبون ﴾ قال : نحن السابقون ، ونحن الآخرون . (ح ١١) .

وعن إبن عبّاس ، قال : سألت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله عن قول الله عزّوجلّ ﴿ والسابقون السابقون * أُولئك المقرّبون ﴾ فقال : قال لي جبرئيل : ذاك علي وشيعته هم السابقون إلى الجنّة المقرّبون من الله بكرامته لهم . (ح ١٣) وغيرها .

(٢) المائدة : ٤٨ .

(٣) التوبة : ١٠٠ .

المهاجرين والأنصار وجود سابقين من غيرهم ، فلعلّ المراد بهم من ذكرهم الله تعالىٰ في قوله ﴿ إنّ الذين من خشية ربّهم مشفقون ✻ والذين هم بآيات ربّهم يؤمنون ✻ والذين هم بربّهم لا يشركون ✻ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنّهم إلىٰ ربّهم راجعون ✻ أُولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾[(١)] .

أو المراد بهم السابقون في التقوىٰ على السابقين إليها وهم المقرّبون ، وهؤلاء ينبغي أن يكونوا في مرتبة راقية كمرتبة النبوّة ؛ لأنّ الله تعالىٰ قال في حقّ عيسىٰ عليه‌السلام : ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ﴾[(٢)] ولا ريب في أنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام من السابقين المقرّبين .

ومنها : قوله تعالىٰ ﴿ إنّما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[(٣)] فإنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله والأئمّة المعصومين عليهم‌السلام من أجلىٰ مصاديق العلماء ؛ لأنّهم يعلمون الكتاب المشتمل علىٰ علم ما كان وما يكون ، فهم مصاديق قوله تعالىٰ ﴿ إنّ في ذلك لآيات للعالمين ﴾[(٤)] وقوله تعالىٰ ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[(٥)] .

وقد وردت أخبار كثيرة في الكافي والبحار وغيرهما في تطبيق ما جاء في القرآن الكريم من المدح للمؤمنين والمتّقين والمتوكّلين

(١) المؤمنون : ٥٧ ـ ٦١ .

(٢) آل عمران : ٤٥ .

(٣) فاطر : ٢٨ .

(٤) الروم : ٢٢ .

(٥) الزمر : ٩ .

والصابرين وسائر الفضائل على الأئمّة المعصومين عليهم السلام، فليرجع إليها من أراد.

وهم أجلىٰ وأتمّ مصاديق أُولي النهىٰ، والعلماء، وعباد الرحمٰن، والشجرة الطيّبة، والذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا.

الباب الثالث

في بعض الآيات التي تنطبق على الأئمّة المعصومين عليهم السلام أو علىٰ مخالفيهم بعد تجريد معنى الآية عن الخصوصيّات التي لا دخل لها في ترتّب الحكم، أو تدلّ علىٰ مدح الأئمّة المعصومين عليهم السلام أو ذمّ أعدائهم بعد إرجاعها إلىٰ بعض الآيات الأُخر

منها: قوله تعالىٰ ﴿ وهدوا إلى الطيّب من القول وهدوا إلىٰ صراط الحميد ﴾[1].

فإنّه قد تبيّن ممّا ذكرناه في أوصاف الكتاب أنّ من أوصافه أنّه صراط مستقيم وصراط حميد، وذكرنا إتّحاد الأئمّة المعصومين عليهم السلام مع الكتاب، فهم الصراط الحميد، وعليه فالمؤمنون هدوا إلىٰ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[2].

ومثله قوله تعالىٰ ﴿ فاستمسك بالذي أُوحي إليك إنّك علىٰ صراط

---

(١) الحجّ: ٢٤.

(٢) روىٰ في الكافي [١: ٤٢٦ ح ٧١] بإسناده عن عبد الرحمٰن بن كثير، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالىٰ ﴿ وهدوا إلى الطيّب من القول وهدوا إلىٰ صراط الحميد ﴾ قال: ذاك حمزة وجعفر وعبيدة وسلمان وأبوذرّ والمقداد بن الأسود وعمّار، هدوا إلىٰ أمير المؤمنين عليه السلام.

مستقيم ﴾[١] أي : إنّك علىٰ ولاية علي عليه السلام ، وعلي عليه السلام هو الصراط المستقيم[٢].

ومنها : قوله تعالىٰ ﴿ وحبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾[٣] فإنّه بعد ما تقدّم أنّ الإيمان إن تجسّد ، فهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، كما عن النبيّ صلى الله عليه وآله حين برز علي عليه السلام إلىٰ عمرو بن عبد ودّ، أنّه قال : برز الإيمان كلّه إلى الكفر كلّه .

وعلىٰ هذا فيمكن أن يقال : إنّ المعنىٰ حبّب إليكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، وهكذا العكس بالنسبة إلىٰ قوله ﴿ كرّه إليكم الكفر ﴾[٤].

ومنها : قوله تعالىٰ ﴿ لا يملكون الشفاعة إلاّ من اتّخذ عند الرحمٰن عهدا ﴾[٥] يدلّ علىٰ أنّ عليّاً عليه السلام يشفع ؛ لأنّ من مصاديق العهد[٦] الإمامة؛ لما تقدّم من الآيات أنّ إبراهيم عليه السلام سأل الإمامة لذرّيّته ، فقال

---

(١) الزخرف : ٤٢ .

(٢) أُصول الكافي ١ : ٤١٧ ح ٢٤ .

(٣) الحجرات : ٧ .

(٤) روىٰ في الكافي [١ : ٤٢٦ ح ٧١] في حديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال : وقوله ﴿ حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم ﴾ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ﴿ وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ الأوّل والثاني والثالث .

(٥) مريم : ٨٧.

(٦) روى الكليني رحمه الله في الكافي [١ : ٤٣١ ح ٨٩] بإسناده عن سماعة ، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ ﴿ وأوفوا بعهدي ﴾ قال : بولاية أمير المؤمنين عليه السلام ﴿ أُوف بعهدكم ﴾ أُوف لكم بالجنّة .

سبحانه : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾(١) ومعناه أنّه يناله غير الظالمين ، وإلاّ كان حقّه أن يقول : لا ينال عهدي ذرّيّتك ، فوصل العهد - أي الإمامة - إلىٰ من كان من ذرّيّته موحّداً من أوّل عمره إلىٰ آخره .

وقد سبق تطبيقه علىٰ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام ، فهو يملك الشفاعة بحسب هذه الآية . فهو مأذون(٢) من قبل الله في الشفاعة ، فيكون مصداقاً لقوله تعالىٰ ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلاّ لمن أذن له الرحمٰن ﴾(٣) .

ومنها : قوله تعالىٰ ﴿ ويوم يعضّ الظالم علىٰ يديه يقول يا ليتني اتّخذت مع الرسول سبيلاً ﴾(٤) يدلّ علىٰ أنّ السبيل علي عليه‌السلام ، فإنّ السبيل متّحد مع الصراط المستقيم .

وقد سبق أنّ الأئمّة المعصومين عليهم‌السلام هم الصراط المستقيم ؛ لأنّ الكتاب صراط مستقيم ، هو في صدورهم . والمراد بالسبيل هو الصراط المستقيم ، كما يدلّ عليه ما سبق من أنّ علياً عليه‌السلام هو الصراط المستقيم.

فعلىٰ هذا يكون معنى الآية تمنّي الظالم أن يكون قد اتّخذ مع الرسول شخصاً آخر وهو السبيل ، وإن كان يظهر أنّ المراد أن يتّخذ مصحاباً للرسول سبيله ، أي : يكون مع الرسول ، فيكون ذكر السبيل

---

(١) البقرة : ١٢٤ .

(٢) روىٰ في البحار [٢٤ : ٢٥٧ ح ١] عن المناقب ، عن الكاظم عليه‌السلام في قوله تعالىٰ ﴿ إلاّ من أذن له الرحمٰن ﴾ الآية ، قال : نحن والله المأذون لهم يوم القيامة والقائلون صواباً .

(٣) طه : ١٠٩ .

(٤) الفرقان : ٢٧ .

تأكيداً، لكن على ما ذكرنا يكون له معنى آخر.

ومنها: قوله تعالى ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربّها ﴾(١) يمكن تطبيقه على النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام، بأن يكون المراد ربّ الأرض، وهو الله سبحانه، ونور الله ينطبق على النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام؛ لأنّهم واجدون للكتاب وهو نور، والكتاب كتاب الله فهم نور الله، والدنيا وإن أشرقت بنور ربّها وهو الشمس، لكن في يوم القيامة لا شمس ولا قمر ولا نجوم، ففيه نور آخر(٢).

ختام:

نكتفي بهذا المقدار في هذا المقام، ويمكن بما ذكرنا تصحيح أكثر الأخبار الواردة في تأويل الآيات بالنبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام المذكورة في الكافي ومجلّدات الإمامة من البحار، فلاحظ.

---

(١) الزمر: ٦٩.

(٢) روى علي بن ابراهيم في تفسيره [٢ : ٢٥٣] بإسناده عن المفضّل بن عمر أنّه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول في قوله ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربّها ﴾ قال: ربّ الأرض يعني إمام الأرض، فقلت: إذا خرج يكون ماذا؟ قال: إذاً يستغني الناس عن ضوء الشمس ونور القمر، ويجتزّون بنور الإمام.

الفصل التاسع

في أنّ مصداق الآيات المذكورة في الفصول المتقدّمة في هذا الزمان هو الإمام الثاني عشر الحجّة بن الحسن عجّل الله فرجه

تقدّم في الفصول السابقة ذكر الآيات القرآنيّة الدالّة علىٰ وجود الإمام المعصوم ، وأنّه المتّصف بصفات الكتاب الكريم من حين وفاة النبيّ ﷺ إلىٰ آخر زمان وجود المكلّفين ، وإلىٰ ما شاء الله تبارك وتعالىٰ .

وأمّا مصاديق الآيات المذكورة ، فهم أئمّة أهل البيت عليهم‌السلام ، وأوّلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام ، فإنّ الصفات التي اعتبر القرآن الكريم توفّرها في الإمام كانت موجودة فيه ، ولا يحتمل وجودها في غيره ؛ لأنّ جماعة ممّن صحب النبيّ ﷺ كانوا كفّاراً فأسلموا ، فلذا لا يستحقّون الإمامة ، وجماعة منهم نشأوا في الإسلام ليس لهم تلك الصفات .

وهذا واضح لمن عرف مقام الإمام علي بن أبي طالب عليه‌السلام ، وعرف سائر أصحاب النبيّ ﷺ ، ولا مجال لإنكاره لمن لم يعاند ولم يتعصّب.

ثمّ بعده لا يكون الواجد لتلك الصفات إلاّ ريحانتي رسول الله ﷺ فالإمام هو الحسن بن علي عليهما‌السلام ، ثم الحسين بن علي عليهما‌السلام ، وهكذا لا

يوجد المتّصف بتلك الصفات إلاّ أولاد الحسين عليهم السلام التسعة المعصومون واحداً بعد واحدٍ إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليهما السلام .

وبعد وفاته يكون الإمام ولده الحجّة المهدي - عجّل الله تعالىٰ فرجه - فإنّه لا يوجد من يتّصف بتلك الصفات غيره ، فإن لم يكن هو الإمام لزم عدم دلالة الآيات القرآنيّة علىٰ ذلك ، وهو خلف لما أثبتناه ، فهو المتعيّن لمصداق الآيات .

ووجود الإمام المهدي - عجّل الله تعالىٰ فرجه - وكونه ولداً للإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام المولود عام (٢٥٥) وغيبته وظهوره من الضروريّات عند الشيعة الإماميّة الإثني عشريّة ، وقد ثبت ذلك بالأخبار المتواترة عن النبيّ صلى الله عليه وآله ، والأئمّة المعصومين عليهم السلام ، وعلماء الشيعة من زمان الإمام الحسن بن علي العسكري عليهما السلام إلىٰ زماننا أثبتوا ذلك وأظهروا الحقّ واعتقدوه ، وهم في العلم والتحقيق والتدقيق لا يشقّ لهم غبار ، وفي الزهد والتقوىٰ والورع والعبادة قد بلغوا الغاية ، وهم جماعة كبيرة يبلغون الآلاف جيلاً بعد جيل في جميع الأعصار .

وقد كان للإمام المهدي - عجّل الله تعالىٰ فرجه - خمس سنين حين وفاة أبيه علىٰ ما جاء في الروايات ، ونصّ عليه المؤرّخون ، واقتضت الحكمة الإلٰهيّة أن يكون غائباً عن الأبصار ، كالشمس التي غيّبها السحاب ، وأنّه يظهر ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً ، أبقاه الله تعالىٰ بقدرته الكاملة التي أخبر عنها في النبيّ يونس عليه السلام ، حيث قال تعالىٰ شأنه : ﴿ ولو لا أنّه كان من المسبّحين للبث

في بطنه إلىٰ يوم يبعثون ﴾[١] أي : لبث حيّاً إلىٰ يوم البعث ، وهو عذاب لروحه ، وأمّا الجسد الميّت فلا فرق بين بقائه في بطن الحوت أوبطن الأرض .

وليس الغرض من عقد هذا الفصل بيان أحواله وشؤونه - عجّل الله تعالىٰ فرجه - فإنّ الكتب التي كتبت في ذلك من علماء الشيعة قد تكفّلت بالتفصيل والتحقيق في ذلك ، وشمّر العلماء ساعد الجدّ في الدفاع عن هذا المعتقد الحقّ خلفاً عن سلف ، حتّىٰ بلغت هذه العقيدة من الوضوح والصدق والثبوت والإثبات بحيث لا ينكرها إلاّ جاهل أو معاند .

وقد خلّفوا من الآثار والكتب المؤلّفة في هذا المجال ما انتشر في الآفاق ، بل قصدنا تكرار تلك الصفات المذكورة في الآيات السابقة لتطبيقها على الإمام الثاني عشر عجّل الله تعالىٰ فرجه .

فنقول : هو الذي بوجوده ثبتت الأرض ، ولولاه لساخت بأهلها ، وبوجوده تنزل السماء قطرها ، وتخرج الأرض بركاتها ، وبه حياة من يمشي على الأرض ، علىٰ ما تقدّم بيانه في الفصل الأوّل .

وهو الذي اختاره الله تعالىٰ للإمامة ، كما اختار آباءه الطاهرين عليهم السلام للإمامة ، ليس للناس الخيرة في تعيين الإمام ، وهو خليفة الله في أرضه ، وهذه الخلافة إستمرار لخلافة آدم ، فإنّه أوّل خليفة لله في أرضه ، ثمّ بعده الأوصياء والأنبياء إلىٰ أن انتهت خلافة الله إلىٰ نبيّنا أفضل الأنبياء وأشرفهم محمّد صلى الله عليه وآله ، وأمّا بعد وفاته فخليفة الله في أرضه أمير

---

(١) الصافّات : ١٤٤ .

المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلىٰ أن انتهت إليه عجّل الله فرجه .

وهو الهادي للمكلّفين من الإنس والجنّ هداية واقعيّة لا خطأ فيها ؛ لأنّه المعصوم عن الخطأ ، وهو وإن حجب عن الأبصار ، إلاّ أنّ بصائر المؤمنين تستضيء بنوره وتهتدي بهداه ، وهو حجّة الله البالغة على العباد .

وهو الذي أكمل الله الدين بولاية جدّه أمير المومنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وولاية أولاده المعصومين عليهم السلام ، وأتمم على المكلّفين نعمته بولايتهم ، ورضي لهم الإسلام ديناً .

وهو من القربىٰ الذين أوجب الله تعالىٰ مودّتهم ، وجعل الرسول صلى الله عليه وآله مودّتهم أجراً لرسالته ، وولايته وولاية أجداده هي ما أُنزل على الرسول وأُمر بتبليغه ، ولو لم يبلّغها له لم يبلّغ شيئاً ؛ لأنّ الغرض من رسالته لا يتحقّق بدون تبليغها .

وهو من ذرّيّة إبراهيم الذين استجاب الله تعالىٰ دعوته فيهم ، وجعلهم من الذين نالوا عهد الإمامة الذي وصل إليه إبراهيم بعد ما ابتلاه الله ، فهو المعصوم من كلّ خطأ لم يلبس إيمانه بظلم ، فقد ولد مؤمناً بالله لم يعبد صنماً ولا وثنا ، ولم يرتكب معصية صغيرة ولا كبيرة .

وهو الشاهد علىٰ أعمال العباد خفيّها وجليّها خيرها وشرها قليلها وكثيرها ، مطّلع عليها وعلىٰ أعمالهم القلبيّة ، فهو عين الله الناظرة .

وهو الوجود العيني للكتاب ، وممّن يكون الكتاب في صدورهم آيات بيّنات . وهو من الذين اصطفاهم الله تعالىٰ من عباده الذين سبقوا إلى الخيرات ، فأورثه الله حقيقة الكتاب كآبائه الأطهار .

وهو الكتاب الناطق ، له جميع صفات الكتاب المجيد ، فهو من آيات

القرآن التي قال الله تعالىٰ فيها ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾[١] فهو الآية بعد وفاة أبيه الإمام الحسن بن علي العسكري عليه‌السلام .

وهو البشير ، يبشّر المتّقين بالجنّة ، والنذير ينذر العاصين بعذاب النار. وهو من البصائر للناس لعلّهم يتذكّرون .

وهو الحكيم الذي لا يصدر منه غير الحكمة ، وله منصب الحكم الذي كان للأنبياء ، كما قال الله تعالىٰ في داود عليه‌السلام : ﴿ يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بالحقّ ولا تتّبع الهوىٰ ﴾[٢] وهو الذكر المحفوظ الذي قال الله تعالىٰ : ﴿ إنّا له لحافظون ﴾[٣] يحفظه عن كلّ خطر وحادثة وكيد الأعداء . وهو رحمة للمؤمنين .

وهو الروح الذي به حياة الأرواح ومعه روح القدس . وهو الشافي الذي جعله الله شافياً للأمراض الباطنيّة الروحيّة من الجهل والشرك ، كما يستشفىٰ به من الأمراض الجسميّة . وهو الصادق الصديق في نيّاته وأحواله وأعماله .

وهو الصراط المستقيم ، وسبيل الله الوحيد الذي فيه نجاة التابعين له . وهو العظيم الذي عظّمه الله الذي ليس كمثله شيء . وهو الفارق بين الحقّ والباطل بسيره العملي والقولي ، وهو الفاصل بين الحقّ والباطل . وهو الكريم في كلّ شيء .

وهو كلمة الله التامّة التي تمّت صدقاً وعدلاً . وهو الحافظ لجميع الكتب السماويّة والعالم بها والمهيمن عليها . وهو أكبر نعمة أنعم الله به

---

(١) البقرة : ١٠٦ .

(٢) ص : ٢٦ .

(٣) الحجر : ٩ .

على العباد، حيث أنعم الله عليهم بوجوده ووجود آبائه الطاهرين عليهم السلام.

وهو نور الله الذي ينوّر القلوب ويخرج متّبعيه من الظلمات إلى النور، وهو بمكان من الرفعة والمقام العالي لا يعرف مقامه ومرتبة آبائه إلاّ الله ورسوله وأوصياؤه.

وهو ممّن مسّ حقيقة القرآن؛ لأنّه الوجود العيني له، فهو من المطهّرين الذين أذهب الله عنهم الرجس والجهل والشكّ. وهو من الذين عندهم القرآن الذي سيّرت به الجبال أو قطّعت به الأرض، فله التصرّف التكويني وكلّ شيء مطيع لأمره.

وما ذكرناه في هذا الفصل هو مضامين الآيات المذكورة في الفصول السابقة الدالّة علىٰ أنّ القرآن ذكر محفوظ بمراتبه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو باق أبداً، فحقيقته ووجوده في صدور الذين أُوتوا العلم أيضاً باق أبداً، وإنّما اقتصرنا علىٰ تكرار مضمونها، لأنّنا قد بيّناها فيما تقدّم.

فوجود الحجّة المهدي إبن الحسن - أرواح العالمين فداه - باق من حين ولادته إلىٰ زماننا وإلىٰ ما شاء الله.

وفي القرآن آيات لا يصحّ معنىٰ ظاهرها إلاّ بأن يأتي زمان يظهر فيه الحقّ، ويسيطر الدين الحقّ على العالم، وينتصر للمستضعفين، وهو ينطبق علىٰ ما يعتقده الشيعة من ظهور الحجّة الثاني عشر الإمام المهدي - عجّل الله تعالىٰ فرجه الشريف - يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، ويرجع إلى الدنيا آباؤه الأطهار وجماعة من المؤمنين، ونقتصر علىٰ ذكر بعضها:

منها: قوله تعالىٰ ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات

ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأُولئك هم الفاسقون ﴾[١] وهذا الوعد من الله تعالىٰ لم يتحقّق منذ أن بعث الله نبيّه محمّداً صلى الله عليه وآله إلىٰ يومنا هذا، وإذا كان له تحقّق في الخارج، فإنّما هو في زمان ظهور الحجّة[٢].

ومنها: قوله تعالىٰ ﴿ إعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها قد بيّنّا لكم الآيات لعلّكم تعقلون ﴾[٣] ولعلّ المراد بقرينة قوله تعالىٰ ﴿ قد بيّنّا لكم الآيات لعلّكم تعقلون ﴾ هو إحياء الأرض بإحياء أهلها وتربيتهم بتعاليم الدين وآدابه، وإراءتهم طريق الهداية والرشاد؛ لأنّ حياة الأرض بالنبات بعد موتها أمر يعرفه الأطفال المميّزون، فلا يناسب الخطاب بقوله تعالىٰ ﴿ إعلموا ﴾ وقوله تعالىٰ ﴿ لعلّكم تعقلون ﴾ ومقتضىٰ إطلاق الآية إحياء جميع الأرض لا بعضها، ولم يتحقّق ذلك إلىٰ زماننا، وإذا كان له تحقّق فإنّما هو في زمان ظهور الحجّة وبعده[٤].

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) جاء في مجمع البيان ٤: ١٢٥ وروى العيّاشي بإسناده عن علي بن الحسين عليه السلام أنّه قرأ الآية وقال: هم والله شيعتنا أهل البيت، يفعل الله ذلك بهم علىٰ يدي رجل منّا وهو مهدي هذه الأُمّة، وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو لم يبق إلاّ يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّىٰ يلي رجل من عترتي إسمه إسمي، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً. وروي مثل ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

(٣) الحديد: ١٧.

(٤) روىٰ في الكافي ١: ١٩٨ – ٢٠٣ بسنده عن عبد العزيز بن مسلم في حديث طويل عن الرضا عليه السلام: الإمام الماء العذب على الظمأ، والدالّ على الهدىٰ، والمنجي من الردىٰ.

وفي كمال الدين ص ٦٦٨ بسنده عن سلام بن المستنير، عن أبي جعفر عليه السلام في قول

ومنها : قوله تعالىٰ ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون ﴾(١) والمراد هو جعل الدين غالباً علىٰ جميع الأديان بإعزازه ونصرته .

وغير خفيّ أنّ ذلك لم يتحقّق بعد ، فلم يظهر الإسلام علىٰ جميع الأديان لا في زمان النبيّ صلى الله عليه وآله ولا في الأزمنة التالية ، وإلىٰ يومنا هذا ، ولا زال الإسلام بحسب الظاهر ضعيفاً ، وإن كان فيه من الحجج والدلالات والبراهين ما لا تثبت أمامه حجّة أو برهان ، فإنّه الدين الحقّ الذي ارتضاه الله لعباده ولا يقبل منهم سواه . والحاصل أنّ الآية تتضمّن الوعد بظهور الدين علىٰ جميع الأديان(٢) .

ومنها : قوله تعالىٰ ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾(٣) وتدلّ الآية الكريمة علىٰ أنّه يأتي على الأرض زمان تكون مختصّة بالعباد الصالحين ، ولم يتحقّق ذلك إلىٰ

الله عزّوجلّ ﴿ إعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها ﴾ قال : يحييها الله عزّوجلّ بالقائم بعد موتها ، يعني بموتها كفر أهلها ، والكافر ميّت .

(١) التوبة : ٣٣ .

(٢) روى الصدوق في كمال الدين ص ٦٧٠ بإسناده عن أبي بصير ، قال : قال أبو عبدالله عليه السلام في قوله عزّوجلّ ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون ﴾ فقال : والله ما نزل تأويلها بعد ، ولا ينزل تأويلها حتّىٰ يخرج القائم عليه السلام ، فإذا خرج لم يبق كافر بالله العظيم ولا مشرك بالإمام إلاّ كره خروجه .

وفيه أيضاً ص ٣١٧ بإسناده إلىٰ عبد الرحمٰن بن سليط ، قال : قال الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام : منّا إثنا عشر مهديّاً أوّلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وآخرهم التاسع من ولدي ، وهوالإمام القائم بالحقّ ، يحيي الله به الأرض بعد موتها ، ويظهر به الدين الحقّ على الدين كلّه ولو كره المشركون .

(٣) الأنبياء : ١٠٥ .

زماننا، فيكون في زمان ظهور الحجّة.

ونقتصر علىٰ هذا المقدار في هذا الفصل؛ لأنّ وجود الحجّة بن الحسن - عجّل الله تعالىٰ فرجه الشريف - وغيبته وظهوره من الواضحات البديهيّة الضروريّة عند الشيعة الإثني عشريّة.

وختاماً نذكر بعض الأبيات من قصيدة في بيان أوصاف الحجّة بن الحسن - عجّل الله تعالىٰ فرجه - واستنهاضه لفخر الشيعة ومحيي الشريعة العالم بمختلف العلوم الشيخ محمّد العاملي المشتهر بالشيخ البهائي ﴿﴾ حيث يقول:

خليفة ربّ العالمين وظلّه
علىٰ ساكن الغبراء من كلّ ديّار
هو العروة الوثقى الذي من بذيله
تمسّك لا يخشىٰ من عظائم أوزار
إمام هدى لاذ الزمان بظلّه
وألقىٰ إليه الدهر مقود خوّار
ومقتدر لو كلّف الصمّ نطقها
بأجذارها فاهت إليه بأجذار
علوم الورىٰ في جنب أبحر علمه
كغرفة كفّ أو كغمسة منقار
إمام الورىٰ طود النهىٰ منبع الهدىٰ
وصاحب سرّ الله في هذه الدار
أيا حجّة الله الذي ليس جارياً
بغير الذي يرضاه سابق أقدار

ويــا مــن مــقاليد الزمــان بكـفّه
وناهيك من مجد بـه خـصّه البـاري
أغث حوزة الإيمان واعـمر ربـوعه
فـلم يـبق فـيها غـير دارس آثـار
وأنـقذ كـتاب الله مـن يـد عـصبة
عـصوا وتـمادوا فـي عـتوّ وإصـرار
يـحيدون عـن آيـاته لروايـة
رواها أبو شعيون عـن كـعب أحـبار
وفي الدين قد قاسوا وعاثوا وخبّطوا
بآرائـهم تـخبيط عشـواء مـعثار
وأنعش قلوباً فـي انـتظارك قـرّحت
وأضـجرها الأعـداء أيّـة إضـجار
وخـلّص عـباد الله مـن كـلّ غـاشم
وطـهّر بـلاد الله مـن كـلّ كـفّار
وعـجّل فـداك العـالمون بأسـرهم
وبادر على اسم الله من غير إنظار(١)

والحـمد لله ربّ العـالمين ، وصـلّى الله عـلىٰ سـيّدنا مـحمّد وآله الطاهرين .

---

(١) الكشكول للشيخ البهائي ١ : ٢٣١ - ٢٣٤ .

فهرس الآيات

الفاتحة

البقرة

آل عمران

النساء

المائدة

الأنعام

الأعراف

الأنفال

التوبة

يونس

هود

يوسف

الرعد

إبراهيم

الحجر

النحل

الإسراء

الكهف

مريم

طه

الفرقان

الشعراء

النمل

القصص

العنكبوت

الروم

لقمان

السجدة

الأحزاب

سبأ

فاطر

يس

غافر

فصّلت

الشورىٰ

الزخرف

الجاثية

الأحقاف

الدخان

محمّد صلى الله عليه وآله

الفتح

الحجرات

ق

الذاريات

النجم

القمر

الرحمٰن

الواقعة

الحديد

المجادلة

الحشر

الجمعة

التغابن

الطلاق

التحريم

القدر

البيّنة

التكاثر

فهرس مطالب الكتاب